جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية الآداب

قسم/ التاريخ والحضارة الإسلامية

حركة الزنج وآثارها
السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الدولة العباسية
(٢٥٥/٨٧٠-٢٧٠هـ/٨٨٣م)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة/ فاطمة سعيد خليفة محمد
إشراف البروفسور/ عبد القادر عثمان محمد

١٤١٠هـ/٢٠٠٩م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيْمِ

﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لمَ ْتكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

صدق الله
العظيم

سورة النساء

من الآية ١١٢

الإهـــــــــداء

إلى كلّ حرٍّ، يضع عقيدته من وراء عقله ...
ويطـلق عقلـه من أسـر إرادتـه ...
يفكِّـر، ليـختارَ الـذي يـريـد ...
ولا يريد، ليفرض على عقله كيف يفكِّر ...
وإلى كلِّ من يسعد بإنجازي لهذا العمل المتواضع

أُهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

لقد كرَّمَ الله سبحانه وتعالى أصحاب الألباب والحِجَى الذين يعملون الخيرات، ولا يتردَّدون في تقديم العون والمساعدة ويتعاطون مع بني جلدتهم بكلِّ حفاوة وكرم؛ وذلك بأن جعل العرفان لهم وشكرهم من شكره تبارك وتعالى وفي هذا تكريم للإنسان الخيّر ما بعده من تكريم .

فقد قال رسولنا الكريم المجتبى محمد صلوات الله وسلامه عليه:– " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الناس لَمْ يشْكُرِ الله "[(١)] ؛ وإقتداءً به وبما جاء على لسانه الصادق الطاهر ؛ فالشكر كلُّ الشكر والتقدير لأولئك الكرام الذين لم يضنُّوا عنِّي حتى بأدنى ما يملكون أنْ يقدموه لي لإنجاز هذا العمل المتواضع، فجادوا عليه وعليَّ بكلِّ غالٍ ونفيس .

ولئن كان للكرم أولٌ، فأوله ذلك الرجل الذي تشرَّفتُ وتشرف هذا البحث بإشرافه عليه، فكان محظوظاً بأنْ نال حُظوة الأستاذ الدكتور عبد القادر عثمان محمد الذي أطلب من الله العلي القدير أن يجزيه خيراً على كرمه وسخائه .

كما أُجزل الشكر والتقدير والامتنان اعتزازاً وعِرفاناً وغبطةً وسروراً لذلك الصرح العلمي الكبير جامعة أم درمان الإسلامية تلك المنارة العلمية التي ملأ نورها أصقاع الدنيا بأسرها، فما من أحدٍ تعطَّش للعلم والمعرفة وأراد النهل منهما إلاَّ واردها .

كما أخصُّ كلية الدراسات العليا بجامعة أم درمان الإسلامية عميداً ومسجلاً وكادراً أكاديمياً وإدارياً بلا استثناء بوافر الشكر والتحايا على الجهد المضني الذي يبذلونه إخلاصاً منهم للعلم وطالبيه، فجزاهم الله عن طلاب الدراسات العليا خير الجزاء.

وإلى الشعب السوداني كافة عميق الامتنان والتقدير والاحترام على ما لاقيناه من كرمٍ وافرٍ وحفاوةٍ بالغةٍ ومن تقديرٍ واحترامٍ طيلة وجودنا بينهم، فهم أهلنا وذوونا، ونتشرَّف بهم جميعاً .

كما لا أنسى ولا شيءَ ينسيني أنْ أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للقائمين على معرض الكتاب بجمهورية مصر العربية الذي يُعدُّ – وبحقٍ – ملجأً وملاذاً للبحَّاث وطلاَّب

---

(١)– خرَّجه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٨/٢ والترمذي في جامعه كتاب البر، قال الألباني: إسناده إسناد صحيح ينظر مشكاة المصابيح للتبريزي ت(٥٠٢هـ) (دار الكتاب العربي/بيروت – لبنان) (د/ت) .

الدراسات العليا على وجه الخصوص لِما يوفره لهم من نادر الدرر والمصادر التي كادت أن تكون غُفلاً لولا جهود أُولئك الغيارى على التراث العربي الأصيل الذي يحفظ لنا هويتنا العربية وكرامتنا بين الأمم .

كما أسدي جزيل شكري وعميق امتناني واحترامي للقائمين على مكتبة كلية الدعوة الإسلامية بالجماهيرية العظمى التي ما فتئت تحرص على تقديم أجل الخدمات والعون لطلاب العلم والمعرفة في شتَّى أنحاء المعمورة .

وكلُّ التقدير والاحترام والاعتزاز والتحايا لزوجي ذلك الرجل الإنسان الذي ما فتئ يحفزني ويشدُّ من أزري فكان ولا يزال – وبحقٍّ – نعم العون ونعم السند فادعوا الله العلي القدير أنْ يفتحَ له فتحاً مبيناً .

وللأخ الأستاذ فوزي البشير صقر أجزل الشكر وأعطره على ما قدَّمه من جهود جليلة بخصوص السحب والتصوير والاستنساخ لإظهار هذا العمل المتواضع بهذه الصورة الطيبة .

فلهؤلاء مِمَّن ذكرتُ هنا في هذه العجالة، ومَنْ لم أذكر الذين لم يتَّسع المقام هنا لذكرهم، ولكنَّهم في قلبي وضميري وذاكرتي شاخصون أبداً، فلهم جميعاً أسمى آيات التقدير والاحترام وأزكاها، والشكر الجزيل والعرفان والاعتزاز لهم وبهم على مدى الزمان ومرِّهِ لِما أسدوه لي في هذا العمل المتواضع .

*****

ملخص البحث

تلخَّص هذا البحث الذي جاء موسوماً بـ(حركة الزنج وأثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الدولة العباسية) وهي دراسة استقصائية استقرائية في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وقد تتبَّعتِ الباحثة ما تحدَّث به المؤرِّخون حول ثورة الزنج وانتفاضتهم، وما جاء موثَّقاً في كتب التاريخ ومصادره مبثوثاً هنا وهناك إزاء سرد أحداث هذه الثورة السوداء، وقد كانت هذه الكتب والمصادر شحيحةً في تزويدها للبُحَّاث بتفاصيلٍ، لا بل بأنباء تنبئ بأحداث ثورة الزنوج ومراحلها وأطوارها إلاَّ أنَّه تَمَّ بعون الله وتوفيقه التقاط كلِّ المتاح من المعلومات واستقصائها بكلِّ ما أُوتيت الباحثة من إمكانيات حرصاً منها على إبراز هذه الثورة وشخوصها وأهدافها ومقوماتها وصولاً إلى الحقيقة التي يمكن لنا الاستناد والاعتماد إليها وعليها؛ فكان الفصل الأول مشتملاً على أساسيات البحث التي تمثلت في أهمية الموضوع ومناهج الدراسة وحدودها وأدواتها وفروضها والمشكلة التي تواجه هذه الدراسة وأهدافها .

وجاء بعد ذلك الفصل الثاني مشتملاً بدوره على مبحثين اثنين كان الأول منهما مخصَّصاً لصاحب الزنج وزعيمهم وما يتعلَّق به من معلومات حول مولده ونشأته واسمه ونسبه وأخلاقه وانتمائه وشخصيته الثقافية ومذهبه واتجاهاته الفكرية؛ ثُمَّ المبحث الثاني وقد اشتمل على الدواعي التي دعت إلى قيام أصحاب هذه الثورة بها، والأسباب التي كانت وراء نشوبها .

ثُمَّ يأتي دور الفصل الثالث (الثورة والصراع والنهاية) امتدت حدوده الزمنية من سنة٢٤٩هـ، حتَّى سنة٢٧٠هـ، الذي تناولتْ فيه الباحثة كلَّ أحداث الثورة والمعارك الدامية والصراعات المحمومة التي خاضها الزنج مع الدولة العباسية منذ تخطيط صاحب الزنج لثورته، ثُمَّ اندلاعها، وحتَّى نهايتها واضمحلالها بهزيمة الزنج واندحارهم، وقتل صاحبهم زعيم هذه الثورة .

وقد تضمَّنَ الفصل الثالث على مبحثين اثنين الأول منهما تضمَّنَ الحديث عن (فترة ما قبل تولِّي أبي أحمد الموفق قيادة الجيش) والممتدة من سنة ٢٤٩هـ، وحتى سنة٢٥٦هـ، وخُصِّصَ لبداية الدعوة للثورة وبداية التمركز والتحصين، ثُمَّ اندلاعها وبدء الغزو والتوسع على حساب الخلافة العباسية؛ أمَّا المبحث الثاني فقد خُصِّصَ للفترة التي (ما بعد تولَّى أبي أحمد الموفق قيادة الجيش) والممتدة من سنة ٢٥٧هـ، وحتَّى سنة ٢٧٠هـ، وذلك لمفصلية كلٍّ من هاتين المرحلتين من عمر هذه الثورة؛ وقد تضمَّنَ الحديث عن ظهور ابن طولون على مسرح الأحداث في تلك الفترة وأثناء هذه الظروف القاسية التي تمرُّ بها الخلافة العباسية مِمَّا زاد الطين بِلَّة بالنسبة للدولة العباسية وأدَّى إلى انشغالها عن حرب الزنج والتفاتها إليه لمحاربته مع أتباعه الأمر الذي كلَّفها وقتاً كان ينبغي أنْ تتفرغ فيه لحرب الزنج، وجهداً كبيراً من شأنه أن يؤدِّي إلى استنزاف مواردها وقِواها؛ كما تضمَّن هذا المبحث فراغ العباسيين للزنج بعد التخلص من

الطولونيين، ثُمَّ بناء مدينة الموفقية، ثُمَّ سقوط المختارة عاصمة الزنج وإخماد ثورتهم واضمحلالها بعد اندحارهم بسقوط عاصمتهم وقتل زعيمهم !

أمَّا الفصل الرابع فقد خُصِّصَ للعوامل التي أدت إلى إخفاق ثورة الزنج؛ وأثار هذه الثورة على الدولة العباسية، وقد قُسِّمَ هذا الفصل على مبحثين اثنين أولهما تضمَّنَ عوامل إخفاق ثورة الزنج وعجزها عن الصمود وفشلها في تحقيق أيٍّ من أهدافها، أمَّا المبحث الثاني منه فتعرَّض للآثار (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) التي تركتها هذه الثورة على الدولة العباسية وخلافتها .

وبعد هذا كلِّه تأتي الخاتمة وقد اشتملت بدورها على أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة المتواضعة وقد أُردفت بالفهارس العامة .

وتوصي هذه الدراسة بالعمل على النهوض بأعباء دراسة جميع الحركات والثورات التي تخللت أحداث التاريخ العربي الإسلامي دراسةً موضوعيةً تتسم بالحياد وتهدف إلى إظهار الحقائق في تلك المراحل المفصلية من تاريخ الإسلام وأحداثه، كما ترمي لإماطة اللثام على النحو الذي ينبغي لتظهر الحقيقةُ واضحةً جليةً، تلك الحقيقة التي على أساس منها يرتبط الحاضر بالماضي وتنعقد بنا الصلة بتاريخنا الإسلامي الموغل في الأصالة والعمق على نحوٍ يمكننا من امتلاك ناصيته واعتلاء عرشه .

كما توصي الدراسة بالتَّمسّك بقراءة واعية للتاريخ مهما كان نوعه والبحث فيه؛ لكونه فنٌّ عزيزُ المذهب جمُّ الفوائد شريف الغاية؛ فهو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً– في سيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم حتَّى تتمَّ فائدة الإقتداء في ذلك والعبرة لمن يرومهما في أحوال الدين والدنيا .

*****

Abstract

The dissertation at our hand which is entitled "the Blacks revolt: its political, Economic, and Social impacts on the Abbyssides State " is both an inductive and deductive study concerned primarily with the Black's revolt and their repeated uprisings over history.

The researcher has relied upon and made use of almost each and every historical source and reference that dealt with the various events and stages of such revolt, particularly: its individual participants, the overt and covert objectives, the circumstances Encircled the revolts timing ……ect

The dissertation divides into an introduction and four chapters with conclusion and recommendations given at the very end . The first chapter is entirely devoted to the research fundamentals: the subject's significance, methodology pursued, limitations of the study, tools of research, hypotheses, and objectives.

The second chapter comprises two sections; the first is chiefly dedicated to talk about the blacks leader and his charisma, socialization and kinship, affiliations and cultural background as well as political perspectives. Whereas the second section discusses the reasons and justifications behind the waging of such revolt together with the unseen goals sought as a consequence.

As for the third chapter, it includes two section the first of which has focused on talking about the period stretching from 249 Hejra to 256 Hejra , i.e. before ahmed al-Muwafiqs assumption of the army

command), with neat concentration on the beginnings of the call for revolt and setting up strongholds and fortifications that eventually led to the start of expansion at the expense of the abbyssides state. The second section ,meanwhile, examines on the post-era of ahmed al-muwafigs assuming the command of the army(i.e. 257 h.-270 h.) however, this era was characterizes by the appearance of lbn Toloneo's the scene of events ,thus forcing the abbyssides ' state to engage in a bloody war against 'lbn tolone ' and his followers instead of curbing the blacks rebellion , with no intention in the horizon on the part of 'lbn tolone for demission for his cause . the forth chapter deals with the various that contributed to the failure of the blacks revolt as well as its negative effects on the internal structure and the political fabrics of the abbyssides 'state. The very chapter divides into two section ,where the first investigates in detail the depression of the revolt and its inability to achieve its premeditated goal, while the second tackles mostly prominent impacts at the economic, social and political strata.

And finally come the conclusion and recommendations of the study. the researcher recommends that all movements and revolts, throughout the Islamic history, be objectively and mindfully investigated in order to unveil the truth and be acquainted with our glorious past.

المقدمة
بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيّباً مباركاً يوافي نعمه ويكافي مزيده . ياربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمدٍ النبي الكريم الأمين المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه الغرِّ الميامين صلاةً وسلاماً دائمين .

أمَّا بعد

فقد ساقني اهتمامي الكبير بتاريخ الدولة العباسية خلال دراستي الجامعية الأولية إلى الاهتمام بتاريخها ومجرى الأحداث فيها الصغائر منها والعظام، وما بلغته من مجد ورقي سطَّر به بنو العباس صفحات التاريخ المضيئة التي لا تخفى على أحد، وقد جرَّني ذلك الاهتمام والشغف إلى تتبع تلك المؤامرات التي أُحيكت للدولة العباسية خلال مسيرتها الطويلة، والتي كان من أبرزها تلك الحركات والثورات التي كانت تهدف إلى القضاء على سلطان بني العباس وخلافتهم في دولتهم، أو ترمي – على الأقل – إلى الانفصال عنها وتأليب قلوب الناس ضدَّها، وما أكثر تلك الحركات والثورات هذه، التي ظهرت في القرن الثالث الهجري، وقبله كانت كلُّها تنزع للاستقلال عن الدولة العباسية سواء في مركزها في العراق أو في بلاد فارس من خراسان إلى سجستان إلى جرجان، وفي مصر، وفي جنوبي بلاد اليمن، واستفحل أمر هذه الحركات الانفصالية والثورات، وعظُم خطبُها حتَّى خُيِّل للناظر أنَّه لن تقومَ قائمة للدولة العباسية بعدها، ولا غرابة في هذا كلِّه إذ لا نعدم تفسيراً لظهور هذه الحركات والثورات، ولا نلمس صعوبةً في ذلك بمجرد النظر في أمر الخلافة العباسية وما تقاسيه من ضعف وتردٍ في مركز قيادتها سواء أكان في بغداد أو في سامراء وذلك بسبب تسلط الأتراك واستحواذهم على الحكم بحيث كانوا سبباً في الفوضى العارمة التي اعترت الخلافة العباسية وأرهقتها كثيراً، وبموجب ذلك كان الخلفاء العباسيون والقائمون على الحكم من غير الأتراك لا سلطان لهم على شيء من أمر

الدولة والرعية، وإن كان الأمر كذلك في مركز الحكم بغداد وسامراء فكيف به في تلك الأمصار البعيدة؟

وعودٌ على بدءٍ فإنَّ الحركات الانفصالية والثورات كانت – كما ذكرنا آنفاً – قد استقت عنفوانها من تلك الحالة السيئة التي تمرُّ بها الدولة العباسية وتعيشها، ويمكن لنا هنا أنْ نذكر منها في هذه العجالة على سبيل المثال لا الحصر: ثورة الصَّفَّارين(٢٥٤هـ/٨٦٨م – ٢٩٠هـ/٩٠٤م) والسامانيين في بخارى (٢٥٠هـ/٨٦٤م – ٣٩٥هـ/١٠٠٩م) والطولونيين بمصر والشام (٢٥٤هـ/٨٦٨م – ٢٩٢هـ/٩٠٦م) والزيدية في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن، وحركة القرامطة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث، وثورة الزنج[١] التي انفجرت في تلك الأحوال المضطربة المتضعضعة، فكانت كبرى وهدَّدت الخلافة العباسية في الصميم وكانت عليها أخطر من استبداد الأتراك أنفسهم؛ فكانت ساحتها أرض العراق، وتطاول مدُّ أصحابها من البصرة حتَّى أبواب بغداد وأعتابها، فبسطت سطوتها على جزءٍ ليس بالقليل من الأمصار داخل العراق، واستعبدت العرب وغير العرب فصار بذي الأسيادُ عبيداً والعبيدُ أسياداً، وجرت بفتنة الزنج وصاحبهم الدماءُ في الأمصار أنهاراً.

وبعد، فإنَّ محاولة دراسة أسباب ضعف الدولة العباسية وبالتالي اضمحلالها واندثارها، ثمَّ تحليلها هو أمر يستعصى على مَنْ حاول الإلمام به؛ لأنَّ تلك الأسباب والعوامل أكثر وأكبر من أنْ تحصر خصوصاً على من كان مثلي باحثة متواضعة الإمكانيات، الأمر الذي يجعلني أضطر إلى دراسة جزء يسير منها، عساني أسهم بقدرٍ ولو كان قليلاً في سبر أغوار تلك العلل والأسباب التي غيَّرت مجرى التاريخ والأحداث .

ولعلَّ حركة الزنوج قد أسهمت بشكلٍ فعَّالٍ في تهديد الخلافة العباسية بتلك الثورة العارمة التي قام بها العبيد على أسيادهم ومذليهم محاولةً منهم لنيل حريتهم وتحقيق

---

[١]– يقال: الزِّنجُ والزَّنجُ لغتان: جيل من السود، وهم الزُّنُوجُ وأحدهم: زِنْجِيٌّ وزَنْجِيٌّ، لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ت(٧١١هـ) (ط/٣) (دار صادر/بيروت – لبنان) سنة٢٠٠٤م، مادة: (زنج) .

سيادتهم، وتحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وحتَّى السياسية، والتي دعا فيها زعيمها إلى العمل بالشريعة الإسلامية على نحو ما كانت عليه في صدر الإسلام، وهو في هذا يعوِّل كثيراً على اغتنام ما تمرُّ به أحوال الدولة العباسية من فسادٍ مطلقٍ وشائع .

فقد سكن الزنوج العراق منذ مدة ليست بالقصيرة، وكان أول ظهور لهم في أخر أيام مصعب بن الزبير، وكانوا آن ذاك قليلي العدد، وكان هذا الظهور بفرات البصرة[١] ، وقد استعملهم الأهالي آنذاك في أعمال شاقة، وكانوا مع ذلك يتعرضون إلى الإهانة والضرب بالأسواط من قبل وكلاء أسيادهم الذين يحملونهم على القيام بهذه الأعمال الثقيلة المرهقة بالقوة، فكانت حالتهم سيئة جداً ومتردية نظراً لما يلاقونه من إرهاق وتعبٍ وإهانة، فساءت بذلك أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أيضاً، فهم لا يملكون ثقافة معينة أو معرفة ما إذ هم في الغالب أُميُّون إذا لم نقل جهَّالٌ، فمعظمهم لا يتكلَّم العربية رغم أنَّه يعيش بين العرب على غرار بعضٍ منهم الذين حُرموا من فرصة تمكنهم من العربية لكونهم يعملون في الخلاء بعيداً على المدن، إضافةً إلى سذاجتهم التي يلمسها المرء في سهولة تصديقهم لأي وعدٍ بتحسين أوضاعهم؛ فنجدهم ينجرون سراعاً وراء كلِّ مَنْ يوحي إليهم بذلك، الأمر الذي جعل زعيم الزنج (علي بن محمد) لا يجد عناءً في إقناعهم بالانخراط في حركته، كما أنَّهم في الوقت ذاته يمتازون بالشجاعة والجرأة والإقدام والتفاني وفاءً لما يعتقدونه ويؤمنون به.

ولقد لُقِّب زعيم حركة الزنوج بـ " صاحب الزنج "، ولم يكن عبداً أسوداً، ولعلَّ هذا هو السر بإطلاق هذا اللقب عليه؛ لأنَّه لم يكن منهم، بل كان مصاحباً ورفيقاً لهم في الثورة وقائداً يحركهم ويوجههم لتنفيذ مهام الثورة والقتال، آخذاً بأيديهم إلى ما يصبون إليه في اعتقادهم .

وقد ظهر صاحب الزنج وزعيمهم هذا أولاً في البحرين داعياً إلى مبادئه وأهدافه

---

[١] – دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني (وهو قاموس عام لكل فن ومطلب)(١٨١٩م/١٨٨٣م) (مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان/تهران، ناصر خسرو، فاسر مجيدي) يطلب من دار المعرفة (بيروت – لبنان)، ٢٥٩/٩ .

في سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م، وقد اعتنقها بعضٌ من عرب البحرين وغيرهم إلاَّ أنَّهم اندحروا على نحو ما سنرى بعونه تعالى، ثُمَّ ظهر للمرة الثانية في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م بفرات البصرة .

وقيل في اسمه بأنَّه: علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1] عليه السلام، كما قيل بأنَّ اسمه الأصلي بهبوذ وإنمَّا تسمَّى بـ" محمد بن علي "، وكما سنرى بعونه تعالى أنَّه انتسب في بادئ الأمر إلى بني عبد قيس، إلاَّ أنَّه لم يستقر على ذلك إذ سرعان ما انتسب إلى الزيدية من أولاد علي رضي الله عنه؛ فلمَّا كان المجتمع آنذاك مجتمعاً إسلامياً كان لابدَّ لصاحب الزنج من أن يلبس ثوباً دينياً ويرتدي عباءة أهل التقوى والورع، فأنتسب – كما مرَّ قبل قليل – إلى آل علي بن أبي طالب ليكون مؤثِّراً في قلوب تابعيه ويستمليهم إلى حيث يريد، وقد اضطربت الأقوال في تحديد نسبه، كما في اسمه، فهناك من قال أنَّه فارسي الأصل، وهناك من يردُّ نسبه إلى أصل عربي على نحو ما مرَّ قبيل قليل، وعلى كلٍّ فَّإنَّ هذا سيبحث بعونه تعالى في أوانه وموضعه .

فصاحب الزنج هذا كان ذكياً لبقاً طموحاً وذا جرأةٍ وإرادة صلبة، فهو صاحب فكرٍ ونظرٍ، يُعمِلِ عقله وحسن تدبيره قبل أنْ يُعمِلَ قوته ويطلق العنان لسلاحه، فكان ذا قدرة عالية في التحايل والخداع، يمتلك الأساليب الكفيلة بإقناع محاوريه وأتباعه .

وهو بهذه الأوصاف الفطرية المتميزة استطاع أن يكتسب عبقرية مكنته من اكتشاف ما يكمن من قوة في السود فطوَّعها وتمكَّن من تحريكها فيهم وترجمتها إلى عملٍ رهيب أرعب الخلافة العباسية – فيما بعد – كابدته وذاقت جرَّائه الأمرَّيْن، قبل أن تستطيع كبحه وإخماده والقضاء عليه وعلى أصحابه بعد وقت دام طويلاً .

فهو إذن شخصية جبَّارة ذو ثقافة عالية، حيث كان شاعراً فحلاً وخطيباً بليغاً، وفيما يبدو أنَّ صاحبنا قد امتلأت نفسه حقداً وغِلاًّ على العباسيين، وفاض قلبه بالسخط عليهم فهو متذمرٌ من التفسخ الأخلاقي والخروج عن الدين، والاستهتار بالشريعة وعدم الوقوف عند حدود الله؛ وليس هذا فحسب، بل أنَّه كان مستاءًا من الأحوال

---

[1]– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتباكي ت(٨٧٤هـ/١٤٦٩م) (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر)سنة ١٩٤٠م، ٢١/٣ .

السائدة آنذاك على الأخص من الحالة السياسية التي تمرُّ بها الخلافة العباسية، وعلى رأسها سيطرة الأجانب من الأتراك على الخلفاء وسيادتهم عليهم وعلى مقاليد الحكم في الدولة العباسية[١] .

وبهذا وربما بغيره وجد صاحب الزنج لنفسه ولأصحابه المبرر والعذر في القيام بما يختلج في نفسه وفي خلجات أتباعه من العبيد المقهورين، فكانت الثورة التي أشعل فتيلها وأطلق لها العنان علناً ودون هوادة في سنة ٢٥٥هـ في عهد الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق، وقد وضع لها أهدافاً مغرية فتحت شهية الزنج العبيد، وجعلتهم ينساقون ورائها دونما عميق تفكير، وتلك الأهداف التي وضعها صاحب الزنج لثورته كان من أهمها: تحرير العبيد من الزنوج وعتقهم من العبودية والمهانة التي يلقونها على أيدي أسيادهم من الأحرار من الأثرياء وأرباب الأعمال، كما كان هدفها الثاني هو تحسين المستوى المعيشي للزنج وإصلاح أحوالهم، وذلك بمساعدتهم على الحصول على الأموال بعد استحواذهم على حريتهم، وليس هذا فحسب، بل وعدهم بأن يصبحوا أسياداً لأسيادهم الذين سيصيرون رقيقاً لعبيدهم بفعل هذه الثورة التي ترفض الرق وترفعه عن أتباعها، وتشرِّع أن يكون لهم رقيق وعبيد، فالرق كان حاضراً موجوداً في فلسفة هذه الثورة السوداء، بل كان كثيراً ومألوفاً، فالأرقَّاء الذين وقعوا في قبضة الزنج كما هو ثابتٌ كُثَّر، إلى درجة أنَّ الواحد منهم كانت بحوزته العشرات من حرائر النساء العربيات، حتى العلويات صار بعضهنَّ جوارياً لهؤلاء الزنوج .

أمَّا الهدف الثالث فقد تمثَّل في وصول أتباع هذه الثورة إلى السلطة وتسلمهم السلطان والملك، إذ كان من مبادئه إمكانية مجيء الخليفة من العبيد، إذ لا يرى ضرورةً في أن تقتصر الخلافة عن العرب فقط، بل لا ضير لديه في أن يصبح غير العربي أهلاً للخلافة، بل لا مانع عنده في أن يصبح العبد خليفةً وسيِّداً يتبعه الورى، وتدين له الهامات .

---

[١]– ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر في الملح والنوادر لأبي إسحاق إبراهيم علي الحصري القيرواني ت(٤٥٤هـ) (د/ط) (القاهرة/مصر) (د/ت) ، ص١٥٤ .

وقد كان دعا إلى ثورته هذه أولاً بشكلٍ محدود في البحرين في سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م، وكانت ثورته هذه سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م في أرض تقع بين واسط ومصب دجلة العوراء، وهي سهول مستوية مغطاة بالمستنقعات والأدغال والقصب تتخللها قنوات المياه التي تمرُّ بالقرى والمدن، ولعلَّ هذه المناطق كانت مهداً لحركات العصيان من ذي قبل، ويُعدُّ مثلاً لهذا العصيان ما قامت به عصابات الزط في العصر العباسي الأول .

فالزنج أكثر تأهيلاً واستعداداً من غيرهم للقيام بحركة عصيان على الدولة العباسية في هذه الأرض التي تسهِّل مهمتهم سيما، وقد آلفوا كلَّ ناحية فيها لكونهم اشتغلوا فيها فترة ليست بالقصيرة، الأمر الذي يجعلهم يتقنون حرب العصابات عليها .

فهم إذن يتمتعون بخبرة كبيرة على هذه الأرض، وقد ساعد هذا في سهولة حركتهم عليها مضافاً إلى ذلك جهل العباسيين بمداخل هذه المنطقة ومخارجها، لذا استمرت هذه الحرب أكثر من أربعة عشر عاماً، ولقد بدأ زعيم هذه الحركة " علي بن محمد " بدايةً بسيطةً، فكان قليل السلاح والمال، إلاَّ أنَّه وسَّع إمكانياته، عندما أخذ يشن هجمات على القرى الغربية من البصرة، من ذلك هجومه على قرية الجعفرية، وغيرها؛ مِمَّا مكَّنه من الحصول على كثيرٍ من المال والسلاح[١] ، ومع أنَّ بعض المؤرخين يذهب إلى أنَّ زعيم حركة الزنج لم يتعرض للأبرياء ولكنَّه يخصُّ بعدائه الدولة العباسية فحسب[٢] .

ولعلَّ الرَّاجح أنَّ الزنج أذاقوا المدن والقرى في تلك المناطق الأمرَّين، ولاقى أهلها وساكنوها المتاعب الجمَّة من جراء غارات الزنج وعبثهم وفسادهم من ذلك قرى حسام والرصافة والحوانيت[٣] .

وعلى هذا لا غرابة في القول بأنَّ مثل هذه الثورة بهجومها على أمصار الدولة العباسية ومقدراتها قد شكلت خطراً داهماً سبَّب بشكلٍ أو أخر في إنهاك العباسيين

---

[١]– تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤هـ – ٣١٠هـ (ط/٢) (دار الكتب العلمية/ بيروت – لبنان) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٥٤٩/٧ .

[٢]– المصدر نفسه ٥٤٨/٧ .

[٣]– الكامل في التاريخ للإمام عمدة المؤرخين أبي الحسين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ت(٦٣٠هـ) (طبعة/بولاق)سنة١٢٧٤هـ، ١٢٥/٧ .

وإضعاف قدرتهم على السيطرة على زمام الأمور، وأثَّرت بشكلٍ سلبي وكبير وفعَّال في زعزعة قوتها، وهزِّ أركانها، وليس هذه فحسب، بل أنَّ حركة الزنج بعنجهيتها هذه جعلت الخلافة منشغلة بأمرها وأمر محاربتها، ومنغمسة في أوحالها، مِمَّا جعل المجال مفتوحاً لظهور مغامرين آخرين على غرار صاحب الزنج، وشكَّل ذريعةً لأصحاب الطموحات السياسية أنْ يستخفُّوا بالخلافة فيعلنون عصيانهم لها وثورتهم عليها .

وهنا يمكن الإشارة بشكلٍ سريع إلى ما قام به يعقوب الصفار الذي حاول الاستفادة من هذا الوضع فأغتنم هذه الفرصة التي تمثلت في ضعف الدولة العباسية من جانب، وانشغالها في أعبائها التي تعدُّ حركة الزنج من جانب أخر واحدة منها .

فالصفَّار استطاع قطع جزءٍ ليس بالقليل من أملاك الدولة العباسية، وبذا شكَّلَ تهديداً خطيراً لها خصوصاً ببلوغه جدران بغداد[١] ، وفي هذه الأثناء ظهر آخرون منهم محمد بن عبيد الله الكردي الذي صار – فيما بعد – عاضداً ليعقوب الصفار فيما أصبح عاملاً له على الأهواز وتضامن بعد ذلك مع صاحب الزنج لتقويض حكم الخلافة العباسية .

ولعلَّ في هذا ما يدفع الدولة العباسية لردة الفعل ويشعرها بالخطر المحدق بها، ويضعها أمام محكٍّ خطيرٍ لا مناص من أنْ تواجه من يتهددها ويتوعدها بتقويض سلطانها؛ ولمَّا كانت قدرات الدولة – فيما يبدو – غير كافية على الأقل على مواجهة كلِّ الأخطار في آنٍ واحدٍ الأمر الذي يفسره قيام الموفق بصب كافة جهوده وتركيزها على مواجهة الصَّفَّار وحركته، الأمر الذي تمخض عنه إهمال حركة الزنج، مِمَّا زاد من هامش حريتها الذي يمكنها من التحرك بسهولة ويسر تامين، فمدَّ الزنج من نفوذهم حتى طال بعض المناطق الشمالية التي كانت شبه خالية من عساكر الدولة، وقد تحالفت معه بعض القبائل العربية التي كانت تسكن بالبقاع جنوبي واسط ومن هنا وجدت الخلافة العباسية نفسها فيما يشبه دوَّامة يتعسَّر الخروج منها، فهي صارت كما رأينا نهب أمور كثيرة قد أحتار القائمون على الخلافة العباسية فيها؛ ولعلَّ البحث والدراسة اللذين نقوم بهما هنا يسبران غور تلك المحن التي قاستها

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧/١١٥ .

الخلافة العباسية أبَّان تلك الحقبات من الزمن ويسدلان الستار عن حركة هدَّدت الدولة العباسية وكادت تقوِّض أركانها .

وقد جاء تصوري فيما توصلت إليه من بحث ودراسة أنْ يُقسَّم هذا البحث على أربعة فصول الأول منها هو أساسيات البحث أمَّا الثلاثة الباقية فيشتمل كلٌّ منها على مبحثين اثنين على النحو التالي:

الفصل الأول(أساسيات البحث) وقد تناولت فيه المحاور الآتية:

١) أهمية الموضوع .
٢) مناهج الدراسة .
٣) حدود الدراسة .
٤) أدوات الدراسة .
٥) مشكلة الدراسة .
٦) فروض الدراسة .
٧) أهداف الدراسة .

الفصل الثاني:(صاحب الزنج حياته وفكره والدواعي) وقد قسمته إلى مبحثين اثنين وتناولت فيهما المحاور الآتية:

المبحث الأول: صاحب الزنج وأحواله .

المبحث الثاني: دواعي الثورة وأسبابها .

الفصل الثالث:(الثورة والصراع والنهاية) وقد قسمته إلى المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: مرحلة ما قبل تولي الموفق قيادة الجيش .

المبحث الثاني: مرحلة ما بعد تولي الموفق قيادة الجيش .

الفصل الرابع:(الإخفاق والآثار) وقد قسمته إلى مبحثين اثنين وهما:

المبحث الأول: أسباب وعوامل إخفاق ثورة الزنج واندثارها .

المبحث الثاني: أثار ثورة الزنج على الدولة العباسية .

الخاتمة: وقد ضُمِّنت بتوفيقٍ من الله سبحانه وتعالى أهم النتائج التي توصَّلت إليها الدراسة، وقد ذُيِّلت هذه الرسالة بثبتٍ للمصادر والمراجع، ثُمَّ بفهرسٍ للمحتويات .

هذا ما استطعت التوصُّل إليه وجمعه، فعساني به قد أسهمت بسفرٍ جديدٍ أسديه إلى المكتبة العربية خدمةً لها وللتراث العربي الإسلامي البديع؛ فإنْ وُفّقت إلى ذلك، فما توفيقي إلاَّ من عند الله وبه سبحانه عليه توكلت وإليه أُنيب؛ وإنْ كانت الأخرى فأجري على الله، وعليه قصد السبيل .

وختاماً ليس لي إلاَّ أن أتمثلَ قول العماد الأصفهاني، حين قال، وهو محقٌّ في قوله وعلى أدقّ ما يكون الصواب:- " إنِّي رأيتُ أنَّه لا يكتبُ الإنسان كتاباً إلاَّ قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيْدَ كذا لكان يستحسن، ولو قدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العبر؛ وهو دليلُ استيلاء النقص على جملة البشر " .

فصدق الأصفهاني في قوله هذا وأصاب كبد الحقيقة؛ وأُقرُّ بأنَّني لم أكن بأحسن حالٍ مِمَّا قال، ولست كما قال، بل أنَّني كنت أُغيِّر وأزيد وأُقدِّم وأترك قبل أنْ أكتب من الأصل، وأكرِّر وأتردّد مراراً وتكراراً، مِمَّا يوقعني في قلقٍ يربكُ ذاتي ويحيرني، وعندما أكتب يرتابني الشعور بالنقص فتسيطر عليَّ رغبة التغيير بالزيادة والتقديم، وربَّما الترك، وما إلى ذلك على سبيل محاولة إدراك الكمال وهذا محال، فسبحان سبحان من له وحده الدوام والكمال .

*****

الفصل الأول

(أساسيات البحث)

أهمية الموضوع .

مناهج الدراسة .

حدود الدراسة .

أدوات الدراسة .

فروض الدراسة .

مشكلة الدراسة .

أهداف الدراسة .

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة وتنبعث من تلك القيمة العلمية التاريخية لموضوع البحث الذي يهدف إلى تسليط الضوء على حركة الزنج وما صاحبها من أحداث رهيبة ومريرة هدَّدت كيان الدولة العباسية، وساهمت فيما بعد في إضعاف قواها والتقليل من سطوتها نتيجة لطول عمر هذه الحركة .

كما تنبثق أهمية الموضوع من محاولة دراسة تلك الآثار العميقة التي خلَّفتها ثورة الزنج على الخلافة العباسية وانعكست نتائجها سلباً على الدولة بأسرها، وحتى ما قد ينظر إليه من أثار هذه الثورة بإيجابية، وربما بعين الرضا لم يكن ليحسب لها لأنَّه خارجٌ عن تخطيط أصحابها وثوارها، بل كان تحصيلَ حاصلٍ وبمحض الصدفة .

ومن تلك الآثار السلبية – وكلُّها في تقديري سلبية – ما هو سياسي، منه ما تمثَّل في ذلك العصيان الصارخ والتمرد العنيف عن سلطة الدولة وسلطان الخلافة، ومنها ما هو اجتماعي تجلَّى بعضه في تردي العلاقات الاجتماعية وفقدان إنسانية البشر في المجتمع مِمَّا ساعد على تفكك أواصر اللحمة بين الناس بسببٍ من القسوة والشدَّة التي يعانيها المجتمع جرَّاء هذه الثورة العنيفة والتي أخذته بعيداً عن الرحمة والمودَّة، ومنها ما هو اقتصادي تمثَّل على سبيل المثال لا الحصر في فقدان الدولة للكثير من الموارد الاقتصادية التي كانت تُجبى، منها خراج الأراضي الغنية في بطائح العراق، فضلاً عن صرف الأموال الطائلة على العمليات العسكرية الكثيرة ضد الزنج وما يكلفها ذلك من مبالغ طائلة تصرفها عن الجند وكتائب الجيوش الجرارة سعياً وراء القضاء على هذه الحركة الخطيرة؛ تلك الثورة الفتية الجريئة الفريدة من نوعها في ذلك العصر لكونها كانت خالصةً للسود والتي لم تنل – في تقديري – حظَّها الذي تستحق من الدراسة والبحث .

*****

منهج الدراسة:

إنَّ هذا البحث يحتِّم علينا إتِّباع المنهج الوصفي التحليلي في معظمه، ففي كلِّ ناحية من نواحيه يطالعنا إلحاحٌ كبيرٌ لحاجتنا الماسة لهذا المنهج الذي يُعدُّ أساساً لهذه الدراسة .

كما استفادت هذه الدراسة – بحول الله وقوته – من المنهج التقابلي الذي لا مناص لنا من إتباعه، ولاسيما فيما يخصُّ النقد والتمحيص لمختلف الروايات التي تؤثر عن الرواة والمؤرخين .

وواقع الأمر، فإنَّ في مقارنة هذه الروايات والمأثورات، ثمَّ عرض هذه على تلك تكمن النتائج الأكيدة التي تساعدنا في أنْ نسلكَ تلك الطريق الصواب السوي الذي يسدِّدُ خطانا في هذه الدراسة، مما يجعلنا ندرك الحقيقة التي تختفي بين ركام الاتهامات وتحت حاجز الجدالات التي أفرزها جميعاً وأشعل فتيلها ذلك الخلاف الفكري المتأجج بين المتصارعين، والذي يفضي بدوره إلى عداء سياسي رهيب وصراع طبقي اجتماعي مرير ...

وتمَّ أيضا – بعونه سبحانه وتعالى – اعتماد المنهج الاستقرائي، وذلك باستقراء جلِّ الروايات والأحداث في هذه الثورة العارمة الحافلة بكلِّ ما هو عجيب مثير .

كما لا يخفى على أحدٍ ينظر في هذه الدراسة إتباعها المنهج التاريخي والتزامها به، ذلك الذي كان مسيطراً في أنحاء من هذا العمل، بل جلِّه، حيث تعدَّدت مجالات المنهج التاريخي وعالجت مواطن كثيرة، منها تحديد فترة الدراسة ومراحلها، كما لجأنا إلى هذا المنهج في توزيع الأولويات داخل هذا البحث التي روعي فيها الجانب التاريخي بشكلٍ واضحٍ جليٍّ .

وهو أمرٌ يخدمنا كثيراً في ترتيب مراحل هذه الدراسة وتنسيقها على أساسٍ تاريخيٍّ بحت، فضلاً عن جوهرها الذي لا يفارق منهج التاريخ وروحه بحالٍ من الأحوال .

إذن اعتمدت الدراسة – بحول الله وقدرته – مناهج عديدة يفيدنا كثيراً تفاعلها مع بعضها بعضاً؛ فالمنهج الوصفي التحليلي والمنهج التقابلي المقارن والمنهج التاريخي، ويسبق هذه كلَّها المنهج الاستقرائي الذي عن طريقه تمكنت هذه الدراسة من وضع اليد على كلِّ الأحداث والمواقف المهمة في هذا الموضوع .

وهذه جميعاً كانت لنا عوناً وسنداً، بل هي الأصل والعماد لإعطاء فكرة كاملة وصورة شاملة على تلك الحركة، وزعميها وأتباعه، وتوجهاتهم الفكرية، وثقافتهم الدينية، كما تساعد هذه المناهج في التعرف على عوامل قيام هذه الثورة العارمة ودواعي اندلاعها، وعن الوقائع والحروب التي خاضها أصحابها ضد الدولة العباسية، وعوامل إخفاقها، وأسباب فشلها وعجز أصحابها عن تحقيق ما يصبون إليه بعدما كانوا قاب قوسين أو أدنى منه! وكذلك يساعد تفاعل هذه المناهج مع بعضها في الكشف عن تلك الآثار العميقة التي خلفتها على الخلافة والدولة العباسيتين، كما لا بدَّ من أنْ تُمكِّن هذه من إخراج هذا العمل على الوجه المطلوب أو القريب منه على أقل تقدير بعون الواحد الأحد .

*****

حدود الدراسة:

لقد أملت علينا هذه الدراسة حدوداً واضحة المعالم، يتحرك هذا البحث في إطارها ونواحيها، فكانت واضحة الزوايا جلية المقاصد، بحيث تمثلت هذه الحدود من الناحية الزمنية في فترة ضمن العصر العباسي الثاني امتدت من سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م منذ بداية التخطيط لهذه الثورة والدعوة لها في البحرين وحتى فشلها في المرحلة الأولى – إذا صحَّ التعبير – وتفرق العرب من حول صاحبها؛ ثُمَّ انتقاله إلى البصرة لغرض مواصلة العمل فيها لكونه يرى أنَّها البيئة الصالحة التي تساعده للوصول إلى مبتغاه، بحيث انطلقت المرحلة الثانية لهذه الثورة في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م؛ وحتى سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م وهو العام الذي تمَّ فيه القضاء عليه وتشريد أصحابه وتفرقهم من حوله، بعدما سقطت عاصمته المختارة وأُحتُزَّ رأسه وبُعث به إلى عاصمة الخلافة بغداد، وعلى هذا فإنَّ العمر الزمني لهذه الثورة كان طويلاً نسبياً إذ بلغ ما يربو على أربعة عشرة عاماً مليئة بالأحداث المثيرة والمواقف العجيبة جراء هذه الثورة التي كادت أن تعصف ببني العباس وسلطانهم .

أمَّا الحدود الجغرافية، فهي تلك التي كانت مسرحاً للزنج وصولاتهم وجولاتهم، تلك المناطق التي احتلوها، فسيطروا عليها، فعانت من سطوتهم وعنفهم ما عانت، وذاقت على أيديهم الأمرين، فهي إذن تلك المناطق الغنية التي تعدُّ من أغنى أراضي الخلافة العباسية، وهي المحصورة في جنوب العراق والأهواز وعبادان وواسط .

*****

أدوات الدراسة:

معلومٌ أنَّ موضوع هذه الدراسة هو ثورة الزنج، لذا لا بدَّ من أنْ تصير أيٌّ من المصادر والمراجع التي تحدَّثت عن هذه الثورة أداةً لهذه الدراسة .

ومن هنا نستطيع القول بأنَّ أدوات الدراسة هذه تتمثل في تلك المصادر والمراجع التي ألَّفها المؤرخون الذين كتبوا عن هذه الحركة ووثَّقوا أحداثها، بغض النظر عن مدى التصاقها بهذه الأحداث من عدمه .

وقد قُسِّمت هذه المصادر والمراجع على ثلاثة أقسام بحسب أهميتها، وما تفي به وتؤدِّيه من أغراض، وما تسديه إلى هذا البحث، وهي على النحو التالي:

أولاً: مراجع ومصادر رئيسة والتي تعدُّ من أمهات الكتب في التاريخ الإسلامي: ومنها تاريخ الأمم والملوك للطبري والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي والكامل في التاريخ لابن الأثير، وغيرها .

ثانياً: مراجع ومصادر مساعدة: منها تاريخ الدولة العباسية للشيخ محمد الخضري وتاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسن ودراسات في العصور العباسية المتأخرة للدكتور عبد العزيز الدوري، وغيرها .

ثالثاً: مراجع مكملة ومتممة: وتتمثل هذه في كتب التراجم وكتب الأمثال من مثل كتاب وفيات الأعيان لابن خِلِّكان ومجمع الأمثال للميداني، وغيرها .

يلاحظ هنا بأنَّه تمَّ الاكتفاء بعينة قليلة من المصادر والمراجع التي تعدَّ أدوات لهذه الدراسة، أما البقية فيمكن الرجوع إليها في موضعها بقائمة ثبت المصادر والمراجع .

*****

فروض الدراسة وأسئلة البحث:

تتمحور فروض الدراسة حول النقاط والمحاور التالية:

افتراض وجود ظلم اجتماعي اقتصادي وربما في كلِّ المجالات جاثم على صدور الزنج يقابله تجاهل السلطات الحاكمة في الدولة العباسية لمطالب الزنج وحقوقهم.

أمَّا أسئلة البحث فكثيرة منها: ما ماهية حركة الزنج، وما هي دوافعها، ومن هو صاحب الزنج زعيم حركة الزنوج هذه، وما اسمه، وما نسبه، وما انتماؤه العقائدي، ومن هم أتباعه، ولمَ انضمُّوا لهذه الثورة وانخرطوا تحت لوائها، وما هي دوافع هذه الثورة التي تسببت في إشعال فتيلها فكانت بمثابة المحرقة على بني العباس، وما هي مبادئها وأهدافها، ولماذا استمرت زهاء أربعة عشر عاماً، وما هي طبيعة تلك الحركة، ولماذا حقَّقت الحركة كل تلك النجاحات، وما عناصر الحركة وأركان قيادتها، ولماذا ساند بعض العرب من غير الزنوج تلك الحركة، في مرحلتها الأولى، قبل أن تكون خالصةً للزنج دون غيرهم، وما عقيدة زعيم الحركة وأنصارها؛ وما هي أثارها على الدولة العباسية، وما هي أسباب وعوامل إخفاقها بعد ما كانت تمتطي أسباب القوة والنصر والنجاح! وإلى أيِّ مدى هدَّدت أمن الدولة العباسية واستقرارها، ولماذا نفر منها الناس من غير الزنوج وصاروا ضدَّها، وهل سارت على ذات الخطى التي رسمها زعميها لها بادي الأمر، أم حادت عنها، ولماذا، وهل كانت هذه الثورة خلاَّقةً بنَّاءةً، أم كانت مجرد زوبعة وفوضة عارمة أقامت الدنيا فما أقعدتها، فسفكت الدماء، وجعلتها تجري أنهاراً، وانتهكت الحرمات، وهتكت الأعراض، وأحرقت الأخضر واليابس؟

وسوف تُجيب الدراسة – بعونه تعالى – على كلِّ هذه التساؤلات، وغيرها من تلك التي قد يفرزها البحث، وتعوزُ إجاباتُها جوهره .

*****

مشكلة الدراسة:

هي تتمحور حول تساؤل مركب مفاده: ما هي المشاكل والمظالم التي دفعت الزنج إلى الثورة؟ وما هي العوامل التي كانت وراء نجاح ثورتهم واستمرارها ردحاً من الزمن؟ وما هي انعكاسات هذا النجاح على الدولة العباسية؟

ولا ضير هنا أن نعرض للمشاكل التي واجهت الباحثة في بحثها المتواضع هذا؛ لأنَّ الحياة بأسرها تعجُّ بمشاكلَ جمَّة تعترض كلَّ من يخوض في أيٍّ من مناحيها ومجالاتها؛ هذه سنة الله سبحانه وتعالى في ملكه دأب عليها الكون وآلفها خلقه وتعودوا عليها .

ودراستنا هذه لا تخرج بحالٍ لأنْ تكون بمنأى عن نواميس الكون وقوانينه، بل هي تكابد لتلمس الحياة البشرية في جانب من جوانبها المهمة، ألا وهو ماضيها، بل تاريخها الذي يعدُّ إكسيرها وسرَّ استمرارها، كما يستند إليه ماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها، وتبنى هذه كلُّها عليه إذ لا حاضر لمن لا ماضيا له، ولا مستقبلَ لمن لا حاضر له .

وعودٌ على بدءٍ فإنَّ دراستنا هذه – كغيرها – تعترضها مشاكل وعقبات، جمة ترمي الدراسة إلى حلِّها ومعالجتِها، وهو أمرٌ يعدُّ جوهراً لها ومهمة دقيقة مناطة بها، نقتصر هنا على ذكر المهم منها .

وقد طالعتنا هنا مشكلتان اثنتان الأولى منهما مطبوعة بطابع العمومية نوعاً ما، حيث تمثلت في ذلك الشح الرهيب الذي نجده يكتنف المعلومات والأخبار عن هذه الحركة لدى المؤرخين والرواة والكتَّاب؛ إذ لم تنلْ هذه الحركة حظها من الدراسة والتوثيق كما ينبغي أسوة بغيرها من الحركات التي عاصرتها وتلك التي لم تعاصرها، على الرغم من أهمية ثورة الزنج وحجمها الكبير الذي كادت به أنْ تؤدي بخلافة بني العباس وتجهز على دولتهم .

كما نجد أنَّ المؤرخين الذين تحدَّثوا عنها محدودوا العدد، لذا يحسُّ المتتبع لما كتب عن هذه الحركة شيئاً ليس طبيعياً، يضعنا أمام تساؤل مفاده ما السر الذي جعل المؤرخين في ذلك الوقت ينظرون إلى هذه الثورة نظرة مخالفة لنظرتهم لباقي

الحركات شبيهاتها، وعندما يتحدثون عنها وعمَّا مرت به من مراحل وما جرى فيها من أحداث ومواقف نجد التحفظ يسيطر على كلامهم؟؟

أمَّا المشكلة الثانية وهي إذا صحَّ التعبير تنصبغ بصبغة الخصوصية وتُوقع الباحث أو الدراسة في صعوبة وتجعلهما يكابدان عنتاً منقطع النظير بسببٍ من إنفرادها بعوزها وافتقارها للمؤرخ المتجرد والكاتب المنصف المحايد، خلافاً لما لاقته غيرها من الحركات والثورات والتيارات الفكرية والسياسية على مرِّ تاريخ أمتنا العربية من النصير فضلاً عن المنصف المتجرد .

فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنَّ ثورات الشيعة وإنْ وُوجِهت بالعنف والشدة، وتجرعت غصغص الظلم والقهر على أيدي خصومها، إلاَّ أنَّها قد أُنصفت من قبل كتابها وانتصر لها مريدوها .

وقد كان هذا ديدن باقي الثورات من ثورات الخوارج إلى غيرها من ثورات المعتزلة وحركات الموالي ... إلخ .

فكلُّ هذه الثورات كان لها من ينصفها ويعطيها حقَّها غير منقوص، كما كان لها مَنْ يناصرها ويشد من أزر القائمين بها .

وهذا كله بطبيعة الحال جاء خلافاً لما كانت عليه حال ثورة الزنج التي لم تجد المنصف المحايد المتجرد فضلاً عن النصير .

وهو أمر يشكل مشكلة كبيرة تجعل طريق الباحث أو الدارس محفوفاً بالمتاعب، ودربه مليء بالمخاطر والأشواك! جرَّاء ذلك اللغط الذي دار حول هذه الثورة ذات الطابع الجديد الغريب في ذلك العصر الذي لم يتعود مثل هذه الحركات .

والواقع، فإنَّ السعي لإظهار الحقِّ والبحث عن الحقيقة وإعلاءَها لتعلو الباطل، لم تكن هذه كلُّها يوماً سهلةً هينةً ميسورةً بلا ثمن! ولكنَّ تحقيق الهدف والوصول إلى الحقيقة وإظهارها يطيِّب للدارس المتاعب ويخفِّف وطأة المشاق، ويشعره بلذة ما بعدها من لذة .

*****

أهداف الدراسة:

لابدَّ لكلِّ عملٍ طموحٍ مثمرٍ من أهداف يصبو إلى تحقيقها بصفة عامة، فيضعها صاحبه نصب عينيه، ولا يكلُّ ولا يملُّ حتى يحققها بعونٍ من الله العلي القدير .

وهذا العمل كغيره من الأعمال الهادفة له أهداف واضحة يسعى إلى تحقيقها، ولست أزعم الجزم بأنني قادرة على ذلك، بل هي محض محاولة، فإنْ وُفقتُ فما توفيقي إلاَّ بالله عليه اتِّكالي وإليه إنابتي، وإن كانت الأخرى فأجري عليه سبحانه وتعالى .

وبعد، فإنَّ لهذا العمل أهدافاً ساميةً يسعى لتحقيقها، وتضعها هذه الدراسة على عاتقها، فلا حدَّ ولا نهاية لها إلاَّ بعد الوصول إلى تلك الأهداف والغايات وتحقيقها بعون صاحب العون والطول سبحانه وتعالى؛ وقد قُسِّمت أهداف هذه الدراسة إلى قسمين على النحو التالي:

أولاً/ أهداف عامة: وقد تمثلت في تلك الغايات المرجوة من هذه الدراسة لتحققها وتقدمها للقاري العربي والمكتبة العربية، وتلك منها:

١) **المساهمة** في إثراء المكتبة العلمية العربية، ومحاولة تقديم سفرٍ جديدٍ عساه يُحسبُ لبنةً من لبناتها التي تُسهم في إظهار تاريخنا الإسلامي المشرق، والحفاظ على تراثنا العربي المجيد .

٢) **إتاحة** الفرصة للقاري العربي المعاصر للوقوف عن كثبٍ ورؤية نموذجٍ من نماذج الثورة في التاريخ والتراث العربيين .

وبذا يمكن له إدراك كيف كان أسلافه يتصارعون ويتطاحنون، وكيف كانت أساليبهم في التسلق للحصول على السلطة والسلطان، ولعلَّ في هذ ما فيه من العبر التي تدفعه إلى التحلِّي بالحِلم والتسامح والروية في كلِّ ما يعنُّ له من مشاكل وصِعاب ليصنع الحاضر المنشود والغد المشرق بالبعد عن البغض والحقد، وعليه لابدَّ لنا من أنْ ندرك أنْ العنف والشدة والبطش هذه جميعها عوامل هدَّامة شدَّت أمتنا إلى الوراء وبدَّدت آمالها سنين طِوال، وأخَّرتها عن اللحاق بركب الأمم بعد ما كانت خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس!!

لذا نأمل أنْ يكون في موضوع هذه الدراسة الدرس المستفاد، والعبرة المستخلصة التي تدفعنا إلى تجنب كلِّ عملٍ مقيت رهيب بغيض يدمي الأمة ويلغي مستقبلها، لذا لابدَّ أن تكون تلك العبرة ديدناً لنا لا نفارقها بحال من الأحوال .

٣) **ربط** الإنسان العربي المعاصر بتراث أمته وحضارتها، فعندما نحيي تراثنا وتسري فيه الحياة مرة أخرى بعدما صار غفلاً لا سائل عنه! فإنَّه تسري كذلك الحياة في جسد الأمة الذي كاد أنْ يكون مومياء، ويفيق ضميرها من سباته العميق الذي خيَّم عليه عبر العصور وعلى مرِّ القرون!!

٤) **من خلال** هذه الدراسة ومثيلاتها اللاتي على شاكلتها وما تعرضه من وقائع تاريخ الأمة نصبوا إلى دفع أجيال الأمَّة الحاضرة واللاحقة لأنْ تكون توَّاقة إلى مواصلة مسيرة الأسلاف العِظام ليكونوا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ .

ثانياً/ أهداف خاصة:

تتمثل الأهداف الخاصة التي ترمي إليها هذه الدراسة في الإجابة عن جميع التساؤلات التي تنشأ حول ثورة الزنج، وكلِّ ما يتعلق بها، ولذا يمكن حصر الأهداف الخاصة لهذه الدراسة المتواضعة في الأتي:

١) **إعطاء** فكرة واضحة قدر الاستطاعة وتكوين صورة جلية عن شخصية زعيم حركة الزنج (علي بن محمد)، وعن اسمه ونسبه وانتمائه الديني وأخلاقه وثقافته وميوله السياسية وقدراته الشخصية وإمكانياته القيادية .

٢) **التعريف** بأصحاب صاحب الزنج وأتباع هذه الثورة السوداء، من يكونون؟ وما مرتبتهم الاجتماعية؟ وما هي مكانتهم في المجتمع؟ وما عملهم؟ وما هي مشاكلهم، وما حاجتهم لما قاموا به من أمر هذه الثورة؟ وماذا جنوا جراء الثورة؟!

٣) **الكشف** عن الدواعي والأسباب التي أحوجت زعيم هذه الثورة، وأتباعه إلى إشعال فتيلها، ولعلَّ تلك الأسباب والدواعي تزداد وضوحاً وانجلاءً عند بسط الصورة التي تعبِّر عمَّا كانت تمرُّ به الخلافة العباسية من تردٍّ، وتلمس أحوال دولة بني العباس آنذاك المزرية على أيدي الأجانب من الأتراك!!

٤) **إظهار** المراحل التي مرَّت بها هذه الثورة منذ اندلاعها وإلى أنْ خفت ضوؤها وانطمس! وتسجيل الوقائع والأحداث من خلال الحروب التي خاضها الثوار ضد الدولة العباسية، وكذلك من جراء تلك الغارات المتواصلة التي شنُّوها على تلك المدن والقرى في نواحٍ من أملاك خلافة بني العباس، وفي الوقت ذاته لم تهمل هذه الدراسة أيًّا من الأحداث ولاسيما تلك الثورات والحركات التي ظهرت على سطح الأحداث، وقد اغتنم أصحابها فرصة انشغال الدولة العباسية وانهماكها بمحاربة الزنوج .

٥) **من ضمن** أهداف هذه الدراسة محاولة حصر العوامل التي ساعدت على فشل هذه الثورة وإخفاق أصحابها في تحقيق أهدافها بعدما كانوا قاب قوسين أو أدنى من زعزعة أركان دولة بني العباس .

٦) **تهدف** الدراسة كذلك إلى تلمس الآثار العميقة، وحصرها تلك التي تركتها ثورة الزنج وراءها، وخلفت من خلالها بصمات على جدار تاريخ دولة بني العباس، لا بل حتى على صفحات التاريخ سطَّرت هذه الثورة العارمة – بغض النظر عمَّا كُتب فيها – سطوراً حُفرت في ذاكرته لا تُنسى أبدا .

وبعد، فإنَّ تلك الأهداف التي رسمتها هذه الدراسة خطوطاً لها تلتزمها وتتمسك بتحقيقها عسى أنْ تكون مِمَّا يستخلص منه العبر؛ لأنَّها من وحي التاريخ، والتاريخ موطن العبر...

*****

الفصل الثاني:

(صاحب الزنج حياته وفكره)
(والدواعي)

المبحث الأول/ صاحب الزنج مولده ونشأته ونسبه .

المبحث الثاني/ أسباب الثورة ودواعي قيامها .

المبحث الأول:

أولاً: مولد صاحب الزنج ونشأته .

ثانياً: اسم صاحب الزنج ونسبه .

عند البحث في شخصية صاحب الزنج، ففي الحقيقة لا يجد الباحث في مصادر التاريخ ما يروي ظمأه ولا يشبع نهمه فيما يتعلق بشخص زعيم ثورة الزنج هذه، ولا عن حياته ومراحلها قبل أنْ يظهر على رأس تلك الثورة العارمة التي فجَّرها في وجه بني العباس والتي سرعان ما أصبحت فيما بعد خطراً يتهدد الدولة العباسية بأسرها؛ تلك الدولة التي تحمل في حقيقة أمرها دولة عسكرية تركية اتخذت من مدينة

سامراء مقراً لها، وحكمت من تحت عباءة الخلفاء العباسيين بدءًا من خلافة المعتصم ٢١٨هـ - ٢٢٧هـ/٨٣٣م - ٨٤٢م، الواثـق ٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ/٨٤٢م - ٨٤٧م فالمتوكـل ٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ/٨٤٧م- ٨٦١م، فالمنتصـر بـالله ٢٤٧هـ - ٢٤٨هـ/٨٦١م - ٨٦٢م، فالمسـتعين بـالله ٢٤٨هـ - ٢٥٢هـ/٨٦٢م - ٨٦٦م، فـالمعتز بـالله ٢٥٢هـ - ٢٥٥هـ/٨٦٦م - ٨٦٩م، فالمهتـدي بـالله ٢٥٥هـ - ٢٥٦ه/٨٦٩م - ٨٧٠م، تلك الحقبة التي شهدت اندلاع الانتفاضات وطُبعت بطابع التمرد والعصيان فتخللتها ثورات عديدة كانت في الغالب علوية المنشأ والتأسيس، ومن هنا جاءت ثورة الزنج في خضم هذا المدِّ الثوري بزعامة علي بن محمد .

فقبيل هذه الثورة، وقبل هذا الظهور له كان الرجل مغموراً لم ينتبه إليه أحدٌ، ولا عجبً في هذا فهو أمرُ كان ديدناً لكلِّ رجال الفكر والتراث والتاريخ العربي الإسلامي وأعلامه، وغيرهم أيضا، إذ تشحُّ المعلومات، بل تندر عن حياة أيٍّ منهم قبل ولوجه طريق الشهرة واعتلاء مدارجها .

إذن لم تكن سيرةُ مغمورٍ لتشغل أحداً وهو في غمرته إلاَّ أنَّ أُولى خطواته للشهرة كفيلة بأنْ تجعله أسيرَ أضواءٍ يسلطها عليه المؤرخون والمتابعون للتاريخ وأحداثه وأعلامه. وهذا تماماً ما لاقاه علي بن محمد، وليس هذا فحسب، بل أنَّ صاحب الزنج قد خلت مصادر التاريخ من ذكر سنة ميلاده التي لم تُعرف قط، بل أنَّه لم ينل حتَّى مجرد اتفاق حول اسمه الذي دار حوله لغط كثير واكتنفه غموضٌ كبير !!

وحتى تلك الأمور التي ذُكرت وسجلها له بعض المؤرخين حول حياته والتي تتعلق بشخصه نشأ حولها لغطٌ كبيرٌ بحيث تسرَّب الشكُّ إليها، ونشب خلافٌ ليس بالقليل حولها، لاسيما اسمه ونسبه وانتماؤه الاجتماعي واتجاهاته المذهبية وميوله الفكرية، ليس هذا فحسب، بل حتَّى ثورته تلك العارمة تجادل المتابعون فيما بينهم في تحديد مذهبها واتجاهاتها الفكرية .

مولده ونشأته:

وكما أسلفنا، فإنَّه لم تحدد جميع المصادر تاريخاً معيّناً لمولده، بل لم تتعرض هذه كلُّها لذكر التاريخ الذي وُلدَ فيه علي بن محمد، وهي متَّفقةٌ جميعها في خلوها من أيِّ إشارة إلى سنة مولده .

أمَّا مسقط رأسه فهو معروف لديهم وثابت في مؤلفات مَنْ خاضوا في سيرته من المؤرخين، حيث كان مولده في قرية كبيرة تسمَّى ورزنين تكاد أن تكون مدينة؛ وقرية ورزنين هذه لا تبعد عن طهران عاصمة إيران في هذا العصر كثيراً، وهي من أعمال الري التي تُعدُّ من أكبر المدن في بلاد فارس تقع في شمالي إيران إلى الجنوب الشرقي من طهران[1] .

وقد نشأ وترعرعفي قرية ورزنين التي كما أسلفنا أنَّها تعود إلى أعمال الري التي كان أهلها ذوي شهرة وباع طويلٍ في اعتناق المذاهب المتعددة التي عادة ما تكون في صراعٍ دائمٍ مع بعضها بعضاً، كما أنَّهم لا يترددون في الدفاع عن مذاهبها هذه المتضاربة المختلفة التي يعتنقون بالتقاتل والتناحر فيما بينهم[2] .

اسمه ونسبه:

أمَّا اسمه فالثابت فيه لدى جلِّ المؤرخين الذين تناولوا الحديث على حياته وأطوارها، وعن ثورته السوداء العارمة هو: علي بن محمد ، بحيث لا نجد اختلافاً لدى هؤلاء عن كون اسمه (علي) واسم والده (محمد)، بل نجد اختلافاً حول سلسلة اسمه التي تنحدر إلى جدِّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فنجد منهم مَنْ يروي أنَّ اسمه كاملاً هو: علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1] .

---

[1]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٩/٧ .

[2]– مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي (د/ط)(القاهرة/مصر) سنة ١٩٥٤م، ٦٥١/١ ومروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي ت(٣٤٦هـ/٩٥٦م) (د/ط) (القاهرة/مصر)سنة ١٣٤٦هـ، ٤٧٠/٢ وتاريخ الطبري ٤١٠/٩ .

[1]– النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٢٩/٣ ومروج الذهب للمسعودي ٤٣٩/٢ وتتمَّة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي أبي جعفر زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس بن علي المصري الحلبي ت (٧٤٩هـ) (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٢٨٥هـ، ٢٣٣/١ .

ومنهم من قال بأنَّ اسمه هو: علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن أبي طالب[٢] .

فعلى الرواية الأولى لسلسلة اسمه يكون جده الرابع هو: زيد بن علي الذي نُسبت إليه فرقة الزيدية، تلك التي كانت أكثر الفرق الشيعية إقداماً على الثورة وجرأة على السلطان، وقد سلكت طريق الكفاح والجهاد وصولاً إلى تحقيق أهدافها تلك التي اتفقت في أصولها مع فرقة المعتزلة، لا بل أنِّ زيد بن علي يُعدُّ معتزلياً، إذ أنَّه كان أول إمام من أئمة فرقة المعتزلة قاد أُولى انتفاضاتهم في وجه القائمين على الحكم في دولة بني أُمية في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م .

أمَّا على الرواية الثانية – كما هو واضح – فيُعدُّ زيد بن علي هو جدُّه الثالث خلافاً للرواية الأولى التي تعتبره جدَّه الرابع كما رأينا آنفاً. كما لا يفوتنا أنَّ هناك رواية ثالثة تخالف الروايتين السابقتين في اسم جدِّه الأول وهو: (أحمد) الذي اتفقت عليه الروايتان المذكورتان معاً، إلاَّ أنَّ هذه الرواية الثالثة تشير إلى أنَّ اسمه: علي بن محمد بن عبد الرحيم، فجاء بموجبها أنَّ جدَّه الأول كان اسمه (عبد الرحيم) وليس (أحمد)، وقد انفرد بهذه الرواية ابن أبي الحديد[٣]، وأحسب أنَّ هذا عارٍ من الصواب وخالٍ من الدقة لعدم تداولها بين المؤرخين وانفراد أحدهم بها الأمر الذي يجعلنا لا نعوِّل عليها كثيراً؛ واستناداً لروايات أُولئك المؤرخين الذين يكادون يجمعون على أنَّ جدَّه الأول هو (أحمد) إنْ لم نقلْ أنهم قد أجمعوا على ذلك وحسموا أمرهم فيه .

وليس هذا فحسب، بل هناك رواية رابعة يقول بها أصحابها جاء فيها أنَّ اسمه هو: علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي

---

[٢]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم واللوك)، ٤١٠/٩ والعبر لابن خلدون (طبعة بولاق) (مطبعة بولاق) (القاهرة/مصر) سنة ١٢٤٨هـ، ١٨/٤ وشرح نهج البلاغة للعلامة ابن أبي الحديد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد عز الدين المدائني ت(٦٥٥هـ) (د/ط) (دار الأندلس للطباعة والنشر/بيروت– لبنان) (د/ت)، ١٢٧/٨ .

[٣]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١١/٨ .

طالب[١]، وعلى هذا لا يكون جدُّه زيد بن علي البتَّة مِمَّا يدلك على تخبط واضح وبلبلة كبيرة حول اسم هذا الرجل تدفع تجاه الشكِّ والريبة دفعاً، وعليه، فإننا نلحظ تبدلاً وتلوناً كبيرين يبدوان غريبين لا نجد لهما تفسيراً، ولعلَّهما بسببٍ من تكتيك تتطلبه ظروف المرحلة التي تفرضها الأحداث آن ذاك على الساحة؛ وإلاَّ فكيف لا يستطيع المؤرخون الحسم والجزم في نسبه ويبقون عليه هكذا مهلهلاً على نحو ما رأينا هنا، مع أنَّ بعضهم قد عاصره من أمثال الطبري؟

أمَّا أمَّه فهي: قرَّة ابنة علي بن رجيب بن محمد بن حكيم، وهي من بني أسد، وعليه تكون أسدية الأصل، وتحديداً من أسد بن خزيمة[٢]، فجدُّها الثاني إذن هو: محمد بن حكيم الأسدي وهو من أهل الكوفة ومن أبرز المناصرين لزيد بن علي في ثورته ضد بني أُميَّة ودولتهم[٣] .

ومن هنا كان علي بن محمد – فيما يروى عليه – أنَّه يقول:- " جدِّي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين، فلمَّا قُتل زيدٌ هرب، فلحق بالري فلجأ إلى ورزنين فأقام بها؛ وأنَّ أبا أبيه عبد الرحيم رجلٌ من عبد القيس كان مولده بالطالقان، وأنَّه قدم العراق فأقام بها واشترى جارية سندية فأولدها محمداً أباه "[٤] .

ولعلَّ في هذا النصِّ ما يجعلنا نميل إلى أنَّ أولئك المؤرخين الذين عزوا نسب علي بن محمد إلى بلاد فارس، وقالوا بأنَّه فارسي قد وقعوا في لبسٍ سببه فرار جدِّه لأمِّه إلى الري وهي من المدن الكبيرة في إيران بعد طهران وبالقرب منها، أو لنقلْ أنَّ هذا له علاقة من قريب أو من بعيد بهذا الادِّعاء الذي قد أوقعهم في الخلط بين أنْ يكون أهله مقيمين ببلاد فارس فحسب أو منها أصلاً، والبون بين هذه وتلك شاسعٌ كبير .

---

[١]– تاريخ الطبري ٥٤٣/٧ والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي الشافعي ت(٧٧٤هـ) تحق علي شيري (ط/١) (دار إحياء التراث العربي/بيروت – لبنان) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ١٩/١١ .

[٢]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١١/٨ .

[٣]– المصدر نفسه ١٢٧/٨ .

[٤]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٥٤٣/٧ .

أمَّا بالنسبة لنسبه، ففي الواقع أنَّ الباحث في نسب صاحب الزنج وانتمائه يجد عنتاً وصعوبات جمة في الوصول إلى حقيقة أمر نسب هذا الرجل الذي حيَّر الدولة العباسية والقائمين على خلافتها ردحاً من الزمن .

وعليه، فإنَّ الباحث أمامه أكثر من مسألة وأكبر مهمة، أُولاها أنْ يثبتَ أنَّ الرجل عربي الأصل؛ لأنَّ بعضهم شكك في عروبيته، فكثر الأخذ والردُّ في نسبته إلى الأصل العربي أو انتسابه إلى أيٍّ من القبائل العربية .

لذا نحاول بادئ ذي بدء الخوض في أمر عروبيته، وننظر استناداً إلى الحقائق والوقائع ماإذا كان الرجلُ عربياً أم لا ؟

وعلى أساس ما نستأنس إليه ويثبت لنا أنَّه الحق والصواب نمضي إلى ما بعدها من خطوات حثيثة تالية تساعد في إظهار نسب صاحب الزنج .

واللافت للنظر أنَّ بعض المؤرخين قال بأنَّ أصل صاحب الزنج فارسي وأنَّ اسمه الحقيقي هو بهبوذ[1]، وقيل نهبوذ[2]، فتحوَّلَ ليصيرَ (عليّاً) .

والواقع، فإنَّ هذه الرواية يبدو أنَّها ضعيفة ومجانبة للصواب، وليست واقعية؛ لأمورٍ منها أنَّ أكثر المؤرخين الذين أرَّخوا لثورة الزنج وتحدَّثوا عن صاحب الزنج واسمه ونسبه قالوا بأنَّه (علي بن محمد) وإنْ اختلفوا في باقي سلسلة اسمه، هذا من جانب ومن جانب أخر، فإنَّ سلسلة اسمه ونسبه خالية تماماً من أيٍّ من الأسماء الغير عربية فهي كلُّها عربية ومشهورة عند العرب، أضف إلى ذلك أنَّ اسم أمِّه عربي خالص في عروبيته ثابتة النسب إلى قبيلة عربية على نحو ما
مرَّ بنا آنفاً، وقبل ذلك، فإنَّ اسم أبيه عربي وهو عربي حقيقةً لا مراء فيها .

وعليه نستطيع القول، ونحن مطمئنين بأنَّ الرجل عربي الأصل ولم يكن بحالٍ فارسي الأصل وإنْ كانت بلاد فارس هي مسقط رأسه، ولعلَّ مسقط رأسه هذا الذي كان في ورزنين وهي قرية كبيرة من أعمال الري من أكبر المدن الفارسية بعد طهران، هو

---

[1]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ت(٥٩٧هـ) دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا وراجعه وصححه نعيم زرزور (د/ط) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) (د/ت)، ٦٩/٥ وتاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين بأمر الأمة لعبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي ت(٩١١هـ/١٦٠٥م) (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٢٣هـ، ص٢٢٤ .

[2]– النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٤٨/٣ والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير ٤٣/١١ – ٤٥ .

الذي أوقع أصحاب القول بأنَّه فارسي فيما وقعوا فيه من أمر نسبة هذا الرجل إلى بلاد فارس، وهذا غير صحيح .

كما أنَّ اسم بهبوذ أو نهيوذ هذا ليس له، وإنَّما هو لأحد شخصيات هذه الثورة المذكورة في طياتها، كما هو موثَّق لاحقاً .

وهنا نقول مرَّةً أخرى أنَّ الوهم قد خالط مَنْ قال بأنَّ اسمه – بحسب الروايتين – بهبوذ أو نهيوذ[1]، وأنَّه قد وقع في خلطٍ بينه وبين ذاك الرجل الذي يُدعى بهبوذ أو نهيوذ!!

أما وقد وجدنا في قول المؤرخين والرواة ما يمكن الاستئناس إليه والاعتماد عليه في قولنا بعروبية صاحب الزنج صار لِزاماً علينا – سعياً وراء الحقيقة – المضي قُدماً إلى الخطوة التالية، وهي تحديد نسبه العربي هذا ولمن يؤول انتماؤه .

والواقع، فإنَّ الحَيرة لا تفارقنا ولا تغادرنا بحال في أمر هذا الرجل حتى بعد تحديد نسبه العربي، إذ يجد المتتبع تغيراً وتلوناً كبيرين في الكلام على نسب علي بن محمد، ولعلنا نلمس ذلك بمجرد النظر في هذه المسألة ومحاولة التعرف إلى اسمه وسلسلة أجداده التي تبدلت صيغتُها، وتعدَّدت أشكالها على نحو ما رأينا آنفاً عند الحديث عن اسمه ونشأته .

فنجده تارة وقد نُسب إلى أحمد بن عيسى وأخرى إلى يحي بن يزيد بن علي[2] ، وثالثة إلى الفضل بن حسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن طالب[3] إلى غير ذلك، إذ يشير بعض المؤرخين إلى أنَّه ادَّعى هذا النسب عند رحيله إلى البحرين سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م .

وقد أشار بعضهم[1] إلى أنَّ صاحب الزنج علي بن محمد عمد إلى ادِّعاء هذه الأنساب كلها الواحد بعد الأخر لحاجة في نفسه أملتها عليه الظروف المحيطة به،

---

[1]– تاريخ عصر الخلافة العباسية للدكتور يوسف العش، راجعه ونقَّحه الدكتور محمد أبو الفرج العش (ط/٧) (دار الفكر المعاصر/بيروت – لبنان) (دار الفكر/دمشق – سورية) سنة١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١٢٢ .

[2]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٦٠٧/٢ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٩٧/٧ .

[3]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٥٤٣/٧ .

[1]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٩٨/٨ .

وفرضتها عليه معادلات الساحة السياسية والاجتماعية آن ذاك، ليمضي قدماً في تحقيق أهدافه والدعاية لثورته، وضمان اعتناق الناس لها والإيمان بمبادئها، كما احتمائه بقوة أصحاب هذه الأنساب .

ومن هنا بات جلياً أنَّ صاحبنا قد انتسب إلى العلويين، فهل النسب العلوي بالنسبة له واقعي وحقيقة لا مراء فيها؟ أم هو محض ادِّعاء؟!

ولكي نقفَ على حقيقة هذا الأمر لا بدَّ من العودة إلى ما قاله المؤرخون آنذاك عنه في هذه المسألة لتلمس أطراف خيوط هذه القضية ومحاولة الإمساك بها متى ما أحسسنا بها .

فبالرجوع إلى هؤلاء نجد عندهم جملةً من الأقوال والنصوص التي تتكلم بكلِّ صراحة ووضوح على مسألة عود نسب صاحب الزنج إلى العلويين؛ فنعته أحدهم ناقداً له في هذا الصدد عندما قال:- " وهو في ذلك كاذباً؛ لأنَّ الإجماع في يحي أنَّه لم يُعقِّبْ إلاَّ بنتاً ماتت وهي تَرضع "[٢]؛ ويقول أخر عن نسب صاحب الزنج علي بن محمد إلى العلويين:- " أمَّا نسبه، فليس عند النَّسَّابين بصحيح، وهم يعدونه من الأدعياء "[٣] ، بمعنى أنَّ قصة انتسابه إلى العلويين – على هذا الرد – هي محض ادَّعاء ليس إلاَّ، كما قيل في حقِّه بهذا الخصوص:- " وأكثر الناس يقدحون في نسبه وجمهور النَّسَّابين اتفقوا على أنَّه من عبد قيس "[٤] ؛ فهذا النصِّ بالذات لا ينفي عنه نسب العلويين فحسب، بل أنَّه يقرُّ بوجود ما يشبه الإجماع على القدح والطعن في انتسابه للعلويين، ويؤكد في ذات الوقت أصله العربي دحضاً للرأي القائل بفارسيته، فهو إذن يدفع إلى ثبوت كونه ليس علوياً، وإنَّما نسبه إلى العلويين لا يعدو أن يكون

---

[٢]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٢٩/١١ .

[٣]– النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٢٢/٣ والفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي ت(٧٠٩هـ) (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٢٣م، ص١٨٣ .

[٤]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١١/٨ .

مجرد ادِّعاء لحاجة في نفس يعقوب، كما يقولون[١]؛ وقيل فيه أيضا في هذا الشأن أنَّه:- " أكثر الناس يقول أنَّه دَعِيٌّ آل أبي طالب "[٢]، إي مدعٍ لهذا النسب .

والواقع، أنَّ هذه النصوص تُعدُّ ذات قيمة تاريخية لكونها جاءت من عند مؤرخين كبار قدامى منهم مَنْ عاصره وعاصر ثورته ووقائعها، وعليه فلا بدَّ من الاعتداد برواياتهم والامتثال لأقوالهم، وهم كما رأينا يدفعون إلى تجريده من النسب العلوي بالقدر الذي قد يدفعنا إلى التردد في نسبته للعلويين إنْ لم يقنعنا فعلاً بالعدول عن القول بأنَّه علوي النسب، خصوصاً عندما ندرك بأنَّ هناك أسباباً وعوامل تجعله وتجعل غيره من أصحاب كلِّ تلك الحركات والثورات يلجأون إلى مثل هذا النسب ليجدوا فيه ضالتهم المنشودة .

وفي الحقيقة، فإنَّ أمر ادِّعاء صاحب الزنج لنسب العلويين أمرٌ واردٌ بسبب أنَّ الناس كانت تسيطر عليهم آن ذاك فكرة كون العلويين لديهم القدرة على الثورة وتغيير الأوضاع السياسية متى شاءوا، فهم يعتقدون بأنَّ التغيير سوف لن يأتي إلاَّ على يدٍ علوية تنتسب إلى آل البيت[٣] ؛ ولعلَّ صاحب الزنج كان مستنداً إلى هذه حتَّى يستميل القلوب ويجمع الناس من حوله لمناصرته .

فانتسابه إلى هذا النسب لابدَّ من أنْ يضفي على ثورته قيمة عالية، ويلقي عليه وعلى حركته اهتماماً كبيراً، وصدى عظيماً ومكانةً رفيعةً سامقةً لدى العامة، فيستقي ذلك كلَّه من ذلك الطابع الديني الذي تُطبع به ثورته عندما ينتسب إلى العلويين، خصوصاً وأنَّ العلويين عُرفوا بسيرة حسنة توجتهم سمعة طيبة، أضف على ذلك ما عُرف عنهم من رفضهم للظلم وضيم الحكومات والسلطان الجائر، ذلك ما يفسر انتفاضاتهم الكثيرة وثوراتهم العارمة ضد السلطان عبر العصور الإسلامية .

---

[١]- هذه العبارة مجتزاة - مع تغيير طفيف - من الآية الكريمة من سورة يوسف ٦٨/١٢ كثر استعمالها في كلام العرب وجرت عندهم مجرى المثل، فهي من بين تلك الآيات القرآنية الكريمة التي صار لفظها مقتبساً لدى العرب واستعملوه مثلاً يُتمثَّل به .

[٢]- مروج الذهب للمسعودي ١٣٥/٤ .

[٣]- السيادة العربية والشيعية والاسرائليات في عهد بني أمية لفان فولتن ترجمة وتعليق الدكتور حسن إبراهيم حسن بالاشتراك مع الشيخ محمد زكي إبراهيم (د/ط) (د/ن) (مصر/القاهرة) سنة ١٩٣٣م، ص٧٨ .

ويزيد من الميل إلى أنَّه لم يكن علوياً وإنَّما ادَّعى ذلك ادَّعاءًا – إضافةً إلى ما مضى – كثرة المدعين انساباً ليست لهم في ذلك العصر وربما غيره، فقد توكأ كثيرون على انساب ليست لهم خصوصاً تلك التي طبعت بطابعٍ ديني واشتهر أهلُها بالتقوى والورع .

ولعلَّ فيما روي[١] من أنَّ الزنج هم مَنْ قتلوا علي بن زيد العلوي صاحب الكوفة، كما رُوي أنَّ صاحب الزنج نفسه هو مَنْ قتله، ولا فرق فقتله محسوب عليه وعلى أتباعه فالأمر سيَّان، وعلى كلٍّ فقتله يُعدُّ قاصمة الظهر؛ لأنَّه إنْ دلَّ هذا عن شيء، فإنَّما يدلُّ على عدم وجود إيِّ علاقة بين هؤلاء وبين العلويين، بل إن وجد شيءٌ بين العلويين وبين هذا الرجل فهو العداء والمقت والقطيعة؛ فكيف يُقدِمُ الزنج على ما أقدموا عليه من أمر قتل علي بن يزيد صاحب الكوفة وزعيمهم علوي النسب والانتساب؟ وكيف يعتدي الزنج على الحرائر من العلويات – وهو أمر ثابت قال به المؤرخون – وزعيمهم يعتزُّ بنسبه إلى العلويين من آل البيت؟

وأخيراً فهناك ما يجرِّدُ صاحب الزنج من هذا النسب، بل ويقطعه عنه قطعاً، فعندما ننظر إلى العلويين أنفسهم، وكذلك كتابهم ومؤرخيهم الذين يناصرون العلويين على وجه الخصوص والشيعة بوجه عام، فنجدهم جميعاً لا يلتفتون إلى صاحب الزنج وثورته عندما يكتبون ويؤرخون لثوراتهم، بل يتنكَّرون له ولها، فلم يعيروها بالاً ولم يعدُّوها من ثوراتهم التي كتب أنصارهم عنها الشيء الكثير .

أليس هذا بدليلٍ كافٍ على أنَّ العلويين وثوراتهم براء من صاحب الزنج وثورة الزنج، فلا علاقة له ولهم بهم وبه لا من بعيد ولا من قريب، خصوصاً بعد ما عُرف عن العلويين من اعتزازٍ بأنفسهم وثوراتهم وبطولاتهم، فلا يُعقل أنْ يغفلوا شيئاً منها لا يذكرونه، فهم نزَّاعون إلى ذكر الصغير منها قبل الكبير؛ خصوصاً وثورة صاحب الزنج بهذا الحجم الرهيب الذي يعرفه التاريخ وأهله، فكيف يغضون عنها الطرف إذا كان زعيمها منهم وقد أقضَّت مضجع بني العباس وكادت تعصف بأركانها وتطوِّح بدولتهم المهيبة، لولا مثابرة أولئك الغيارى على
الدولة العباسية وتضحياتهم لرد اعتبار الخلافة العباسية؟!

---

[١]– النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٣١/٣ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٣٨/٦ .

ومن هنا يمكن لنا أنْ نقولَ – وقد بان لنا الأمر جلياً – بأنَّ صاحب الزنج لم يكن يوماً علوياً وأنَّ أمر علويته هذه ما هو إلاَّ محض ادِّعاء جاء به ولفَّقه ليتحصَّل به على ما لا يتحصَّل عليه بدون النسب العلوي .

تماماً مثلما أنَّه لم يكن زنجياً، وليس عبداً أسودَ، بل كان أبيض اللون ذا بَشْرةٍ صافية البياض[1]، قاد الزنج وناصرهم، وبذلك صار صاحباً وفياً لهم لم يخذلهم رغم الإغراءات التي عُرضت عليه، ولعلَّ في هذا ما يفسِّر تلقيبه بصاحب الزنج .

أخلاقه وشخصيته وثقافتها:

من خلال ما رواه عنه المؤرخون وما أنبأنا به سلوكه طيلة صراعه مع الدولة العباسية وكفاحه المرير ضدَّها لتحقيق أهدافه ومآربه؛ ندرك أنَّه كان ذا شخصية جريئة شجاعة ذات إرادة قوية وعزيمة شديدة صلبة، أضف إلى ذلك أنَّه كان صبوراً متئداً هادئاً، ولا يتصرف بعشوائية وإنَّما كان يحسب ألفَ حسابٍ لكلِّ خطوة يخطوها ويدرس عواقب كلِّ عملٍ يُقدم عليه؛ الأمر الذي يفسِّر شدَّة وطأته علي الدولة العباسية وخلافتها ، وطول عمر ثورته التي صارعت جحافل جيوش الدولة العباسية أكثر من أربع عشرة سنة، تلك الانتفاضة التي كادت تعصف بالدولة العباسية وملأت أرجائها خوفاً ورعباً .

وفي الحقيقة، فإنَّ صاحبنا هذا غاية في الذكاء وذو عقلٍ راجحٍ شديد الطموح، وذو مزاج ثابت حاد، وعلى درجة عالية من الدهاء؛ فهو ذو شخصية فذَّة ولا نتردد كثيراً عندما نصفه بالعبقرية والذكاء، ودليلنا على ذلك فطنته تلك المنقطعة النظير لما في العبيد السود من قوة جبارة كامنة، وإدراكه الدقيق لاستعدادهم للمغامرة والثورة جراء ما يلاقونه بفعل أسيادهم من جورٍ وظلم، وحرمان وعذابات يقاسونها على مرِّ الزمان؛ وليس هذا فحسب، بل أنَّه استطاع استغلال هذه القوى والظروف المحاطة بها وتوظيفها لخدمة أهدافه وطموحاته الثورية .

[1]– الخلافة العباسية السقوط والانهيار للدكتور فاروق عمر فوزي (ط/١) (دار الشروق للنشر والتوزيع/عمان – الأردن) سنة ١٩٩٨م، ٣٩ .

ويمكننا هنا الولوج في شخصية هذا الرجل بعمق أكثر عندما نتلمسها في شعره[١] الذي يكشف جوانب كثيرة من شخصيته منها تلك الهمَّة العالية والنفس العزيزة الطموحة على أعلى ما يكون الطموح، فهو لا يرضى بالاستسلام والخنوع، وحياة الكفاف، بل أنَّه يرى أنَّ الجدَّ والاجتهاد هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الأهداف، ونيل الحياة العزيزة الكريمة .

فهو إذن ينظر إلى الحياة على أساس كونها تفانٍ محموماً لا هوادةَ فيه، ولا مجال فيها للاكتفاء والرضا بالقليل؛ كما كان ملتزماً عازفاً عن اللهو والمجون بعيداً عن الدنيا ولذاتها؛ فلا يترك له جدُّه وطموحه وأهدافه الكبيرة الكثيرة مجالاً لذلك، أضف على ذلك أنَّه كان مزهوّاً بنفسه مغروراً، حتَّى أنَّه توهم وصوله درجة الكمال[٢]، والكمال لصاحب الكمال وحده!

كما عُرف عليه أنَّه يتمتَّع بروح المغامرة ولا يعرفُ في ذلك حدوداً، فهو مغامرٌ لا يهاب المخاطر، وقد شهدت له بذلك ساحات القتال والوغى .

وفي الواقع، فإنَّ مثل هذه الشخصية الجريئة كان لابدَّ لها من أنْ ترفض الضيم والظلم، وأنْ تتنكَّر لكلِّ ما يجري حولها جراء سلوك الأعاجم الأتراك الأغراب وتصرفاتهم في الدولة وممتلكاتها! خصوصاً وأنَّه يدرك تماماً الأسلوب الذي تجري به الأمور فيشعره هذا بحسرة كبيرة تؤرقه، وألم لا يفارقه، وشعورٍ بالأسى والحزن حتى تمتلئ نفسه بالغضب والحقد على أُولئك الذين فرَّطوا في أمر دولتهم واستسلموا لهيمنة الأتراك الذين عاثوا فيها فساداً .

تلك الأحاسيس والمشاعر الجياشة أخذت تنمو وتكبر حتى ألهبت مشاعره وأخذت تدفعه للانتفاضة والثورة دفعاً للأخذ بالثأر لبغداد عاصمة السلام .

فنجد تطلع محمد بن علي للثورة واضحاً جلياً في شخصه إذْ بدأ منذ زمن مبكرٍ عن ثورته هذه بالتقرُّب إلى أصحاب الجاه والسلطان، فبدأ بالسعي للوصول إلى الخليفة المنتصر بالله ٢٤٧هـ – ٢٤٨هـ/٨٦١م – ٨٦٢م ذلك الرجل الذي حاول نشر العدل والأمن بين الرعية وكان معادياً للقادة العسكريين من الأتراك، وبالفعل تمكن صاحب

---

[١]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١١/٨ وذيل زهر الآداب للقيرواني ص١٥٤ .

[٢] – ذيل زهر الآداب للقيرواني ص١٥٤ .

الزنج من أنْ يكون ذا علاقات وطيدة ببعض أنصار المنتصر بالله وحاشيته من مثل: غانم الشطرنجي وسعيد الصغير، وغيرهم من رجال الخليفة وكتاب الدولة[١] الذين كان يرتزق على أيديهم بقوله للشعر في الخليفة، وبعضٍ من رجال الدولة[٢]. فكان هؤلاء يمنحونه ما يتعيَّش به من المال مقابل ذلك .

وهذا مِمَّا يشعرنا بأنَّه كان متردِّي الحال معدم إذ لم يكن ميسوره، بل ضعيفه فلا مال لديه ولا جاه، فهو معوز مقترٌّ يعيش على الفتات الذي يُلقى إليه من هنا وهناك؛ وكان هذا قد ملأ نفسه ألماً وأملاً ومرارةً وطموحاً .

فإذن استطاع علي بن محمد أن يتقرب من حاشية الخليفة لما يمليه عليه طموحه الكبير في تحقيق مكاسب سياسية والذي وضعه نصب عينيه يتكشَّف فيما يأتي من الأيام؛ وليس هذا فحسب، بل أنَّه كاد أنْ يكون من رجال الخليفة وخاصته إنْ لم نقل أنَّه أصبح منهم، إذ أنَّه عندما تمكَّن القادة الأتراك من الخليفة المنتصر بالله وحاشيته وأنصاره وأعملوا فيهم القتل والنفي والسجن كان علي بن محمد من بين الذين سجنوا ببغداد[٣]؛ فإنْ دلَّ ذلك على شيء فإنَّما يدلُّ على وطيد العلاقة بين محمد بن علي وهؤلاء الناس من خاصة الخليفة حتَّى يتمُّ اعتقاله معهم .

إلاَّ أنَّ هذا السجن لم يدم طويلاً بحيث لم يتجاوز سنة واحدة حيث خرج المسجونون من سجنهم بسبب انتفاضة أهل بغداد بمعاونة فرقة من العسكر يدعون الجند " الشاكرية " في تمردٍ وشغبٍ ضد الأتراك الذين استبدوا بمقدرات الخليفة والخلافة؛ ثمَّ اقتحم الجمهور سجون العاصمة وأطلقوا سراح المسجونين فيها "[٤]، وكان علي بن محمد من بينهم إذ تخلَّص من السجن ليظهر في مدينة هجر بالبحرين[٥] ٢٤٩هـ/٨٦٣م على نحو ما سنرى بحوله تعالى فيما يأتي من حديث عن اندلاع هذه

---

[١]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٥٤٣/٧ وتتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ٢٣٣/١.

[٢]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٥٤٣/٧ وتتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ٢٣٣/١.

[٣]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٤١٠/٩ والعبر لابن خلدون ١٩/٤ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٧/٨ .

[٤]– التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا المصري (د/ط) (طبعة بولاق/القاهرة – مصر) سنة ١٣١٠هـ، ص١٢٥ .

[٥]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٤١٠/٩ والعبر لابن خلدون ١٩/٤ .

الثورة وبداية تأسيسها وهو يدعو إلى المبادئ التي جاء بها، وأهدافه من خلال الإعداد لثورة فعلت ما فعلته بعد ذلك بالخلافة العباسية، بل بدولة بني العباس قاطبةً .

وبناء عليه، فإنَّ هذا الرجل قادرٌ على أنْ يكون شخصيةً قياديةً مؤهلة لخوض غِمار مثل هذه الثورة العارمة رغم سطوة الدولة العباسية وشدَّة تعاملها معه ومع أتباعه فيما بعد، وإنَّه أهلٌ وبجدارة لأنْ يقضَّ مضاجع القائمين على الخلافة العباسية ردحاً من الزمن، لا بل كاد أنْ يُجهز عليهم وعلى سلطانهم .

ثقافته:

من خلال التتبع لشخصية علي بن محمد نجده رجلاً واعياً مثقفاً، فقد كان شاعراً وخطيباً ومعلماً، فقد ثبت أنَّه شاعرٌ إذ يشهد على ذلك ما سُجل له من شعرٍ مبثوثٍ في حنايا كتب التاريخ[١]ومصادر التراث هنا وهناك، فكان يبدو من خلاله شاعراً ذا لهجة سليمة فصيحة صافية جادت بشعرٍ حسنٍ طُبع[٢] صاحبه على نظم القريض وصناعته، وقد تعدَّدت ميادين ما قاله من الشعر واختلفت اتجاهاته وأغراضه، فمنه ما تعلَّق بالثورة والثوَّار وشحذ عزائمهم وشدِّ أزرهم وحفزهم على الصمود والتصدِّي، كما أنَّه في بعض الأحايين يلجأ إلى التحدث عن المقاتلين ووصف تفانيهم من أجل إحراز النصر على جيش الدولة وقهر جحافله، فضلاً عن ذلك الغرض الخاص الذي يقرض من أجله الشعر عندما كان يتَّخذ منه مصدراً للارتزاق بمدحه لأصحاب السلطان، كما أنَّه كان يرمي من خلال مدحه لهم بشعره إلى استمالة هؤلاء والتقرب منهم[٣]، ومنه ما يتحدَّث فيها عن المبادئ والغاية من الحياة تتجلَّى لنا فيها أخلاق صاحبنا علي بن محمد وقناعاته في الحياة على نحو يمكننا من خلاله من تلمّس ملامح شخصيته التي أفدنا كثيراً منها في التعرف إليه

---

[١]- ينظر على سبيل المثال لا الحصر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١١/٨، وذيل زهر الآداب للقيرواني، ص١٥٤، وغيرهما .

[٢]- ذيل زهر الآداب للقيرواني ص١٥٤ .

[٣]- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٥٤٣/٧ وتتمَّة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي ٢٣٣/١ .

عن قرب إذا صحَّ التعبير كما مرَّ بنا آنفاً عند الكلام عن أخلاقه وميوله النفسية وسجاياه .

كما أنَّ بعض أبيات شعره قد مُلأت لهفةً وحسرة على ما يحدث لبغداد مدينة السلام، ولم ينسَ أنْ يعرِّج بشعره متغزِّلاً[1] يحبُّ ويهوى، وبذا يمكن لنا أنْ نتأكَّد ونحن مطمئنِّين من أنَّ علياً بن محمد كان يقرض الشعر وقد صال وجال به لسانه ليحوط أغراضاً عدَّة ذكرنا منها ما ذكرنا لتحصل الفائدة وتصل الفكرة، وتركنا منها ما تركنا؛ لأنَّنا لسنا بصدد دراسة شعره في هذا المقام الذي لا يتَّسع لها .

أمَّا كونه خطيباً، فهذا واضحٌ جليٌ حيث كان يخطب في أصحابه ويتواصل معهم عن طريق الخطب كلَّما سنحت الفرصة وجاءت المناسبة، ودعت الظروف إلى مخاطبتهم، وكثيراً ما نعرِّج على ذلك عند الحديث عن صراعه المرير مع الدولة العباسية، وبداية اندلاع ثورته على نحو ما سنرى بعونه تعالى .

أمَّا علي بن محمد معلماً، فلقد ثبت أنَّ صاحب الزنج قد اشتغل فترة من حياته قبل زعامته لهذه الثورة معلماً للأطفال يعلمهم الخطَّ والنحوَ وعلمَ النجوم والسحرَ والاصطرلاب[2]، وغيرها[3] .

والواقع، فإنَّ علي بن محمد كان ضليعاً في بعض العلوم مِمَّا يؤهله إلى أنْ يكون معلماً، إذ يُروى عنه أنَّه كان خلال قتاله مع جيش الدولة العباسية وفي أحد تحركاته وهو يعبر نهر برد الخيار لجأ إلى استعمال اصطرلاب وقاس به الشمس وحدَّد الوقت حيث ساعده ذلك على التنبؤ باتِّجاه الريح فيما سيأتي من الوقت، وعلى هذا الأساس وضع خطته الحربية لتلك المعركة وعليها وضع خطة انتشار مقاتليه وبالفعل بمجرد نشوب القتال هبت الريح تجاه ما عرفه من قياساته بحيث هبَّت الريح من غربي نهر دُجيل فدفعت سفن العدو تجاه الشاطئ فيما كان جنوده على جهوزية عالية فانقضُّوا عليهم وقتلوا جميع مَنْ كانوا يستقلونها[4] .

---

(1)– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٧،١٢٨/٨ .

(2)–الاصطرلاب: آلة قياس ارتفاعات الأجرام السماوية وتفيد في أمور كثيرة منها التنبؤ باتجاه الرياح مستقبلا.

(3)– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ١٤٥/٨ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٧/٨ .

(4)– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٤٢٣/٩ .

كما روى عنه الطبري أنَّه:-" نظر في حساب النجوم، ووقف على انكساف القمر ليلة الثلاثاء ١٤شوال سنة٢٥٧هـ/٨٧١م فتنبَّأ بتوقيت نصره على مخالفيه "[١] .

وهذا الكلام على عاتق الطبري الذي رواه، وعلى كلٍّ فالرجل له دراية بعلم النجوم والأجرام السماوية كما يروى عنه وهو معلمٌ للأطفال في هذا العلم ، وعليه فلا يبعد أنْ يكون عالماً فيها وفيما نُسب إليه من العلوم التي كان يدرّسها للصبيان من مثل علم النحو والخط والسحر وغيرها من العلوم، فالمتعلمون آن ذاك لا يعرفون التخصص فلا يقفون في تعلمهم عند علمٍ معينٍ، بل إنَّهم قد يلمون بكافة العلوم المعروفة لديهم في ذلك العصر .

مذهبه واتجاهاته الفكرية:

بالرجوع إلى مصادر التاريخ التي تحدَّثت عن هذه الشخصية الثائرة وعن مذهبه والتيار الفكري الإسلامي الذي ينتمي إليه واتِّجاهاته ومبادئه الفكرية التي يعتنقها؛ فإنَّ الباحث لتلمس كلِّ هذه مجتمعةً يجد عنتاً وغموضاً كبيرين في تحديد المذهب الفكري الذي يعتنقه والتيارات الفكرية الإسلامية التي ينتمي إليها .

ذلك وإنَّ هؤلاء المؤرخين في معظمهم قد تناولوا هذا الجانب في شخص علي بن محمد في خضمِ الذَّمِ والقدح وحتى الاتهام والحطِّ من قيمته شأنهم في ذلك شأن حديثهم على كلِّ ما ينبئ بأخبار هذا الرجل، الأمر الذي يضعنا أمام احتمالين اثنين أحدهما أنَّ مبادئ ثورة الزنج وأهدافها سواء المعلن عنها عن طريق صاحبها أم غير المعلن يبدو أنَّها لا تتمشى وميول الناس آن ذاك فيما عدا السود منهم، أمَّا الاحتمال الثاني فقد يكون أنَّ أعمال صاحب الزنج نفسه وكذلك أصحابه وأسلوبهم في القتال وطريقة تعاملهم مع المناطق التي احتلوها وأهلها وغالباً كان أسلوبهم دموياً فهذا مالا يرضاه عاقل؛ لذا نفرت الناس منه ومن أتباعه .

ومهما يكن من أمرٍ، فلا بدَّ لنا من اقتحام المجهول ومحاولة استيعاب ما يُقال عليه هنا، ومن ثَمَّ استقصاء الحقائق باعتماد المنهج الاستقرائي المقارن والتمحيص والتدقيق .

---

[١]- تاريخ الطبري ٤٨١/٩ .

والواقع، فإنَّ بعض المؤرخين[1] قد عزوه إلى مذهب الخوارج إذ يصرحون بأنَّه كان عليه، وتحديداً على مذهب الخوارج الأزارقة[2] منهم بالذات مستندين في هذا القول إلى أدلة نذكر منها أهمها:

إنَّ علياً بن محمد كان في بعض خطبه التي يلقيها على مسامع أصحابه وأتباعه يردِّد قولاً يُنسب إلى الخوارج ترديده وهو بمثابة شعار لهم، وهو قولهم:-" الله أكبر لا إله إلاَّ الله والله أكبر، ألاَ لا حكم إلاَّ لله "[3] .

كما استدلَّ أصحاب هذا الرأي – اعتناق علي بن محمد صاحب الزنج لمذهب الخوارج الأزارقة – من المؤرخين على أنَّه على مذهب الخوارج الأزارقة بأنَّه كان يعمد إلى قتل خصومه لاسيما الأطفال منهم والنساء وكذلك الشيوخ الفانين!

كما كان من أدلتهم أيضاً أنَّ أحد قادته البارزين وهو الذي يُدعى علي بن أبان المهلبي كان قد خطب خطبة في أحدى المناسبات وخلالها دعا لصاحبهم علي بن محمد، ودعا للخليفة أبي بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنهم جميعاً) بالمرحمة والمغفرة، ولم يضم إليهما عثمان ولا علياً عليهما السلام، بل لم يذكرهما قط، ولعن جبابرة بني العباس وأبا موسى الأشعري وعمراً بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان[4]، وهم في هذا يرون أنَّ مثل هذا الموقف يتمشَّى مع مذهب

---

[1]- ينظر على سبيل المثال لا الحصر تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٤٥٠/٩ ومروج الذهب للمسعودي ٤٣٩/٢ والعبر لابن خلدون ١٨/٤ – ١٩ .

[2] – الأزارقة هم أتباع أبي راشد نافع بن الأزرق الذين ناصروه وزحفوا معه من البصرة إلى الأهواز فاحتلوها كما سيطروا على قراها وما جاورها من بلاد فارس وكان هذا في أيام عبد الله بن الزبير، وهؤلاء الأزارقة يكفِّرون عثمان وعلياً وعائشة وعبد الله بن عباس (رضي الله عن آل وصحابة رسوله صلى الله عليه وسلم وأرضاهم) وكانت شعاراتهم ومبادئهم كثيرة منها إباحة قتل الخصوم أطفالاً كانوا أم نساءً، وتكفير العاصي وتكفير مرتكب أيٍّ من الكبائر، وغيرها من المبادىء التي ليس مقامها ها هنا . ينظر الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ت(٥٤٨هـ/١١٥٣م) (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة١٣١٧هـ، ١٦١/١ – ١٦٤ والسيادة العربية لفان فولتن ص٧٢ .

[3]- مروج الذهب للمسعودي ٤٣٩/٢ .

[4]- المصدر نفسه ٤٧٠/٢ – ٤٧٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (د/ط) (بيروت/لبنان) (د/ن) سنة١٩٦٨م، ص٢١٥ .

الخوارج الأزارقة[١]؛ لذا زعموا أنَّ الرجل وثورته قد انتسبا لهذا المذهب، وكان من أتباعه معتنقيه .

وفي الحقيقة، فإنَّ هذه الأدلة التي قدَّمها أصحابها للاحتجاج بها على أنَّ علياً بن محمد ينتمي إلى مذهب الخوارج كلُّها قابلة للنقد والنقض، ويمكن هنا أنْ نعرض لكلٍّ منها بالتحليل وبوضعها في الميزان على النحو التالي:

فقولهم أنَّه كان يردِّد القول: الله أكبر لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حكم إلاَّ لله، فنجد أنَّ هذا القول لا ينفرد به الخوارج وحدهم، بل الثابت أنَّ كلَّ المسلمين يلهجون بهذا ولا عجب، فإنَّهم يكبِّرون الله وينطقون بكلمة التوحيد(لا إله إلاَّ الله) وهي ديدنهم فلا ينامون ولا يصحون إلاَّ عليها وهم دائبون عليها أبدا، أمَّا قولهم: (لا حكم إلاَّ لله)، فهم بقولهم هذا إنَّما يستندون إلى نصِّ آيةٍ من الذكر الحكيم يتلونها شأنهم شأن جميع المسلمين وهذا لا يدل بالضرورة على مذهبهم، فهي من القرآن المنزَّل على سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، والتي تكرر ذكرها في أكثر من سورة في المصحف الشريف من قوله جلَّ وعلا:-﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ ﴾[٢] .

ثمَّ إنَّ الخوارج قد قالوا (لا حكم إلاَّ لله) في التحكيم الذي أُتفق عليه لفض النزاع بين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان، وهم له رافضين منكرين؛ وهو أمر ثابت معروفٌ عنهم .

أمَّا دليلهم الثاني الذي حاولوا به إثبات أنَّ علياً بن محمد كان يعتنق مذهب الخوارج الأزارقة منهم بالذات، هو التزامه بقتل خصومه بما في ذلك الأطفال والنساء والشيوخ؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ هؤلاء الأطفال مصيرهم في النار مع أبائهم[٣]، كما يغالي الخوارج في رأيهم تجاه خصومهم ومخالفيهم باعتبارهم كفَّار مارقين، فيذهبون بعيداً إلى حدِّ مساواتهم بعبدة الأوثان[٤] .

---

[١]– ملخص تاريخ الخوارج للشيخ محمد شريف سليم (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م، ص٣ .

[٢]– سورة الأنعام ٥٨/٦ وسورة يوسف عليه السلام ١٢/ ٤٠، ٦٧ .

[٣]– الملل والنحل للشهرستاني ١٦٤/١ .

[٤]– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي (١٩٣٥م – ١٩٤٩م) للدكتور حسن إبراهيم حسن (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) (د/ت)، ٣٧٢/٣ .

ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم جاء في وثائقهم ما ينافي ذلك ويثبت العكس مِمَّا يوقعهم في مناقضة أنفسهم .

فمثلاً الطبري نفسه الذي كان مِمَّنْ يرون أنَّ علياً بن محمد كان يعمد إلى قتل خصومه أطفالاً ونساءً وشيوخاً التزاماً بمذهب الأزارقة من الخوارج حسبما يرى أصحاب هذا الرأي .

فإنَّه نفسه يروي عن علي بن محمد – وهو يؤرخ لهذه الثورة – أسره للكثيرين وزجه بهم في غياهب سجونه سواء أكانوا من المقاتلين أو من النساء الأسيرات اللاتي استرقَّهن وجعلهنَّ خدماً بعدما كنَّ حرائر .

وفي هذا ما فيه من نفيٍ للرأي القائل بالتزام علي بن محمد بقتل خصومه دونما تمييز بين المقاتل أو الشيخ أو الطفل أو النساء .

وفي حنايا كتب التاريخ وكلام المؤرخين وأولهم الطبري نفسه روايات[١] لأحداث تبرِّئ ذمَّة الرجل وتنظِّف ساحته من تهمة سفك الدماء والقتل دونما جريرة أو دونما تمييز بين شيخ وطفل وامرأة .

فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر تلك القصة[٢] التي يروى فيها أنَّ علياً بن محمد عندما كان في طريقه للقادسية للاستيلاء عليها خرج أحد أهلها وقتل رجلاً من مقاتلي جيش الثورة، وبطبيعة الحال حاول جيش الزنج ردَّ الفعل بأخذ أهل القرية جميعهم بجريرة صاحبهم، فما كان منه إلاَّ أنْ صدَّهم عن ذلك وأشار عليهم بأنْ لا سبيلَ إلى ذلك قبل أنْ يعرف رأي أهل القادسية وهل هم متورطون في قتل هذا الجندي؟ وننظر فيما إذا كانوا يوافقون على تسليم صاحبهم هذا أم لا؟ وقرَّر بأنَّه لا يسمح لهم قتال هؤلاء إلاَّ بعد معرفة رأيهم النهائي .

وبهذه القصة وغيرها يتأكَّد أنَّ علياً بن محمد لم يكن شرِهاً لتقتيل العباد وخصوصاً أنَّه كان قادراً ومتمكناً منهم الأمر الذي ينفي عنه انتماءه إلى مذهب الخوارج الذين يلجأون إلى قتل خصومهم دونما تمييز .

---

[١]– ينظر مثلاً تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٩/٤١٥، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٦ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨/١٤٣ .

[٢]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ٩/٤١٥ .

بقي الدليل الثالث الذي ساقه القائلون بأنَّه على مذهب الخوارج، وقد تمثَّل في تلك الخطبة التي خطبها علي بن أبان المهلبي وهو من قوَّاد الثورة المقربين لعلي بن محمد والتي ترحَّمَ فيها على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وسكت عن ذكر عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عليهما السلام .

والحقيقة الثابتة أنَّه عندما ننظر إلى ما هو موجود لدى فرقة الخوارج الأزارقة منهم على وجه الخصوص الذين عزا أصحاب هذا الرأي ولاء علي بن محمد إليهم .فنرى أنَّهم يناصرون ويؤيِّدون سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مطلقاً؛ أمَّا سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه فيؤيِّدونه في النصف الأول من زمن خلافته، أمَّا سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيناصرونه[١]، وكذا يؤيِّدونه فيما سبق حادثة التحكيم .

إلاَّ أنَّهم يتبرؤون منهما فيما بعد ذلك، بسبب ما حدث في السنوات الأخيرة لولاية سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه من أحداث اعتبروها خارجةً عن الدين الإسلامي وشريعة الله سبحانه وتعالى، كما تبرَّؤا من سيدنا علي رضي الله عنه عند قبوله للتحكيم .

ومن هنا يتَّضح جلياً أنَّ ما جاء في خطبة المهلبي هذا لا ينطبق مع ما يؤمن به الخوارج وعلى الأخص الأزارقة منهم من مبادئ تجاه سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، بل ينطبق تماماً مع مذهب أعتنقه كثيرٌ من المسلمين آنذاك والذين توقَّفوا في الحكم على سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا علي بن أبي طالب وتحفَّظوا في الكلام على ما حدث في عهديهما من وقائع وفوضى .

لذا، فإنَّنا نقول بأنَّ ما جاء في خطبة المهلبي أقرب إلى مذهب التوقف منه إلى مذهب الخوارج وإذا اتخذنا من هذه الخطبة دليلاً على مذهب علي بن محمد لانتفى عليه تمذهبه بمذهب الخوارج الذين كان لهم رأيٌ مغايرٌ في سيدنا عثمان ابن عفان وسيدنا علي بن أبي طالب عليهما السلام لما جاء في خطبة المهلبي . وبناءً على ما تقدَّم من نقدٍ للأدلَّة التي قال بها أصحابها – مستندين إليها – أنَّ علياً

---

[١]– ملخص تاريخ الخوارج للشيخ محمد شريف سليم ص٣ .

ابن محمد على مذهب الخوارج؛ يتَّضح أنَّها لا ترتقي لأنْ تكون أدلَّةً قاطعةً يمكن أنْ نبني عليها حكماً ما، خصوصاً هذا الذي يتعلق بتمذهب علي بن محمد بمذهب الخوارج الأزارقة .

أضف إلى ذلك ما يطالعنا من قرائن لا تشجِّع على التسليم باعتباره متمذهباً بمذهب الخوارج والأزارقة منهم بالذات أولئك الذين يوصفون من طرف المفكرين والمؤرخين على حدِّ السواء بأنَّهم غُلاةٌ متعصِّبين بعيدين على الاعتدال، بل أنَّها لا تقف عند حدّ عدم التشجيع على اعتباره خارجياً فحسب، بل تذهب إلى أبعد من ذلك بحيث تنفي عليه كونه ينتمي إلى مذهب الخوارج الأزارقة، وبعبارة أدق أنَّه لا ينتمي إلى الخوارج مطلقاً الأزارقة منهم وغير الأزارقة؛ وفيما يلي بعضٌ من تلك الأمور أو القرائن التي تنفي ما ذهب إليه بعضهم في هذا الصدد:

ذلك الغموض وتلك البلبلة التي نلحظها لدى هؤلاء المؤرخين أصحاب هذا الرأي عندما نقف عند كلامهم وهم يعالجون مسألة انتساب محمد بن علي إلى العلويين[١]، فهم أنفسهم يرددون عنه أنَّه ادَّعى نسب العلويين ورأينا فيما مضى عند الحديث عن نسب الرجل كيف أنَّهم خاضوا في هذه المسألة وأطالوا الوقوف عليها .

وعلى كلٍّ، ففي هذا المقام ما يهمنا هو أنَّ ادعاءه لهذا النسب ثابت على الأقل عند هؤلاء المؤرخين، وعليه نقول أنَّه سواء كان علوي النسب أم مدعياً له، فإنَّه في الحالين يستبعد أنْ يكون قد تمذهب بمذهب الخوارج؛ لأنَّ الخارجي لا يمكن بحالٍ أن يسعى إلى أنْ يكونَ علوياً ولا يدَّعي ذلك، فهو بذلك يُعلي من شأن النسب العلوي، وفي الوقت ذاته، فإنَّ رأي الخوارج في العلويين غير طيِّب كما هو معروف .

فالخارجي إذن لا ينظر إلى العلويين بعين الرضا فضلاً عن أنْ يسعى إلى هذا النسب من الأصل .

هذه واحدة، أمَّا الأخرى فهي إشارة عساها أن تفيدَ وتساعد من أراد دحض كون علي بن محمد على مذهب الخوارج، وهي تتمثَّل في أنَّ علياً بن محمد – كما يذكر

---

[١]– العبر لابن خلدون ١٩/٤ .

المؤرخون[١] – كانت داره في مدينة المختارة التي بناها بجوار سوق يدعى (سوق الحسين) وهذا مخالفٌ لما يعتقد به الخوارج الذين يُجلُّون آل البيت ولا يرضون بأنْ تُسمَّى الأسواق أو غيرها من الشوارع والأحياء والميادين والمناطق بأسمائهم لما يرون فيه من حطٍّ للقدر والقيمة، فلو كان علي بن محمد خارجياً لمنع ذلك خصوصاً وهذا السوق على مقربة من داره .

وعليه، فإنَّ أمر تمذهب محمد بن علي بمذهب الخوارج الأزارقة وغير الأزارقة منهم بات أمراً بعيدَ الاحتمال .

وبحكم أنَّنا لم نركن إلى حدِّ الآن إلى رأيٍ يمكن الاستناد إليه في تحديد مذهب هذا الرجل وثورته واتجاهاته الفكرية، بل أنَّ هناك – على نحو ما مرَّ بنا آنفاً – دلائل دحضت ما قيل سلفاً حول تحديد مذهبه واتجاهاته الفكرية .

لذا بات لِزاماً علينا البحث عن رأي غيره وتحديد مذهب الرجل واتجاهاته الفكرية، وهذا أمر يدفعنا إلى تلمُّس بعض الحقائق والأحداث دفعاً تلك التي يسردها المؤرخون خلال مسيرة هذه الثورة والتي يمكن أنْ تُضيء لنا الطريق وصولاً إلى ما يمكن لنا الاستئناس به في تحديد مذهب الرجل واتجاهاته الفكرية التي على أساسها انطلقت ثورة السود العارمة .

ففيما مضى رأينا كيف أنَّ المؤرخين والرواة قد بنوا فكرتهم على بعضٍ من تصرفات قائد الزنج وأتباعه وكلامهم في خطبهم وما هو موجود في شعاراتهم وكذلك على ما يبدر منهم من سلوك تجاه خصومهم خلال معاركهم الطاحنة معهم إلاَّ أنَّ تلك الأفكار والآراء لم ترتقِ – على نحو ما رأينا – إلى مستوى البرهنة والدليل القاطع .

وفي الواقع، إنَّما هي إشارات ولمحات يحاول الباحث التقاطها من بين ثنايا كلام المؤرخين عند سردهم لوقائع الثورة، فكما يبني المؤرخون حكمهم بأنَّ علياً بن محمد متمذهب بمذهب الخوارج استناداً إلى تلك الإشارات والومضات، فإنَّ ثمَّةَ في كلامهم هم أنفسهم[٢]ما يمكن للباحث أنْ يستند إليه ليدحض رأيهم الأول – بأنَّه يعتنق

---

[١]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ٦٣١/٩ .

[٢]– المصدر نفسه ٤٨٧/٩ .

مذهب الخوارج – من ناحية ومن ناحية أخرى يأخذنا للقول بأنَّه وثورته على غير هذا المذهب .

فمثلاً عندما نجد أحدهم يصف هيئة جيش الثورة الزنجية ويرسم لنا صورته قائلاً:–" ... وكانت أعلام صاحب الزنج بيضاء ... "[١] .

نعم فإنَّ الثياب التي يرتديها هؤلاء الثوار كانت بيضاء وكذلك أعلام ثورة صاحب الزنج كانت بيضاء وقد كتبوا عليها آية من الذكر الحكيم وهو قوله عزَّ وجل:–﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ... ﴾[٢]، كما دوَّنوا عليها اسم زعيمهم وصاحبهم علي بن محمد[٣] .

وعندما نبني رأياً على هذا المشهد بعد تحليله إنْ كان يحمل ما ينبئ بمذهب هذا الثائر وثورته، فنقول بأنَّ اللون الأبيض الذي كان لوناً لثياب الجند الزنج وللأعلام التي تُعدُّ شعاراً تنضوي تحته الثورة والثوار وزعيمهم على حدِّ السواء، كان في الأصل لوناً يتخذه ذلك التيار الذي ثار أتباعه على بني العباس شعاراً ورايةً لهم على مرِّ التاريخ .

ففي تاريخ الثورات ضد العباسيين وغيرهم مِمَّن سبقهم[٤]، نجد أنَّ اللون الأبيض كان شعاراً لها، أضف إلى ذلك أنَّ قيادات هذه الثورات كانوا في أغلب الأحايين أئمةً علويين ومن نسل زيد بن علي بالتحديد، ولعلَّ هذا يعود إلى أنَّ هؤلاء الجماعة من آل البيت ترتبط اتجاهاتهم ويتعلق فكرهم بفكر طائفة المعتزلة واتجاهاتها خصوصاً في ذلك الجانب الذي يميلون فيه إلى الانتفاضة وينحاز رأيهم فيه إلى الثورة عن الحكم والسلطان وهم في هذه بالذات يختلفون مع الشيعة الإمامية، بل هم على العكس تماماً منهم، فالشيعة الإمامية قد أحجموا عن الثورة انتظاراً للمهدي الغائب المنتظر .

عليه، فإنَّ ما مضى من القول في أمر مذهب هذا الرجل وتوجهات ثورته الفكرية

---

(١)– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ٤٨٧/٩ .

(٢)– سورة التوبة ١١٢/٩ .

(٣)– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ٤١٣/٩ .

(٤)– المعتزلة والثورة لمحمد عمارة (د/ط) (د/ن) (بيروت/لبنان) سنة١٩٧٧م، ص٩٩ – ١٠٤ .

يجرنا إلى القول بأنَّ علياً بن محمد وثورته يعتبران مجرد حلقة في سلسلة ثورات العلويين الزيدية الذين اتَّخذوا من مذهب المعتزلة مذهباً لهم، بل هي امتداد لتلك الثورات، ومِمَّا يزيدنا ميلاً لهذا الرأي أنَّ مسألة التوقف في الحكم على[1] كلٍّ من سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أمرٌ يعتنقه المعتزلة ويؤمنون به .

وكما هو ثابت أنَّ صاحب الزنج وقادته وأتباعه قد توقَّفوا عن الحكم عليهما على النحو الذي عرفنا من خطبة المهلبي أحد قادته الكبار وهو أمرٌ كان واضحاً واستفيض فيه الكلام فيما مضى قريباً من هنا .

وبعدما عرضنا لما قيل في شأن مذهب صاحب الزنج وثورته نقول أنَّ الأمرَ شائكٌ وغامضٌ تحيَّرَ فيه المؤرخون أنفسهم وخاضوا فيه أخذاً وردّاً، فكما لاحظنا أنَّ بعضاً منهم عزاه إلى الخوارج، وبعضهم جاء في كلامه إشارات تفيد بأنَّه على مذهب ذلك التيار العلوي الثائر ضد العباسيين من نسل زيد بن علي من آل البيت، ذلك التيار المتشرب للفكر المعتزلي المنحاز إلى الثورة على نحو ما رأينا آنفاً!

وعليه، فإنَّنا نقرُّ بأنَّ ما جاء في كلام المؤرخين لا يشفي الغليل في تحديد مذهب هذا الرجل وثورته وأطروحاته الثورية .

فتصرفات الرجل وسلوكه تتبدَّل وتتلون لتصير خليطاً يصعب فرزه وتحديد هويته، وهذا كلُّه – فيما يبدو – نزولاً ومسايرةً لتلك الظروف الصعبة المضنية التي تحيط به وبثورته لكونه يقود ثورة سوداء صعبٌ أنْ ينطلي فكرها على الناس آنذاك!

وفي الواقع، فإنَّه معذورٌ لأنَّ الرجل كان يروِّج لأفكارٍ ولاتِّجاهات لتحقيق أهدافه التي رسمها لثورته – وقد أُشير إليها في موضعها آنفاً – الأمر الذي يحتِّم عليه محاولة إرضاء كلِّ المحيطين به وبثورته والتقرُّب إليهم بكافة السبل بما في ذلك ادِّعاء الانتساب إليهم أو التمذهب بمذاهبهم وما إلى ذلك؛ لأنَّها أولاً وأخيراً سياسة والسياسة كما نعلم هي ما هي في المكر والتحيُّل والخديعة .

---

[1]– الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد للخياط (د/ط) (د/ن) (القاهرة – مصر) سنة١٩٢٥م، ص٩٨ والمعتزلة وأصول الحكم للدكتور محمد عمارة (د/ط) (د/ن) (بيروت – لبنان) سنة ١٩٧٧م، ص٢٠٨، ٢٠٩ .

والسياسة والطمع في السلطة والسلطان هذه كلُّها في تقديري السبب الذي يقف وراء كلِّ ما يروى عليه من قبل المؤرخين – وعلى نحو ما رأينا آنفاً – فقد خلط في سلوكه وفي جلِّ أموره من حيث نسبه ومذهبه وبرنامجه الفكري وتوجهاته .

فإنْ كان الغموض يلفُّ الكلام على تحديد مذهبه، أضف إلى ذلك نسبه الذي لم يحدَّد بدقَّة، فإنَّ هذا هيِّن عندما ندرك أنَّ هذا الرجل غريبٌ في كلِّ ما يتعلَّق به!

ولعلَّ هذا راجعٌ إلى أنَّ هذا الرجل لم ينطلق من أساسٍ معيَّنٍ بحيث أنَّه لم يثبت في نسبه ولا في مذهبه ولا في فكره ولا في شيء مِمَّا يتعلَّق بشخصه على حالٍ، بل أنَّه لم يعرف أشيعي هو أم من الخوارج أم من المعتزلة؟ أمَّا أتباعه أولئك السود فلم تكن لهم عشيرة تؤويهم ولا طائفة يؤولون إليها، وهم أولاً وأخيراً عبيد وليسوا من السادة حتَّى يمتلكون ثقافة يعرفون بها ولا برنامجاً ينعتون به، الأمر الذي جعل لغطاً كبيراً وبلبلةً في الآراء التي تحدَّث أصحابها وأثاروها حول هذا الموضوع .

والثابت الصحيح بعد كلِّ هذا، يبدو أنَّ هذه الثورة وصاحبها لم يكن لديهما اتِّجاه فكري معيِّن أو برنامج اقتصادي أو اجتماعي أو حتَّى سياسي شامل، لعلَّ هذا يعدُّ من العوامل التي طوَّحت بهذه الثورة العارمة ووقفت حائلاً دون تحقيق أيٍّ من أهدافها بعدما كانت قاب قوسين أو أدنى من نيلها مجتمعةً!

فقط كان في ادِّعاءاته هذه وحيله كلِّها يهدف إلى شيء واحد ألا وهو انتصار ثورته ومن ثَمَّ تحقيق أهدافه التي رسمها لها مسبقاً .

*****

المبحث الثاني

(دواعي الثورة وأسبابها)

ولإدراك دواعي ثورة الزنج وأسبابها لا بدَّ لنا من إماطة اللثام ولو نزراً يسيراً على ما آلت إليه أحوال الدولة العباسية من تدهور في كافة المجالات سياسياً واقتصادياً

واجتماعياً لتظهر لنا جلياً تلك الدواعي والأسباب التي كانت مدعاة ومبرراً ليس للزنج وصاحبهم وحدهم فحسب، بل لآخرين عديدين ليلهبوا ويؤجِّجوا نيران ثوراتهم وتمردهم على دولة بني العباس وخلافتهم .

كلُّ هذا جاء بعدما كانت عليه الحضارة العربية الإسلامية من رقيٍّ وازدهار بهر العالم وعمَّ أرجاء المعمورة لاسيما في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وذلك في زمن ثلة من الخلفاء العباسيين منهم الخليفة المأمون ١٩٨ – ٢١٨هـ/٨١٣ – ٨٣٣م والخليفة المعتصم ٢١٨ – ٢٢٧هـ/٨٣٣– ٨٤٢م والخليفة العباسي الواثق ٢٢٧ – ٢٣٢ه/٨٤٢ – ٨٤٧م .

ولعلَّ سرَّ هذا الازدهار والرقي يكمن فيما يسلكه كلٌّ منهم من إشاعةٍ للعدل والمساواة وإعمالٍ للعقل بعيداً عن الزيغ والميل عن الحق، وهذا ليس بغريب عنهم، إذْ أنَّ هؤلاء الخلفاء الثلاثة كانوا يعتنقون مذهب المعتزلة من أهل العدل والتوحيد، فهم إذن جميعهم أنصار للتيار العقلاني الذي كان يُعدُّ من دعائم الفكر الإسلامي آنذاك؛ وهذا كان عاملاً مهماً في أنْ يمكِّنَ هذا التيار من الاستفادة من قوة الدولة وسطوتها للترويج لمفاهيمه وأفكاره ومبادئه؛ فكان انتماء هؤلاء الخلفاء الثلاثة لهذا التيار يشكِّل ركيزة وداعماً لانخراطه ليصير حلقة مهمة فيما يسمَّى بالعصر الذهبي الذي تشكَّل ليأخذ بيد الحضارة العربية الإسلامية إلى أوج قوتها على أيدي هؤلاء الخلفاء العباسيين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي، خصوصاً وأنَّ طائفةَ المعتزلة هذه في حقيقة الأمر كانت تيَّاراً ذا طابعٍ سياسي بحت – على الأقل في نشأته ومن بعد تطوره – إذ كان له مريدوه وتابعوه وأنصاره الذين قد شكَّلوا جمهوراً عريضاً وأسسوا أرضية صلدة يمكن الارتكاز عليها، ولعلَّ هذا التكوين القوي المتين جعل منه تياراً يمثِّل الارستقراطية الفكرية بشكلٍ واضحٍ جليٍّ آخذاً به في هذا الاتِّجاه إلى أبعد حدٍّ .

حيث التحم هذا التأسيس القوي المتين للتيار العقلاني المستند إلى كواهل الدولة بسبب اعتناق خلفائها في هذا العصر، بذلك الاهتمام البالغ التنامي شيئاً فشيئاً بالعقل ومباحثه خصوصاً بعدما أُخذ في ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية الأمر الذي دفع المعتزلة إلى التحوَّل بشكلٍ واضحٍ وكبير إلى أنْ يصيروا عبارة عن تيار

فلسفي حتَّى صاروا قياساً للجمهور والعامة آن ذاك يشكلون ارستقراطية الفكر إلى حدٍّ بعيد .
إلاَّ أنَّ هذا لم يكن ليخدم مصالح التيار العقلاني، بل كان يُعَدُّ عاملاً سلبياً ذا تأثيرٍ عكسيٍّ عليه، إذْ أنَّ الجانب الفلسفي كان قد استعصى على الجمهور والعامة في استيعابه مِمَّا جعلهم ينفرون منه ويفرُّون صوب أولئك الفقهاء أهل التقليد الذين لا يتجاوزون المأثور من ظواهر النصوص وهم في الوقت ذاته خصومٌ لطائفة المعتزلة ومناوين لهم؛ أضف إلى ذلك أنَّهم كانوا أقرب منهم إلى عقول العامة والجمهور، وهذا كما أشرنا آنفاً لا يصبُّ في مصلحة المعتزلة، بل قد يضرُّ بتيارهم إذ يضفي ندرةً على مريديه وأتباعه .
والواقع، فإنَّ هذا الأمر يجعل من المعتزلة يستشعرون الخطر الذي أساسه توكؤ خصومهم على العامة والجمهور واستنادهم إليهم، مِمَّا يجعلهم يشكِّلون قوةً قد تهدِّد تيَّارهم الفكري وسلطانهم السياسي معاً، ومن ثَمَّ تقف حائراً أمام تلك السيطرة المذهبية التي يحاولون إملاءها على الناس آنذاك .
ومن هنا حاول المعتزلة صد ذلك الخطر الدَّاهم بأنْ أقدموا على طرح توجههم وفرضه على الجميع بهدف صبغ المجتمع بصبغة عقلانية مستنيرة، وكان المعوِّل عليه في هذا عندهم العقل والسلطة معاً في آنٍ واحدٍ، وكلُّ هذا جاء على حساب معالجة المشكلة وتطويقها بحصر الجدل الناشئ حول الإلهيات وما يقال بمنطق الفلسفة عند خاصة الناس، وليس عامتهم بطبيعة الحال .
فالحلُّ كان متاحاً عن طريق فتح المجال وإفساحه لحرية الخلاف والاختلاف وترك فسحة كافية تعدُّ آنذاك متنفساً هامّاً للرأي والرأي الأخر .
إلاَّ أنَّ أصحاب التيار العقلاني لم يعيروا اهتماماً لهذا الأمر الذي أوقع المجتمع آنذاك في بلبلةٍ كبيرةٍ جرَّت كثيراً من المتاعب على مذهب المعتزلة وتابعيه .
خصوصاً عندما بدأ خصومُهم يشعرون بنوعٍ من الاضطهاد الفكري والعقائدي، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى العامة والجمهور واستنفارهم للدفاع عن عقائدهم وأفكارهم الموروثة تلك البسيطة بعيداً عن التعقيد الفلسفي الذي يجرهم إليه المعتزلة أصحاب السلطة والفكر في تلك الحقبة من العصر العباسي .

ولم يكتفِ خصوم المعتزلة بدفع العامة والجمهور إلى الدفاع عن معتقداتهم والوقوف في وجه المعتزلة، بل انتقلوا بهم من الموقف المدافع ليصيروا بهم إلى الهجوم بعد التربص والتبييت لهذا الفكر المتفلسف الذي يتَّبعه المعتزلة ومَنْ على شاكلتهم ذوداً عن موروثهم من الفكر، خصوصاً بعدما أطبق أصحاب التيار العقلاني (المعتزلة) الخناق على الناس وهم يشكِّلون العامة باضطهادهم والتجاوز على طريقة تفكيرهم بفرض نمطٍ جديدٍ من التفكير عليهم أُشير إليه فيما مضى .

والواقع، فإنَّ الصيحات تعالت محذِّرةً، ورنَّت نواقيس الخطر تنذر بذلك الخطر الداهم الذي عقد العزم على دهم التيار العقلاني وأصحابه وتابعيه وأوَّل مظاهره قلة أتباع هذا التيار من العامة، بل يكاد ينعدم انخراط أحدٍ من العامة في هذا التيار؛ لأسباب تكمن في التيار ذاته سبق ذكرها .

فهذا الجاحظ ١٦٣ – ٢٥٥هـ/٧٨٠ – ٨٦٩م نبَّه إلى قلَّة العوام في صفوف المعتزلة ومدى الخطر الذي تشكله هذه القلَّة عليهم وعلى تيارهم خصوصاً، وأنَّ العامة يشكِّلون الأكثرية في مذهب خصوم المعتزلة[1]بسبب أنَّ فقهاء الخصوم والعامة قد جمعت بينهم وشائج فكرية أساسها ذلك النفور من الفكر العقلي الفلسفي المركب الذي يتمسَّك به المعتزلة، وهذا مغايرٌ لِما يصبوا إليه الخصوم من الركون إلى ظواهر النصوص وتبسيط المعتقدات والأفكار والابتعاد عن التعقيد وفلسفة الأمور اللذيْن صارا – فيما يبدو – ديدناً لأصحاب التيار العقلاني والذي يقابله لدى الخصوم اختيار أمورٍ غاية في اليسر والسهولة، منها على سبيل المثال " التشبيه " بدلاً عن " التنزيه والتجريد " إلى غير هذه الأمور التي من شأنها توسيع المسافة بين المعتزلة وخصومهم الذين – فيما يبدو – أنَّهم فطنوا لأهمية العامة في كسب هذا الصراع وحسمه؛ لذا أقدموا على استعمال العامة واستمالتهم لتحقيق طموحاتهم .

ولم يغفل الجاحظ التنبيه إلى ذلك بحيث حذَّرَ المعتزلة ولفت انتباههم إلى أنَّ خصومهم قد عمدوا إلى قيادة العامة والاستعانة بهم في الحصول على أغراضهم،

---

[1]– فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار بن أحمد (د/ط) (د/ن) (تونس/تونس) سنة ١٩٧٢م، ص٣٧٣ .

حين قال:-" آملوا أنْ ينالوا بذلك بشاشة العامة، وتستوي لهم الرياسة على طغام[١] الناس ورعاعهم[٢] "[٣]، ولم يقف الجاحظ عند هذا الحد، بل أشار إلى اختراق صفوف المعتزلة من قبل بعض المنافقين، الأمر الذي قد يؤدِّي إلى كثرة المهادنين والمسايرين، فقال:-" ... فإنَّ عدد الجماجم على حاله، وضمير أكثرهم على م بالمرتاب، ولا نثق بالجانح، وإنْ كانت المبادأة قد نقصت فإنَّ القلوب أفسد ما كانت ا كان عليه، والذين ماتوا قليل من كثير، ونحن لا ننتفع بالمنافق، ولا نستعين... وهم اليوم إلى المنازعة أميل وبها أكلف "[٤].

ولعلَّ في هذا ما فيه من نصحٍ للمعتزلة بعد الاعتزاز بكثرة عدد المنخرطين في تيارهم من المنافقين والمسايرين؛ لأنَّ حقيقة وجودهم بينهم لا تعدوا أن تكون مجرد نمطٍ من أنماط النفاق والكذب لم يزد من شأن التيار العقلاني شيئاً، بل قد يشكِّل هذا عليه خطراً محدقاً، كما لم يُنقص من عدد خصومهم ولا يضعفهم، بل بالعكس يزيد من قوة الخصوم لكونه يشكَّل خطراً على المعتزلة ويتهدَّدهم .

وبمرور الزمن وتوالي الأحداث والمواقف التي تأخذ – على نحو ما رأينا فيما مضى – بمجريات الأمور بعيداً ضد التيار العقلاني وتزيد من تعقيدها وتفاقمها من هنا صار مصير المعتزلة وتيارهم الفكري والسياسي وكذلك دولتهم في المحكِّ خصوصاً عندما أدركوا التحام علماء الخصوم وفقهائهم مع العامة وتأكَّد لهم قيادة هؤلاء العلماء والفقهاء للعامة هنا أيقنوا أنَّ الخصوم قد أخذوا يشكِّلون خطراً أكيداً عليهم، وعلى تيارهم؛ " لأنَّ العوام إذا كانت نشراً[١]فأمرها أيسر، ومدَّة هيجها أقصر، فإذا

---

[١]– معنى طغام: أراذل الناس وأوغادهم، مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرَّازي ت (٣٩٥هـ) وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين (ط/١) (دار الكتب العلمية/بيروت) سنة١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، مادة: (طغم) ولسان العرب لابن منظور، مادة: (طغم) .

[٢]– معنى رعاعهم: رِعاع الناس سُقَّاطهم وسَفِلَتُهم وأخلاطهم ، لسان العرب لابن منظور، مادة: (رعع) .

[٣]– رسائل الجاحظ (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٦٤م، ٣٣٩/١ .

[٤]– المصدر السابق ١٢٦/٢ .

[١]– نشرا: القوم المتفرقين الذين لا يجمعهم رئيس، لسان العرب لابن منظور، مادة: (نشر) .

كان لها رئيسٌ حاذقٌ، ومطاع مدير، وإمام مقلد، فعند ذلك يموت الحقُّ ويُقتل المحق "[٢].

وهنا وفي هذه الأوضاع والظروف التي وجد أنصار التيار العقلاني أنفسهم فيها كان لِزاماً عليهم التحرك للدفاع عن مذهبهم والانتصار له فلجأوا إلى الدولة واستخدام سلطتهم وسطوتهم فيها للرد على الخصوم ومحاولة إقناعهم بتوجّهاتهم وأرائهم .
ولعلَّ في هذا ما فيه من خطأ فادح زاد من توريط المعتزلة بدلاً من تخليصهم إذْ أدَّى إلى غضب الخصوم من الفقهاء والعامة وأفضى إلى إفشاء البلبلة والقلاقل التي أوحت إلى الدولة بنذر خطر الانفجار والخروج عن الدولة وانعدام الأمن، مِمَّا جعلها تُعزِّز قوتها وتزيد من التوكؤ على القوة العسكرية التي رأى القائمون على الدولة آنذاك عظم أهميتها، مِمَّا حدى بهم إلى المضي قدماً في زيادة حجم الجيش وعدد العسكر باعتباره الأداة المهمة لتثبيت الحكم والسلطان اللذيْن باتا في ظلِّ هذه الظروف في مهبِّ الريح .
ولقد تنبه إلى خطورة الموقف الخليفة المعتصم ٢١٨ – ٢٢٧هـ/٨٣٣م – ٨٤٢م وسعى إلى بناء جيش قوي يمكنه من مواجهة هذه الظروف والمساعدة على توطيد حكم الخلافة العباسية وإرساء دعائمه، فكانت ضمن جيشه هذا فرقٌ كثيرة ومتعددة الأصول، منها فرقة (الفراغنة) وهم من أهل فرغانة، وفرقة (الأشروسة) من أهل أشروسية، وكذلك فرقة مكونة من موالي حوف[٣] مصر وحوف اليمن وحوف قيس .
ولعلَّ سبل الرفاهية والازدهار اللذيْن تحملهما حضارة ذلك العصر والتي حدت بالعنصر العربي إلى الركون إليها ومن ثَمَّ الإناخة وترك المتاعب والمشاق والابتعاد عن تلك الخشونة وحياة التعب التي يلقاها العسكر سيما وهم يقاتلون في ساحات القتال، هذه كلُّها طوحت بجدارة العنصر العربي آنذاك وجعلته ضعيفاً لا يثق بنفسه ولا يقدر على اقتحام الصِّعاب ولا يعوَّل عليه في شيء!
ومن هنا جاءت الفكرة للخليفة المعتصم بالتركيز على المماليك الأتراك وإنزالهم جنداً في هذا الجيش الذي بدأ يعدّه لِما قد يأتي من صروف الدهر؛ ففتح لهم المعسكرات،

[٢]– رسائل الجاحظ (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٦٤م، ٢٨٣/١ .
[٣]– حوف: الناحية والجانب، لسان العرب لابن منظور، مادة: (حوف)، (حيف) .

واتَّبع سياسة تقريب الأتراك وجعلهم في الصدارة بين كتائب جيوش الخلافة[1]، وبذا صاروا القوة الرئيسة والكبرى في جيش الدولة بسبب هذه السياسة الخاطئة التي اتبعها الخليفة المعتصم ظناً منه أنَّ تقريب جند غريب مختلف عن العرب في قوميته وثقافته وحضارته ولا علاقة له بانحراف المجتمع العربي المحافظ سيمكنه من تحقيق أهدافه وبسهولة ويسر تامين وسيكون أداة طيعة في يده يوجهها حيث يشاء ويسلطها عمَّا يشاء .

وكان عذره في ذلك أنَّ هؤلاء الأتراك لا أهداف لديهم في السلطة ولا مصلحة، وهم خارج ذلك الصراع النَّاشئ بين أطراف المجتمع آنذاك، وأنَّهم بعيدون عن تلك النزاعات بأنواعها السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها .

كما أنَّه كان يهدف إلى خلق نوعٍ من التوازن بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى داخل الدولة بسبب قوة هذا الجيش الغريب عن المجتمع والدولة .

ولكنَّ الواقع يشير إلى أنَّ البلبلة وتزعزع الأمن وتلك الفوضى كانت هذه كلُّها في أغلبها ناشئة من سلوك أُولئك الأتراك الذين ظنَّ الخليفة المعتصم – خطأً – بأنهم سيحافظون على الأمن والاستقرار وإحداث شيءٍ من التوازن بين الأقطاب المتصارعة في الدولة آنذاك فرفعهم إلى مراكز عالية حتَّى صاروا حرصاً له وللقائمين على الخلافة العباسية ودولتها، فبمجرد أنْ نالوا هذه الحظوة من الخليفة المعتصم حتَّى طالت أيديهم وتطاولوا على الخلفاء وتجرأوا على الخلافة حتَّى أخذوا لا يعبأون بصلاحياتها، فبرفع مولاهم المعتصم لمكانتهم وتقريبهم منه صاروا مدللين فحازوا الأموال الطائلة ونالوا كلَّ ما يتطلعون إليه من المال والسلطة والجاه عن طريق إفشاء الفوضى والشغب والقتل[1]؛ الأمر الذي مكَّن لهم أنْ يُطلقوا أيديهم في شؤون الدولة ويتصرَّفوا باستبداد في إدارتها بارتكابهم لأعمال مشينة تجعل منهم أداة

---

[1]– تاريخ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت(٢٨٢هـ/٨٩٥م) (د/ط) (مطبعة الغري/النجف – العراق) سنة١٣٥١هـ، ٢٠٥/٣ .

[1]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٥/٧ ومروج الذهب للمسعودي ٣٨٩/٢ .

للجريمة في الخلافة العباسية، الأمر الذي لم يقدر الخليفة المعتصم على ردعه حتَّى أنَّه اضطرَّ إلى مغادرة بغداد عاصمة الخلافة إلى سامراء[٢] اتِّقاء شرَّهم وإذائهم!
إلاَّ أنَّ هذا الانتقال من بغداد إلى سامراء أتاح للأتراك تكوين مدينة كاملة جديدة وهي – كما عرفنا آنفاً – سامراء، ولعلَّ في هذا ما فيه من ازدياد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية وقوته وسطوتهم، مِمَّا أدى إلى أنْ يصيروا قوة سياسية وعسكرية كبيرة .

والنتيجة علو شأن الأتراك في بغداد وغيرها من مدن وأرجاء الدولة العباسية وبالخصوص سامراء التي صارت مركز قوة بعدما كانت مقرّاً للجيش التركي إنْ صحَّ التعبير، بل أنَّها صارت عاصمة للدولة العباسية منذ (٢٢١هـ/٨٣٦م) وبذا صارت بغداد تابعة لها بعدما كانت عاصمة للدولة، وبذا أصبحت الدولة العباسية وخلافتها أداة طيِّعة بيد العسكر الأتراك، فصاروا يسجنون ويقتلون كلَّ مَنْ يخرج عن أوامرهم، وليس هذا فحسب، بل أخذوا يعيِّنون مَنْ يشاءون خليفةً ويعزلون!
وبالنظر إلى هذه الدولة نجد أنَّ قواتها عبارة عن جيشٍ يعجُّ بعسكر أتراك لا بدَّ من أنْ تكونَ بمنأى عن روح الحضارة العربية الإسلامية واهتماماتها، وأنْ تكون متحرِّفة عن نمط التفكير العقلي الفلسفي إلى العامة، بل هي في عِداء كبير لهذا الفكر الفلسفي مناقضة لكلِّ الآراء المستنيرة داحضة للتيار العقلاني الذي كان منافساً في ذلك العصر؛ ولعلَّ هذا وذاك بسبب تلك الغربة عن العروبة التي كان يعيشها قادة الدولة والتي عملت على تخلفهم عن أداء دورهم تجاه عروبتهم ودينهم الإسلامي الحنيف .
وعليه يمكن لنا القول بأنَّ ما خطَّط الخليفة المعتصم له بأنْ يكون حاضناً للحضارة العقلانية والأفكار المستنيرة وحصناً منيعاً لها يحميها من جهل العامة، وتجاوزاتهم تحوَّل – بسبب الخطأ الفادح الذي ارتكبه الخليفة المعتصم – إلى خلاف ما أراده بحيث صار راعياً للفكر المنحط المتخلف الذي كانت بطله العامة التي لا يُرجى منها غيرَ ذلك الانحطاط والتخلف .

---

[٢] – مروج الذهب للمسعودي ٦٦/٢ .

بحيث صار هذا وكراً تنطلق منه وفقهاؤها لمهاجمة المد الحضاري العقلاني المستنير والقضاء عليه .

وخلال تولِّي الخليفة الواثق بالله سنة٢٢٧هـ/٨٣٣م والذي استمرت فترة ولايته حتى سنة٢٣٢هـ/٨٤٢م زاد عدد الأتراك وقوة نفوذهم حتَّى صاروا قوة كبيرة لا يمكن لأحدٍ من الخلفاء أو الخلافة مجتمعةً صدُّها، بل أنَّهم صاروا قادرين على تولية الخليفة وعزله وحتَّى قتله بمجرد خروجه عن ميولهم وأهوائهم .

فبعد وفاة الخليفة الواثق – رحمه الله – أقدموا على تنصيب المتوكِّل خليفة له وبكلِّ سهولة ويسر ليتربَّع على عرش الخلافة سنة٢٣٢هـ/٨٤٧م والذي استمرت ولايته إلى سنة٢٤٧هـ/٨٦١م .

ولقصر نظر العامة وفقهائها كانت راضية كلَّ الرضا على هذا التحول الذي بات بموجبه التيار العقلاني والأفكار المستنيرة محضورة وصار أنصاره مضطهدين لِما في هذا من إفساح للطريق أمامهم – فيما يعتقدون – ولكنَّهم سرعان ما اصطدموا بجدار الحقيقة المفزعة والتي جعلتهم يفيقون على رنين ناقوس خطر هو أشدُّ وأنكى من التيار العقلاني عليهم، بحيث اكتشفوا استئثار الجند الأتراك بخيرات الدولة المادية بعدما احكموا قبضتهم الحديدية على سلطتها .

بينما وجد العامة أنفسهم ينعمون في وهم فرحتهم ونشوتهم بزوال سلطة المعتزلة واندثار فكرهم العقلاني، أمَّا الحقيقة فتقول بأنَّهم في ورطةٍ لا خروجَ لهم منها .

كما استيقظوا من حلمهم بالتشفِّي في خصومهم من أهل التيار العقلاني الذين باتوا رهن المنافي وغيابات السجون ليصحوا على حقيقةٍ مرَّةٍ مفادها أنهم هم أنفسهم صاروا يتجرَّعون غُصْغُصَ الحرمان بعدما سيطر الأتراك على كلِّ شيء وصاروا ومعهم أنصار التيار العقلاني خارج اللعبة بينما انفرد الغرباء من الجند الأتراك بالاستحواذ على الدولة ومكتسباتها .

فإذن لابدَّ من القول هنا بأنَّ المعتزلة والعلويين من أصحاب العقلنة والاستنارة قد صاروا منذ وصول المتوكل إلى الخلافة مضطهدين، حيث أصبح قادتهم بين سجين في غيابات الزنازن وبين آخرين قد سُلبوا سلطتهم وحقوقهم " وأصاب كثيراً منهم

المتميز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية "[1] زد على ذلك أنَّهم حرَّموا فكر المعتزلة وجرَّموه فأصدروا مراسيم وفرامانات تشبه كثيراً قرارات المجامع الكنسية الكهنوتية الغريبة عن روح الإسلام[2] .

وكلُّ هذا بسبب سيطرة أولئك الغرباء على الخلافة العباسية آنذاك وصاروا يمثلون قياداتها إذ قد يكفيك إدراك المدى الذي بلغته سطوة هؤلاء الأجانب على الدولة ويتضح لك جلياً كيف هيمن الغرباء على شؤونها معرفة أسماء هؤلاء من كانوا يمثلون قيادات الدولة إذ نذكر منهم من مثل: ياجور، بغا، ياجوخ، طاتستمر، كنجوز، أغرتمش، وغيرهم من الأسماء التي لا تمت للعرب ولا العربية بصلة ولا تقترب منها بحال .

ولم يكتفِ هؤلاء من القادة الأتراك المماليك باستحواذهم على ثروات الدولة ومقدراتها وحرمان العامة منها، بل زاد طمعهم وأنانيتهم وجشعهم لدرجة أنَّهم استأثروا – في بعض الأحايين – بهذه الثروة ومقدرات الدولة وأملاكها دون عامة الجند والمماليك أنفسهم .

والواقع، فإنَّ سيطرة الجند الأتراك وسطوة قادتهم تصاعدت وتفاقمت حتى بلغت الذروة ووصلت إلى اعتى مراحلها حتى بلغ بهم الأمر قتل الخليفة المتوكل في ٣شوال سنة٢٤٧هـ/١٠ديسمبر سنة٨٦١م، مِمَّا يشعرنا بأنَّه لم يعُد هناك شيٌ مستحيلٌ في الدولة على هؤلاء الغُرب حتى أنَّهم وصلوا بطغيانهم حدَّ قتل الخلفاء وتصفيتهم، وتنصيب مَنْ يرضون عنه، حتى صار الأمر لعبة في أيديهم يعزلون ويولون ويسجنون ويعتقلون مَنْ يغضبون عليه حتَّى وإن كان الخليفة .

ولعلَّ مصرع الخليفة المتوكل في مؤامرة كاد له فيها الأتراك سنة ٢٤٧هـ٨٦١م كانت نقطة تحول مفصلية في تاريخ الدولة العباسية إذ بهذا الحدث الجلل أخذت تنحدر تجاه التدهور ثمَّ الانحلال فالاضمحلال، فبهذا القتل والاغتيال الذي لم يتوقف هؤلاء

---

[1]– فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار بن أحمد ص٣٠٢، ٣٠٣، ٣٦٧ والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي ت (٨٤٥هـ/١٤٤١م) (د/ط) (دار التحرير/القاهرة – مصر) (د/ت)، ٢٧١/٣ .

[2]– تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو زيد(د/ط) (بيروت/لبنان) سنة١٩٦٧م، ص٣٨١ – ٣٨٣ .

الأتراك عنده بطبيعة الحال، بل أنَّهم أقدموا على تنصيب من جاء بعده من الخلفاء ممن يتمشون مع أهدافهم ورغباتهم وأخذ هؤلاء القواد – وهم جميعاً ليسوا من العرب – يمارسون سلطانهم بشكلٍ مطلقٍ على الجنود بحيث يوجهونهم تجاه ما يخدم مصالحهم الخاصة التي لابدَّ من أنْ تكون عبئاً على مصلحة الدولة العباسية، بل مُضِرَّةٌ بها ولا تتفق معها بحال، والسبب ظاهر للعيان ولا شكَّ في أنَّ هذا الوضع قد فتح الباب على مصرعيه للفوضى لأنْ تسري في أمصار الخلافة حتَّى بدأ بعضها في التمرد على الدولة بحيث ظهر مغامرون جدد لا يكلِّفون أنفسهم مسألة الاعتراف بسيادة الدولة عليهم، بل أعلنوا العصيان والتمرد عليها .

وازداد هذا الوضع المتردِّي تفاقماً حتى قامت حركات انفصالية قادها في بعض المناطق العلويون أو مَنْ ادَّعوا النسب العلوي، ولا غرابة في أنَّهم نالوا الحظوة والرضا من العامة بحيث التفَّ حولهم كثيرٌ من المناصرين والأتباع بسبب ذلك الجحيم المستعر من الفوضى والبلبلة بحيث عمَّ الاضطراب أمصار الخلافة ومحيطها حتى باتت ضعيفة منهكة لا تكاد تقدر على ردع هؤلاء ولا الوقوف ذوداً على شرفها وسيادتها .

ولعلَّ هذا الضعف والوهن اللذيْن سيطرا على الدولة العباسية قد شجعا أولئك المغامرين الطموحين ذوي الأطماع على قيادة حركات وثورات تطالب بالانفصال عن الدولة؛ وبالفعل قد ظهرت دويلات استقلت وصارت لا تخضع لسلطة الخلافة لا من قريب ولا من بعيد، ولم يقف هؤلاء الثوار عند هذا الحد، بل أقدموا على قطع جباية الأموال وعدم دفع الجزية للخليفة، وإعلان العصيان على الدولة والتمرد على الخلافة وضرب عرض الحائط بكافة الأعراف والنواميس المتَّبعة عند المجتمع آنذاك أضف إلى ذلك أنَّ أسماءهم صارت تذكر في خطب الجمعة في أحايين كثيرة[١] .

ويستمرُّ المسلسل الذي تعيشه الدولة العباسية والمتمثِّل في تعيين الخلفاء وعزلهم وحتَّى تعذيبهم وقتل بعضهم – كما رأينا وسنرى بعونه تعالى – والبطل في كلِّ هذه الأحوال أولئك الترك الغُرب عن الدولة العباسية وخلافتها، فبعد أنْ تخلَّصوا من الخليفة المتوكِّل في شوال سنة٢٤٧هـ/١٠ديسمبر سنة٨٦١م بقتله، وُلِّي الخلافة وعلا

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٥/٧ ومروج الذهب للمسعودي ٣٨٩/٢ .

سدَّة الدولة العباسية الخليفة المنتصر بالله محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد ٢٤٧هـ -٢٤٨هـ/٨٦١م-٨٦٢م الذي كان شاباً يافعاً في مقتبل العمر وهو في الخامسة والعشرين من عمره يحدوه الأمل في استعادة أمجاد الدولة العباسية وهيبتها، وكان شديد الطموح في العودة بالدولة إلى رشدها وازدهارها .

ولعلَّ في قول المسعودي ما يسمح لنا بتكوين فكرة وافية على سيرة هذا الخليفة وأخلاقه الرفيعة العالية، وذلك عندما غدى يقول:-" ... فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغباً في الخير، سخياً أديباً عفيفاً، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الإنصاف، وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله "[٢]، ولكي يحقِّق الخليفة المنتصر أهدافه وطموحاته هذه كان لزاماً عليه عملٌ ضخمٌ وجهدٌ كبيرٌ أقلُّه استرداد سلطة الدولة الضائعة لنفسه وإليها وذلك بانتزاعها من بين قبضة أيدي القادة العسكر الأتراك؛ وللوصول إلى هذه الغاية التي تُعدُّ – في الواقع – حلماً صعب المنال لا مناص له من الاستناد إلى قوة بديلة تدعمه وتعينه على ردع هذه القوى الغاشمة الهدَّامة داخل الدولة .

ولذا كان عليه إتباع سياسة ذكيَّة ودقيقة، وهو ما لجأ إليه وفعله بإتباع سياسة أملت عليه اتِّخاذ خطوات مهمة أولها إرضاء العلويين الذين اضطهدوا في كلِّ الحقبة الماضية بدءاً من سيطرة الأتراك على السلطة في الدولة .

ثُمَّ إعلان الأمان في الرعية عامة وإصلاح ذات البين بين الدولة وخصومها من كلِّ الطوائف والفرق .

أمَّا بشأن العلويين، فقد أخذ بأيديهم ورفع عنهم كلَّ ما يقاسونه من ظلم وعسفٍ وجورٍ، إذ أنَّهم كانوا في ظلِّ مَنْ سبقوه من خلفاء في هذه الحقبة المظلمة من تاريخ الدولة العباسية يعيشون محنة حقيقية خصوصاً في عهد الخليفة المتوكِّل .

فبعدما كانت زيارة قبر الحسين وغيرها من شعائر العلويين أمراً محرماً صارت بخلاف ذلك أمراً مشروعاً وحقاً محفوظاً للشيعة العلوية، كما أعاد أوقاف آل علي بن أبي طالب إلى أصحابها بعدما انتزعت منهم .

---

[٢]- مروج الذهب للمسعودي ٤٢٦/٢ .

وبهذا علا شأن المنتصر وارتفعت مكانته عندهم، فصار موضعاً للتقدير والاحترام حتى أصبحت تُقال في شأنه المدائح الشيعية العلوية بعدما كانوا بالأمس القريب أعداء لدودين خصوصاً للدولة ثائرين عليها، وقد نظم شعراؤهم قصائد طِوال في حقِّه يمدحونه فيها ويثنون عليه وعلى ما بذله للشيعة من أفضال ليس ها هنا موضعها .

أمّا إعلانه الأمان في الناس فكان حقيقياً بحيث ساد الأمن والاطمئنان بين الرعية، فلم يعد يكدر صفوهم هلعٌ أو خوفٌ من سطوة الدولة وعسكرها، وليس هذا فحسب، بل أنه كثيراً ما كان يعفو عمَّن يتجرَّؤن على الدولة ويحيكون للخلافة الدسائس .

ولا أدلَّ على ذلك من عفوه عن قائد الخوارج الذين انتصر عليهم جيشه عندما ثاروا على الدولة وحاربوا جيش الخلافة فسيطروا على اليمن والبوازيج والموصل، فعندما قبضوا على قائد الخوارج ويدعى أبو العمود الشاعري جاءوا به إليه أسيراً فعفا عليه وأخلى سبيله بعدما أخذ عليه العهد .

متمثِّلاً في ذلك المبدأ الذي يقول:-" إنَّ لذة العفو أعذب من لذة التشفِّي، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام " .

وبهذا، فإنَّ المتتبع لأحوال هذا الخليفة يجده قد تميَّز عن غيره من خلفاء هذه الحقبة المظلمة من تاريخ بني العباس بسيرة العدل والإنصاف في الرعية وعامتهم حتَّى طاب له زمانه وزمانها، وبذا استطاع تحقيق كثيرٍ من الأهداف التي رسمها لخلافته، وإحراز قدرٍ كبير من طموحاته، حتَّى قيل في حقِّه:-" أظهر الإنصاف في الرعية، فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة، مع شدَّة الهيبة منها له "[(١)] .

وبعدما وصل الخليفة المنتصر إلى ما وصل إليه من تحقيقٍ للسلام والتفاهم بين الدولة وخصومها، محاولاً بهذا إصلاح ذلك الخطأ الفادح الذي وقع فيه الخليفة المعتصم(٢١٨هـ/٨٣٣م - ٢٢٧هـ/٨٤٢م) بتقريبه للأتراك وإطلاق أيديهم في الدولة، الأمر الذي أكسبه قوةً لا بأس بها حاول بموجبها ردع الأتراك المماليك الجاثمين على جسد الدولة ويسيطرون على مقدَّراتها، فالتفت إليهم في أوَّل خطواته تجاه التخلص منهم وذلك بتكليفه لـ(وصيف) وهو أحد اثنين مِمَّا تركزت القوة والسلطة بأيديهما بالقيام على رأس جيشٍ كبيرٍ بالتوجه إلى قتال الروم محاولاً إبعاد

---

(١)- مروج الذهب للمسعودي ٤٢٦/٢ - ٤٢٧ .

الجند وقادتهم من الأتراك لإفساح المجال له ولأنصاره لقيادة دفَّة الخلافة من بعدهم؛ وقد صرَّح بخطته للتخلص من هؤلاء لبعض خاصته من مثل الفضل بن المأمون، عندما قال له:-" قتلني الله إنْ لم أقتلهم وأفرِّق جمعهم "[٢]، ونعتهم بقتلة الخلفاء، عندما قال عنهم:-" ... هؤلاء قتلة الخلفاء "[٣] .

هكذا كان المنتصر يضمر كلَّ شرٍ لهؤلاء الأتراك بالتخلص منهم إلاَّ أنَّهم كانوا أسرع منه إلى ذلك الذي يضمره لهم " فلما نظرت الأتراك إلى ما يُفعل بهم، وما قد عُزم عليه، وجدوا منه الفرصة بأن أوعزوا إلى طبيبه الذي يدعى الطيفوري، فقتله عندما أستخدم مشرطاً مسموماً في إجراء حِجامة له فأرداه قتيلاً شأنه في ذلك شأن سابقه الخليفة المتوكِّل في ربيع الأخر سنة٢٤٨هـ، بعد خلافة لم تتجاوز أشهر معدودة قوامها ستة أشهر[٤] .

وبعد التخلص من الخليفة المنتصر على نحو ما رأينا آنفاً كان لِزاماً على الأتراك تنصيب خليفة غيره مطيعٍ لأوامرهم لا يخرج عن طوعهم بحال؛ وكان لهم ذلك إذ نصَّبوا فيما بعد المستعين بالله أحمد بن محمد بن محمد بن هارون الرشيد سنة ٢٤٨هـ . ٢٥٢هـ/٨٦٢م . ٨٦٦م الذي كان ضعيفاً فاقداً لهيبة الخلفاء مستكيناً مستسلماً لأوامرهم لا يكاد يُرفع له صوتٌ أمام قادة الأتراك، لا يقدر على شيء سوى تنفيذ ما يشيرون به عليه، وليس هذا فحسب، بل أنَّهم تمكَّنوا من استرداد ما فقدوا من سلطة وصلاحيات إبَّان خلافة المنتصر الذي تخلصوا منه بقتله .

وبهذا الوضع وتحت راية هذا الخليفة الضعيف المستسلم استطاع قوَّاد الأتراك تنفيذ كلِّ مآربهم، فلم يتردَّدوا في مدِّ أيديهم إلى كلِّ من كانت له صلة بالخليفة المنتصر الذي سبقت فترة ولايته ولاية المستعين، فأعملوا السجن والنفي وحتَّى القتل في حاشية الخليفة السابق بحيث نُفيَ وزيره أحمد بن الخطيب إلى (كريت) كما نُفيَ عبيد الله بن يحي بن خاقان إلى برقة[١]، أمَّا الباقون من حاشية الخليفة المنتصر فقد اعتقلوا

---

[٢]- المصدر نفسه ٤٢٦/٢ .

[٣]- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٢٥٢/٩ .

[٤]- مروج الذهب للمسعودي ٢٢٦/٢ .

[١]- مروج الذهب للمسعودي ٤٣٣/٢ .

ببغداد، وكان من بينهم (علي بن محمد) الذي كان الساعد الأيمن للخليفة المنتصر في تخليص الخلافة من طغيان الأتراك واستبدادهم، وكان سنداً له لنشر العدل وتبديد الظلام الحالك الذي ساد الدولة العباسية بسبب تصرفات القادة الأتراك في الخلافة العباسية، والذين كبرت مظالمهم وكثرت، ولم يكتوِ بنيران استبدادهم وطغيانهم العامة فحسب، بل كانت وطأة ذلك على الخلفاء أشد وأنكى، فلم يتوقف نهمهم وطمعهم في الخلافة عند هذا الحد، بل لم يكتفوا بما يبديه الخلفاء الضعفاء من أمثال المستعين من خضوع وطاعة وامتثالٍ لأوامرهم، بل أقدموا على خلعه وقتله؛ واستمرُّوا في مسلسل تنصيب الخلفاء وخلعهم وربما قتلهم الخليفة تلو الخليفة على نحو ما رأينا وما سنرى بعونه تعالى .

وفي الواقع لا يخفى على الباحث المتتبع لأحوال الخلافة العباسية ودولة بني العباس في هذه الحقبة المظلمة من تاريخها – إن صحَّ التعبير – أنَّ اعتقال محمد بن علي في بغداد على أيدي قادة الأتراك مع جماعة كانت تمثِّل حاشية الخلافة المنتصر بالله، لا بدَّ من أنْ يكون هذا الحدث ذا بالٍ، بل هو إمساكٌ بطرف الخيط الرفيع آن ذاك، والذي يقودنا إلى تلمُّس بدايات الفكر الثوري لدى علي بن محمد الذي أصبح فيما بعد زعيماً[٢] لحركةٍ هزَّت أركان الدولة العباسية وكادت أن تُجهز على سلطانها على نحو ما سنرى بعونه تعالى فيما سيأتي من هذا البحث .

ولعلَّ علياً بن محمد قد أفصح على ما يدور في خلجاته وكوامن صدره، وصرَّح بما يدور في مكنونه من مشاعر تجاه ما يجري من أحداث كلِّها تعصف بالدولة ومقدراتها، بحيث كان مكتوماً بلوعةٍ وحسرةٍ على تلك القصور التي سيطر عليها الغُرب وجابوا نواحيها، وقد أودع هذه الحسرة واللوعة في شعره ذلك المبثوث هنا وهناك في حنايا كتب التاريخ، كما تُرجم هذا كلُّه في سلوك وتصرُّفات تراكمت في ضميره فأعلنها ثورة!

وبهذه الثورة الواعدة يعد باقتحام تلك الساحات التي سيطر عليها هؤلاء الأتراك الذين جاهروا بالمعاصي وكانوا حريصين على ارتكابها جهاراً نهاراً .

---

[٢]– العبر لابن خلدون ١٩/٤ .

وعودٌ على بدءٍ، فلم تدُمْ فترة خلافة المستعين طويلاً بحيث لم يكن ليرتقي لمستوى تحقيق أطماع الأتراك وطموحاتهم، فلم يكتفوا بما قدَّمه المستعين ذلك الخليفة المسكين من خضوعٍ واستكانة وتنفيذٍ للأوامر، فقرَّروا التخلص منه، فخلعوه، وليس هذا فحسب، بل أقدموا على قتله وقد أفشوا بذلك الرعب والهلع بين الناس والرعية في سنة٢٥٢هـ/٨٦٦م .

وهكذا يستمرُّ عبث الأتراك وهيمنتهم في هذه الدولة التي – فيما يبدو – أنَّ القدر قد خطَّ عليها المصير المظلم فتبقى في انتظار مَنْ يشعرها بوجود الأمل المفقود في انتشالها من هذا الوضع المتردِّي المقيت .

ودواليك بعد المستعين نُصِّب الخلافة خليفةٌ أخر يُدعى المعتز بالله، الزبير بن جعفر المتوكِّل ٢٥٢ – ٢٥٥هـ/٨٦٦ – ٨٦٩م الذي لم يكن بأحسن حالٍ مِمَّا سبقه؛ لأنَّ الظروف لم تكن قد تغيَّرت حتَّى يتغيَّرُ حاله ويمسك بزمام الأمور، فكلُّ شيءٍ باقٍ على حاله، بل زادت هيمنة الأتراك وتمسَّكُهم بالسلطة لشعورهم بالخطر من حولهم، فثقلت وطأتهم وتشبثوا بمراكزهم بحيث ظلوا جاثمين على عرش الدولة يولون ويعزلون كما يحلوا لهم ويتصرفون في مقدَّرات الدولة وممتلكاتها كما يشاؤن، كما أنَّ الحال هو الحال بالنسبة لمن جاء ليتولَّى منصب الخليفة على أيدي هؤلاء المستبدين .

فكذلك سيظلُّ المصير هو المصير الذي لقاه مَنْ سبقه؛ لذا كان مصيره تماماً مثل مصير المستعين إذ زجُّوا به في غيابات السجن بعدما خلعوه، ومن ثَمَّ قُتِلَ في سجنه الذي لم يَطُلْ أكثر من ستة أيام، سنة٢٥٥هـ/٨٦٩م[1]، الذي عُذِّب فيه بعدما عزلوه بمجرد أنْ تأخرت رواتب الجند بسبب إفلاسه الذي اضطره إلى أنْ يقطع رواتبهم .

والواقع، فإنَّ هذا الإفلاس كان بسببٍ يعود إلى نهب أموال الدولة من قبل القادة الأتراك، وليس هم وحدهم، بل أنَّ الأمر أدهى عندما نعرف أنَّ بعض النساء هنَّ الأخريات قد شاركنَ في ذلك حتَّى جمعنَ ثروةً طائلةً نتيجةً لمشاركتهنَّ الأتراك في انتهاب خزينة الدولة، وهذا تماماً ما نجده عند أم الخليفة المستعين وكذلك أم الخليفة

---

[1]– مروج الذهب للمسعودي ٤/٤٥٧ .

المعتز، وهذا ما يفسّر إفلاس بعض الخلفاء وعجزهم عن دفع أرزاق الجند الأتراك؛ لذا ذهب بعضٌ من الخلفاء ضحيةً لذلك على نحو ما مرَّ بنا آنفاً[٢] .

وبهذا يزداد خطر هؤلاء استفحالاً، كما يزداد الموقف تأزماً بحيث لم يعد أمر امتلاكهم لزمام الأمور في الخلافة والدولة سراً مباحاً، بل صار واقعاً ظاهراً جلياً لا يخفى على أحد .

وليزداد الأمر سوءاً ويطفح الكيل لم يتوقَّف هؤلاء عن ممارساتهم المشينة، ولم يراعوا في أمر الخلافة والمسلمين إلاًّ ولا ذمَّة، فاستحلُّوا حرماتها، واستمرُّوا في تنصيب الخلفاء وخلعهم والانتقام منهم بسجنهم وربما تعذيبهم وقتلهم إذ أنَّهم – فيما يبدو – في عجلةٍ من أمرهم، فلا يمهلون ضحاياهم من الخلفاء كثيراً من الزمن سواء أكان ذلك الزمن لفترة خلافتهم أو حتَّى في سجنهم، بحيث سرعان ما يعزلونهم ويزجون بهم في السجون وسرعان ما يضعونهم في المقصلة، وهكذا دواليك!!

هذا أحد الضحايا – فعلى الأدق تسمية الخليفة هنا الذي يُنصَّب في هذه الحقبة ضحية – على اعتبار ما سيؤل إليه مصيره الأكيد ؛ لأنَّه أقرب إلى هذا اللقب من لقب الخليفة .

وهو المهتدى بالله الذي اعتلى عرش الخلافة العباسية في سنة٢٥٥هـ/٨٦٩م الذي لم يطلْ به المكث متربعاً عليه؛ لأنَّه أمام أناس طغاة قبضوا على السلطة والسلطان بيد من حديد، فكان الخليفة المهتدي أسيراً لاستبدادهم ورهينةً لأفكارهم وحجر السلطة عليه بمجرد محاولته السير في الناس بالعدل وتغيير الواقع المر طمعاً منه في تحقيق الأمن والسلام والمساواة بين الرعايا إلاَّ أنَّه جُوبه بالعنت والرفض على يد قادة الجند الأتراك، فحذَّروه[١] أولاً من المضي في هذه الطريق الذي يعدُّ في ظلهم شائكاً ومستحيلاً؛ لأنَّ العدل والمساواة لا يتفقان مع رغباتهم ولا مصالحهم؛ لذا هم لا يرغبون في مَنْ يسعى لتحقيقهما .

ومن ثَمَّ أخذ هؤلاء يبيتون الشرِّ ويدسون الدسائس للخليفة المهتدي، ولقد حاول كثيرون مساندة الخليفة المهتدى ومناصرته بالوقوف في وجه قادة الجند الأتراك،

---

[٢]– تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٤٦ .

[١]– مروج الذهب للمسعودي ٤٦٦/٢ .

ومنهم بعض الجند الذين حرموا من العطاءات والمنح التي استأثر بها بعض قادتهم فصارت حكراً عليهم؛ فحاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدي ضد هؤلاء الذين تحركوا لنسف جهود العامة في الدفاع عن خليفتهم، كما سيطروا على حركة الجند؛ ومن ثَمَّ قتلوا الخليفة المهتدى بعد تعذيبه سنة٢٥٦هـ/٨٧٠م فترة خلافته التي لم تدم أكثر من أحد عشر شهراً[٢] .

لقد تعرَّفنا من خلال العجالة الفائتة إلى الوضع السياسي البائس المتردي الذي كانت تعيشه الدولة العباسية، وتلك البلبلة والفوضى التي تكابدها الخلافة العباسية بسبب كونها ترزح تحت سيطرة الأعاجم الأتراك الذين لم يوفِّروا جهداً لتخريب الدولة وتحطيم آمال الناس وطموحاتهم في الأمن والاستقرار والعيش بسلام .

ولعلَّ من صواب القول القول بأنَّ الخلافة العباسية لم تقاسِ التردِّي السياسي فحسب، بل أنَّها كانت تعيش – جراء ذلك – ظروفاً اجتماعيةً واقتصادية خطيرة تبعث عن التململ وتدفع للخروج عن سيطرة الدولة دفعاً .

فعند النظر إلى المجتمع في تلك الحقبة نظرة متأنية متفحصة نجده لا يعدو أنْ يكون خليطاً عجيناً من مختلف الأجناس والملل، فتتكون منها طبقاته التي تتباين فيما بينها، وتتمايز في توجهاتها وأمزجتها؛ الأمر الذي يذكي روح الصراعات والتطاحن فيما بينها بحيث تنزع كلٌّ منها إلى تحقيق مآربها والوصول إلى مصالحها دون النظر إلى سواها من الأجناس والطبقات التي تكوِّن نسيج المجتمع؛ لذا لا مناصَ من ظهور الأحقاد والضغائن التي تستعر نارُها بين تلك الطبقات .

ولعلَّ هذه التركيبة الاجتماعية القائمة على أساس النظام الطبقي المتباين ويسودها التباين الذي تفرضه طبيعة الأجناس المكونة للمجتمع آنذاك، لها الأثر الفعَّال في قيام الحركات ضد الخلافة والدولة العباسية[١]، ويبررها في كلِّ حينٍ تحسين مستوى معيشة هذه الطبقات وتحقيق الرخاء والعدالة والمساواة .

وحتَّى العرب أنفسهم آنذاك لم يعودوا كما كانوا أهل جدٍّ وكفاح وأصحاب مبادئ يتقدمها انخراطهم في الجيش الإسلامي والتفرغ للجهاد والفتوحات ؛ فدخلوا معترك

---

[٢]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٤٤٣/٩ – ٤٤٦ .

[١]– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسين، ٦٠٩/٣.

الحياة العامة خصوصاً في عهد الخليفة المعتصم الذي قرَّب الأتراك إليه وفضلهم عن العرب حتَّى صاروا أكثر اختلاطاً بالعناصر والأجناس الموجودة معهم من الأعاجم وغيرهم وامتزج العرب بهم حتى صاروا يمثلون الأقلية في من حولهم، وتدنت قيمتهم بسبب الأعمال التي يزاولونها بعدما تخلُّوا عن أصل رسالتهم ورضوا بحياة الراحة والقعود وابتعدوا عن كونهم مقاتلين في الجيوش الإسلامية وسادة في دولتهم!

وفي الحقيقة إنَّ ما أقدم عليه بعض الخلفاء من بني العباس في العصر الثاني العباسي من سياسة تقريب الأجانب الأتراك ورفع مكانتهم في سُلَّم الدولة كان خطأً فادحاً أضرَّ كثيراً ليس بالعرب فحسب، بل حتَّى بالفرس الذين كانوا قد لعبوا دوراً كبيراً في بعض مراحل التاريخ الإسلامي، هذا علاوةً عن الدولة التي كان إيذاؤها لا يقلُّ وطأة مِمَّا قاساه العامة من العرب والفرس، وفي تقديري، فإنَّ الدولة قد عالجت الخطأ بالخطأ عندما حاولت إبعاد خطر ذلك السيف المسلط على رِقاب خلفائها وخلافتها، وذلك باللجوء إلى سياسة جديدة مشابهة لسياسة الخليفة المعتصم التي عرفناها فيما سبق، تصوَّر أصحابها أنَّ خلاصاً أكيداً فيها من خطورة هؤلاء الأتراك، وذلك بالاستعانة بقوى أخرى غريبة هي الأخرى ومتنوعة ومتباينة الأعراق والأفكار كالفراغنة والأكراد وغيرهم الذين ضمُّوا إلى العسكر كمرتزقة[١] .

وهذا بطبيعة الحال فيه ما فيه من خطرٍ بالغٍ على النظام الاجتماعي بحيث زاد هذا من اختلاط المجتمع وتلونه بما يعود عليه بالإيذاء والتصدع!

وبذا صارت العامة في بغداد متنوعة الأجناس، فمنهم الأتراك والفرس والديالمة والروم والأرمن والفراغنة والنبط والكرج والأكراد والبربر والسلان والزنج، أضف إلى ذلك تلك الجالية اليهودية الكبيرة التي سكنت المدن الكبيرة واشتغل أفرادها بأعمالهم الحرة وخاصة التجارة[٢]، هؤلاء كلُّهم إضافةً إلى أهل البلد الأصليين وهم العرب

---

[١]– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسين ٦٠٩/٣ .

[٢]– تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري للدكتور عبد العزيز الدوري (د/ط) (د/ن) (بغداد/العراق) سنة١٩٨٤م، ص٢٠ .

الذين يتواصل معهم كافة تلك الأجناس الوافدة عن طريق اللغة العربية التي تربط بينهم[٣] جميعاً .

والواقع، فإنَّ كلَّ جنسٍ من هذه الأجناس محكومٌ بأفكارٍ وعادات وتوجهاته الفكرية التي تخصَّه وتميزه عن غيره؛ وبنظرة سريعة لتلك الأجناس نلحظ ذلك واضحاً جلياً، فالنبط مثلاً كانوا يعدُّون عامة الفلاحين في منطقة البطيحة جنوبي العراق[٤]، أمَّا الديالمة فقد ازداد نفوذهم وكونوا عنصراً يتَّسم بالقوة العسكرية الهامَّة بمجيء البويهيين[٥] .

أمَّا الرقيق فقد كوَّنوا طبقة هامة لعبت دورها الهام في المجتمع وفي الحياة بصورة عامة، وتعدَّدت أجناسهم هم كذلك، وكثروا لكثرة المصادر التي يُتحصَّل منها عليهم، وتعدَّدها؛ فمنها الأسر ويعدُّ المصدر الرئيس، أضف إلى ذلك الخراج والجزية، حيث كان بعض أهل الكتاب يقدِّمون الرقيق من أولادهم على سبيل الجزية، كما كان بعض العمال خصوصاً في أفريقيا وتركستان ومصر يؤدُّون خراجهم من الرقيق[١]، فكان منهم الرقيق الأبيض وأكثرهم من الروم الذين انتشروا في القصور حتَّى أنَّ أمهات بعض الخلفاء كالمنتصر والمعتز والمعتمد كُنَّ روميات أصلهنَّ خادمات[٢] .

أمَّا الرقيق السود، فكان مصدرهم – في الغالب – سواحل أفريقيا الشرقية يُجلبون أصلاً للعمل في الزراعة والدور[٣]، أضف إلى ذلك ما يقع في أيدي المسلمين منهم كغنائم حرب[٤] .

---

(٣)– تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٠٢ – ١٩٠٦ميلادية، ٤٥/٥ .

(٤)– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي ت(٣٤٦هـ/٩٥٦م) (د/ط) (د/ن) (ليدن) سنة١٩٠٦م، ص١٦٨ .

(٥)– تجارب الأمم وعاقب الهمم لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ت(٤٢١هـ) (د/ط) (ليدن) سنة١٩٠٩م – ١٩١٧م، ٤١/٢ .

(١)– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي ت (٨٤٥هـ/١٤٤١م) (د/ط) (بولاق/مصر)سنة١٢٧٠هـ، ٣١٣/١ .

(٢)– ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين (ط/١٠) (دار الكتاب العربي/بيروت – لبنان) (د/ن) (د/ت) ٦٤/١ .

(٣)– تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسين ٦١١/٣ .

ولعلَّ في الكثرة الهائلة في عدد هؤلاء العبيد البيض والسود منهم فيه ما فيه من خطرٍ على الخلافة والدولة العباسية، الأمر الذي بدأ واضحاً عند الرقيق الأبيض وما فعلوه في الدولة ومرافقها، وانتهى الأمر إلى الرقيق الأسود الذين كادوا أنْ يجهزوا على خلافة بني العباس ويقوّضوا أركان الدولة العباسية بتلك الثورة العارمة التي شكَّلت موضوعاً لهذا البحث .

والحقيقة، فإنَّ هذه الفسيفساء التي كونت المجتمع على الأقل في بغداد لم تكن على وِفاقٍ فيما بينها، بل تصادمت طبقاتها وطوائفها، وتعارضت حتى وصلت إلى حدٍّ كبيرٍ من السوء والتردي على نحوٍ لم يرَ المتفائل المغالي أيَّ بصيصٍ من النور في الأفق آتٍ رغم محاولات[٥] العقلاء والحكماء، آن ذاك تقريب وجهات النظر وجمع كلمة الفرقاء وسلامة صدورهم من الأحقاد والضغائن .

ولعلَّ هذا أمرٌ معروف سلفاً، فالهوَّة بين الفرقاء سحيقة من جميع النواحي، منها الاختلاف في اللغة والثقافة، والأصل والجنس واللون، كما افترقوا في المذاهب والتيارات والتوجهات وغيرها من الأمور التي لا يمكن لأحدٍ التغاضي عنها .

أمَّا الوضع الاقتصادي السائد آنذاك، فحدِّث ولا حرج – كما يقولون – ولعلَّ تكوين فكرة ولو بسيطة عن الوضع الاقتصادي السائد في حينها يفيدنا كثيراً في الكشف عن الدوافع والأسباب التي كانت وراء تلك الثورات الكثيرة ومن بينها ثورة الزنج .

فنظام الضرائب المجحف القاسي كان من أسوأ سمات الدولة في تلك الحقبة مِمَّا أدَّى إلى حياة خانقة وضنكاً لا يقلع عن أصحابه من عامة الطبقات، ويزداد الأمر سوءًا وفداحةً عندما نعرض لنظام الري الفاسد وما فيه من تدهور مستوى المعيشة لطبقات المجتمع من فلاحين وغيرهم، كما عجز صِغار الملاك عن إدارة أراضيهم وتعميرها، فلم يجدوا بدّاً من بيعها لأصحاب رؤوس الأموال الذين كانوا يتحيَّنون تلك الفرص، والنتيجة أنَّ الفقراء يفقدون أراضيهم وأملاكهم مقابل ازدياد أملاك الأغنياء

---

[٤] – تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٤٧/٤ .

[٥]– رسائل الجاحظ (رسالة بعنوان مناقب الترك وعامة خبر الخليفة)، ص١٧ .

وتوسعها[1]، كما أنَّ نظام الطبقات هذا قد ساعد في حصر الثروة في يد أقلية واستحواذها على النفوذ والسلطان، فمن ذلك ما جرى في إقليم الديلم وخبرستان اللذيْن سيطر على مقدراتيهما جمعٌ قليلٌ من شيوخهما يدعون الكذخداهية[2]، وهذا بطبيعة الحال كان على حساب العامة الذين كانوا في معظمهم يتضورون جوعاً .

وإضافةً إلى الضرائب العالية المفروضة على الناس وحصر الثروة والنفوذ في أيدي أقلية من المجتمع ظهر إلى الوجود ما يسمَّى بالإقطاع والملكية الواسعة، والإقطاع بمعنى ما يقطعه السلطان من الأرض وأملاك الدولة لأحدهم وفي العادة يكون غنياً مقرَّباً وذا نفوذ وسلطان، فتصير هذه الأرض ملكاً له[3]، ولينظر أحدنا ويقدِّر إنْ استطاع مدى الظلم والجور الذي يمكن أنْ يلقاه الإنسان في ظلِّ هذه الظروف، وبذا لعلَّه يحاول عبثاً تخيُّل الحال الذي يعيشه ويقاسيه! وهذا الإقطاع ينقسم إلى نوعين: إقطاع التمليك والذي يمتلكه صاحبه ويورثه، وأخر لا يعدو أنْ
يكون استغلالاً للمقطوع والانتفاع به فحسب[1].

وقد يُمكِّن هذا النظام ذوي النفوذ والمقرَّبين من الحصول على أراضٍ واسعة وأملاك طائلة أولئك الذين جُدولوا للاستفادة من هذه المنحة من الأراضي التي ستؤهلهم ليكونوا مُلاَّكاً لها[2].

أمَّا النوع الثاني، فقد منح أصحاب القرار بموجبه مساحات شاسعة من الأراضي البور للأغنياء الذين قاموا باستغلالها وعمَّروها بسواعد العبيد الذين جلبوهم من مختلف بقاع الأرض، ومن أهمِّ هذه الأراضي تلك المحيطة بالبصرة[3] .

---

(1)– دراسات في العصور العباسية المتأخِّرة للدكتور عبد العزيز الدوري (د/ط) (بغداد/العراق) سنة١٩٤٦م، ص١٧ .

(2)– من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام لجوزي بندلي (د/ط) (مطبعة بيت المقدس) سنة١٢٢٨هـ، ص٨٥ .

(3)– مفاتيح العلوم لجمال الدين أبي بكر الخوارزمي (د/ط) (د/ن) (بغداد/العراق) (د/ت)، ص٤٠ .

(1) – الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت(٤٥٠هـ/١٠٥٧م) (د/ط) (القاهرة – مصر) سنة١٢٩٨هـ، ص١٨٩ .

(2)– تاريخ العراق الاقتصادي للدوري، ص٣٣ .

(3)– مسالك الممالك لأبي القاسم إبراهيم الاصطخري (القرن الرابع الهجري) (د/ط) (ليدن) سنة١٨٧٠ – ١٨٩٣م، ص٨٠ .

وكما عرفنا آنفاً أنَّ هذه الأراضي وتمليكها كان بيد الخليفة ووزرائه الذين يمنحونها لذوي السلطة والقرب من الخلافة، وعليه لاغرابة أنْ نجد أنَّ الخليفة وكبار مساعديه هم أكبر مالكي الأراضي، وذلك بسبب سلطانهم يضاف إليه أنَّ صغار الملاَّك كانوا – كما عرفنا آنفاً – يُلجِئون أملاكهم إلى هؤلاء لعدم قدرتهم على زراعتها[٤]، ومع إنفراد الخليفة والمسئولين في الدولة بالأملاك وموارد الدولة التي تحسنت وصار محصول الزراعة في ازدياد زاد معه تذمر الفلاَّحين لعدم حصولهم على حقوقهم بحيث لا يجد الباحث كثير عناء ليقفَ على المدى البعيد المتردِّي الذي وصل إليه حالهم، ومدى البؤس الذي يقاسيه الفلاَّح آنذاك خصوصاً عندما ندرك أنَّ العبء الأكبر من دخل الدولة يعتمد على ضرائب الأطيان[٥]، بالتالي فالإقطاعيون همهم الوحيد وشغلهم الشاغل هو الحصول على أكبر قدرٍ من المال بعد أنْ يؤدُّوا الضرائب إلى الدولة[٦]، ولم تكن القرية بأكثر حظَّاً من فلاَّحيها فهي الأخرى لم يصبْها شيءٌ من موارد البلاد سوى القليل[٧]بخلاف ما تتمتع
به المدن من موارد الدولة .

وهنا ثمَّةَ حقيقة لابدَّ من الإشارة إليها إذ بتأسيس الدولة العباسية وتربع بني العباس على عرش الدولة الإسلامية انبلج فجر مرحلة جديدة هامَّة كونت التاريخ الإسلامي اقتصاديا واجتماعيا بحيث حدث نوع من التقارب الكبير وفقاً لهذا التجديد بين طبقات الرعية عرباً وموالِيَ وسيطر الاقتصاد وقويَ نفوذه حتَّى صار هو العنصر الرئيس الذي انقسمت على أساسه الطبقات داخل المجتمع بدلاً من أن كانت تنقسم على أساس الجنس أو العنصرية والنسب[١]، وبهذه التركيبة الاقتصادية التي كان يحكمها الاقتصاد والمال تمَّ ظهور فقراء من كلِّ جنس، فلم يقتصر الغناء والفقر على جنس

---

[٤]– تاريخ العراق الاقتصادي للدوري، ص٣٣ .

[٥]– من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام لجوزي بندلي، ص١/٥٤ .

[٦]– تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز، ص٥٣ .

[٧]– تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ١/٢٧ .

[١]– أصول الإسماعيلية لبرنارد لوس ترجمة خليل جلو وجاسم محمد الرحب (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة١٩٤٧م، ص٩٧ .

معيّن، بل ظهر أغنياء من كلِّ الأجناس كما ظهر فقراء من جميعهم، وبالتالي أدى هذا إلى ظهور ثلاث طبقات: وإحداها غنية وأخرى متوسطة والثالثة فقيرة[٢].

كما تميَّزت هذه الحقبة من حكم العباسيين (العصر العباسي الثاني) بازدهار التجارة بحيث حازت أعلى المراتب على مستوى العالم آنذاك[٣] .

ولعلَّ ذلك يعود إلى موقع العراق الاستراتيجي، أضف على ذلك الترف الفاحش الذي كان يعيشه الأغنياء ببحثهم عن مظاهر الترف وحياة الرفاه لاسيما قصورهم التي كانت بحاجة ماسة لمواد ومرافق من شأنها تنشيط حركة التجارة والتجار وتعود عليهم بالأموال الطائلة وتزيد في رواج تجارتهم، وعلى نحو زاد من نمو ثرواتهم التي بلغت لدى بعضهم حدَّ اللامعقول آن ذاك بحيث صارت تُعدُّ بالملايين من الدينارات[٤]الذهبية مِمَّا شجعهم على استثمار الأموال الطائلة، فأقدموا على شراء الأراضي وامتلاك المساحات الشاسعة منها وأدَّى هذا إلى ازدياد عدد العبيد الذين يشتغلون في هذه الأراضي، ويمارسون حرفة الزراعة بها وصاروا لكثرتهم يشكِّلون شبه أكثرية، ويمثلون رقماً كبيراً في عدد سكان البلاد نسبة لباقي السكان،

وكانت أجورهم قليلة لا تكفي حاجياتهم[١]، فكانوا في حالة متردية[٢]يقاسون شظف الحياة وبؤسها وحرمانها جراء فقرهم المتقع وتسلط أرباب العمل عليهم واحتقارهم لهم، وزاد في تردِّي أحوالهم غلاء الأسعار بسبب مضاربة المضاربين الذين احتكروا البضائع والسلع من التجار[٣]الأثرياء ذوي الثروات الضخمة، فكانوا أمام ازدياد الأسعار وارتفاعها، وهذا كلُّه مقابل عدم زيادة أجورهم التي كانت بطبيعة الحال متدنية .

---

[٢]– المصدر نفسه، ص٩٧ .

[٣]– تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسين ٥١١/٣ .

[٤]– تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه ٣٥/١ .

[١]– دراسات في العصور العباسية المتأخرة للدكتور عبد العزيز الدوري (د/ط) (بغداد/العراق) سنة١٩٤٦م، ص٦٨ .

[٢]– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، ص١١٩ .

[٣]– تاريخ العراق الاقتصادي للدوري، ص٦٨ .

والواقع، فإنَّ هذا الوضع الاقتصادي المتردِّي بالنسبة للعامة بطبقاتها وعلى رأسهم الرقيق شكَّل عليهم جميعاً ضغطاً كبيراً تركهم في بؤسٍ وشقاء كبيرين أرغم كثيراً منهم على أنْ يتَّخذ الشحاذة مهنةً لهم فظهر عنصرٌ غريبٌ تكوَّن من الشطَّار الذين لا همَّ لهم سوى النهب والسلب، وكلُّ هذه جميعها مبعثها الوضع الاقتصادي القاسي الذي تقاسيه مجاميع الناس[٤] آنذاك!

ومن هنا يمكن لنا القول بأنَّ الأوضاع السيئة المتردية السياسية منها، والاجتماعية والاقتصادية، من غياب العدالة والمساواة، والتباين بين طبقات المجتمع السياسي منه، والاجتماعي والاقتصادي، وكثرة المحرومين مقابل أقلية تتمتع بخيرات الدولة بحيث صارت الهوَّة سحيقة بين الفقراء والأغنياء وكثُر الفسادُ والظلم، وصارت غالبية الرعية وعلى رأسهم العبيد مضطهدين يتململون تحت ظلم أسيادهم الذين انفردوا بمقدرات الدولة وأملاكها، وازداد الضغط وتفاقمت مشاكل الناس حتَّى علت أصواتهم تعبِّر عن ردِّ الفعل على الأوضاع السائدة[٥].

وبالفعل شهدت الدولة العباسية حركات وثورات كثيرة حتَّى أُطلق على هذا العصر عصر حضانة الثورات[٦]، وكادت هذه أنْ تقيِّض أركانها، وتؤدي بسلطانها؛ منها حركة القرامطة التي قام أنصارها بشن غارات من مقراتها بالبحرين متتابعة لا تخلو من الجرأة على حرمة المقدسات فأفزعت الخلافة الفاطمية في القاهرة وكذلك جماعة أخوان الصفا الأنكلوبيديين ومؤامراتهم على المجتمع الإسلامي أولئك الذين حاولوا نشر فلسفتهم بين الناس[١].

وغيرها من الحركات الكثيرة والأصوات المتصاعدة جراء ذلك الوضع الخطير الذي تعيشه الدولة العباسية في هذه الحقبة. والتي من أهمها حركة الزنج ليس لأنَّها موضع هذا البحث فحسب، بل لأنَّها كانت تقريباً أشدَّ هذه الحركات والثورات وطأةً

---

[٤] – أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس، ص٤١ .

[٥] – المصدر نفسه، ص٤١ .

[٦] – المصدر نفسه، ص٩٧ .

[١]– أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس، ص٤٨ .

على الخلافة العباسية ودولة بني العباس والتي كادت أنْ تعصفَ بها وتقيِّضَ أركانها .

وكان دائماً القاسم المشترك بين هذه الحركات مجتمعةً هو الوضع المأساوي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً؛ الذي صارت لدينا – كما مرَّ بنا آنفاً – فكرةٌ واضحةٌ عن تفاصيله بعون منه سبحانه وتعالى .

وهذا ما أتاح – وبدون شك – مناخاً وجوّاً لكلِّ هذه الثورات والحركات ومن بينها ثورة الزنج لتجدَ قبولاً وارتياحاً وأنْ تحوزَ هوىً في قلوب العامة .

فكان هذا بمثابة فرصة ثمينة أنطلق منها أصحاب تلك الثورات في الدعوة إليها بتقديم الوعود المغرية بتوفير الحرية وبتحصيل الأموال الطائلة وامتلاك الخدم والأملاك وغيرها من الخيرات التي تشتهيها الأنفس خصوصاً المحرومة المكلومة منها .

فعندما نأتي إلى ثورة الزنج وهي موضوع هذا البحث نجد أنَّ زعيمها صاحب الزنج لجأ إلى هذه الوعود، وإلى أسلوب الإغراء في أوَّل[٢] خطبة له خطبها في أصحابه وأتباعه من الزنج .

بقيت هنا حقيقةٌ لا مناص من الإشارة إليها وهي أنَّ جميع هذه الحركات، بل أغلبها وعلى رأسها ثورة الزنج كانت شيعية المنشأ والظهور، ولعلَّ السرُّ في ذلك سيطرة فكرة ظهور المهدي المنتظر على العقول آنذاك، وتطورت هذه الفكرة حتى

صارت ظاهرة اجتماعية فحواها نشر العدالة والمساواة بين الرعيَّة، لذا صارت الشيعة ملاذاً لكلِّ الضعفاء والمغلوبين فانضمَّ إليها الفقراء من العرب والموالي جميعاً[١]، ومن ثَمَّ صارت هذه الظاهرة سياسية يروِّج إليها أصحاب السياسة في تحقيق مآربهم وشدِّ أكثر عددٍ من الأنصار والأتباع إليهم، وتطويعهم لتحقيق مقاصدهم السياسية، وغير السياسية .

---

[٢]– تاريخ الطبري ٤٤٤/٩ .

[١]– أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس، ص٨٥ .

وعليه، فلا تخفى تلك العلاقة الوثيقة بين أصحاب الحركات الثورية ومذهب الشيعة، وليس هذا فحسب، بل أنَّ تلك العلاقة شكَّلت القاسم المشترك بين كلِّ الحركات في ذلك العصر .

وفي الحقيقة، فإنَّ هذا ما يفسِّر ذلك السر الذي جعل صاحب الزنج لا يتردَّد في ادِّعائه للنسب العلوي حتَّى أنَّه لقَّب نفسه بالمهدي، ونقش هذا اللقب على النقود التي أصدرها في حاضرته التي بناها وسمَّاها بالمختارة[٢] على نحو ما سنرى بعونه تعالى .

وتتأكَّد تلك العلاقة عندما ننظر في حال معظم الحركات التي سبقت حركة الزنج ونشأتها، وندرك أنَّ حركات التمرد تلك والانتفاضات والثورات كانت تحت لواء قادة علويين وذات نفسٍ علويٍّ .

فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد أبا الحسن يحي بن عمر بن يحي بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قد ثار سنة٢٤٨هـ/٨٦٢م بالكوفة وألتفت حوله الشيعة الزيدية .

كما ظهر في سنة٢٥٠هـ/٨٦٤م ثائرٌ آخر يدعى الحسن بن زيد بن محمد إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من نسل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان في طبرستان وبايعه الديلم وأهل كلاروشالوس والرويات، فتمكَّن من السيطرة على الري واحتلالها، وأسس دولة شيعية مستقلَّة مهدت للشيعة سبيل تقوية مذهبهم وتوسيع الدعوة لآل علي عليه السلام على الأخص عندما أسدى مساعدوه خدمات جليلة للعلم والمعرفة واهتمُّوا بالآداب والفنون، مِمَّا جعل بلاد فارس مهداً تموج بحركة شيعية قوية[١]؛ واتَّسعت رقعة سيطرته حتَّى امتدت إلى جرجان مِمَّا أسهم في توطيد دعائم دولته حتَّى استقام له الأمر إلى سنة٢٧٠هـ/٨٨٣م .

---

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٠/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٠٢/١٢ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥١/٧ .

كما ثار محمد بن جعفر بن الحسن على الخلافة العباسية بالري سنة٢٥٠هـ/٨٦٤م محاولاً ضمَّ الري إلى الدولة العلوية التي أسسها الحسن بن زيد (٢٥٠هـ/٨٦٤م – ٢٧٠هـ/٨٨٣م) بطبرستان إلاَّ أنَّه لم يصل إلى مبتغاه .

فثار بها من بعده أحمد بن عيسى بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام .

كما ثار الملقب بالكركي في السنة ذاتها ٢٥٠هـ/٨٦٤م بقزوين وهو الحسن بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي نفس السنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م وفي الكوفة خرج عن الدولة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ورضي الله تعالى عنه.

وبذا صارت[٢] سنة٢٥٠هـ/٨٦٤م زاخرة مزدحمة بالحركات الثورية التي تهدف إلى الانفصال عن الدولة العباسية وربما هدفت بعضها إلى القضاء على خلافة بني العباس من الأصل نتيجةً لضعف القائمين على الخلافة العباسية آنذاك الذي أضرَّ كثيراً بالدولة العباسية ورعيتها، ومن ثمَّ بسيادتها!

وفي خضمِّ هذا المدِّ الثوري، ومن بين تلك الثورات العديدة التي ملأت آفاق الدولة العباسية آنذاك بزغت شمس ثورة عنيفة أُطلق عليها: (ثورة الزنج) يقودها شخصٌ يدعى – على المشهور – علي بن محمد، والتي بدأت إرهاصاتها الأولى سنة٢٤٩هـ/٨٦٣م في البحرين[٣] حينما ذهب إليها علي بن محمد، ودعا أهلها إلى الثورة ضد الدولة والخروج عنها، وقد تبعه الكثير من إعرابها الذين كانوا يقطنون بمدينة (هجر)، حيث منها انطلقت صدماته الأولى مع الخلافة العباسية التي كانت آنذاك ترزح تحت سيطرة قادة الجند الأتراك الأعاجم، على نحو ما مرَّ بنا آنفاً، وما سنرى قريباً إنْ شاء الله تعالى .

---

[٢]– هذا أمر لا يخفى عن المتتبع لهذه الحقبة من تاريخ الدولة العباسية، ولعلَّ ما عُرض هنا يشير إلى ذلك! ينظر الحضارة العباسية للدكتور وليم الخازن (ط/٢) (دار المشرق/بيروت – لبنان) سنة١٩٩٢م، ص١٤٥ – ١٥٩ .

[٣]– تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٤١٠/٩ والعبر لابن خلدون ١٩/٤ .

والواقع يشير إلى أنَّ الوقت الذي كانت فيه الفوضى والعنف يعمَّان جميع مستويات الدولة في الداخل، الأمر الذي أضعف الدولة، وأثقل كاهلها فأودى هذا بالتالي بهيبتها وأذهبها، لذا كثر الطامعون فيها في الداخل – على نحو ما مرَّ بنا – وكذلك من خارجها، فقد حاول الروم الاستفادة من هذه الظروف التي تمرُّ بها الخلافة العباسية واغتنامها، فبدأوا بالإغارة على بعض المدن الموجودة في حدود الدولة وكانت المقاومة منهارة أمامهم في معظم الأحايين[١]، كما راق للأقليات الخاضعة للمسلمين اغتنام هذه الفرصة الثمينة، ومن هؤلاء البطارقة الذين تمردوا في أرمينية، أضف إليهم الصقالبة والخزر[٢]، والبربر في شمال إفريقيا الذين امتنعوا عن دفع الضرائب[٣]، وبالإضافة إلى ما تشكله هذه الحركات والثورات من خطرٍ سياسي وعسكري على الدولة العباسية شكلت خطراً أكبر من ذلك بكثير تمثَّلَ في العجز المالي الذي قد سبب في انهيار مالية الدولة وإصابتها بالعجز التام والفشل الكامل على أيِّ محاولة للإصلاح[٤]

فزيادة عن هذه الأخطار التي تجلبها مثل هذه الثورات وأصحابها على الدولة، ثمَّة خطرٌ أكيد، أدركه معظم زعمائها، ألا وهو الانطلاق من الجانب الروحي للناس، واستعمال الدين، الأمر الذي كان ذا أثر فعَّالٍ وموجعٍ بالنسبة للدولة، وفي الوقت ذاته ساعد زعماء هذه الثورات في كسب الرأي العام وانسياق أعدادٍ كبيرة ورائهم، وكانت ثورة الزنج من أكثر المستفيدين من هذه السياسة .

ولِما لا؟ وزعيمها علي بن محمد – كغيره ممَّن امتطوا صهوة السياسة – قد تستَّر برداء الدين مِمَّا مكَّن له، وجعل فكره يتغلغل مترسخاً في منهج الناس من أهل العراق وغيرهم داخل الدولة العباسية، وقد انساقوا وراءه مندفعين دون أنْ يفكِّروا بموضوعية في حقيقة هذه الثورة وأهدافها – التي سنتعرَّف عن الظاهر والخفي منها

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥١/٧ .

[٢]– تاريخ اليعقوبي ٢١٤/٣ .

[٣]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٤/٧ .

[٤]– من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام لجوزي بندلي ٥٦/٩ .

فيما يأتي بعونه تعالى – فاندفعوا في تيارها بسبب هول ما يلاقونه غير آبهين بما يمكن أن يؤول إليه مصيرهم بسبب ركوبهم المجهول .

فبعد أنْ غَلَّق الأتراك الأعاجم من قادة الجند كلَّ الدروب وسدُّوا جميع السبل أمام الخلفاء – على نحو ما رأينا آنفاً – للإصلاح والبناء ونشر العدالة والمساواة، واستبدُّوا بأمور الدولة كلِّها، فصارت الرعيَّة بمختلف طبقاتها وأصنافها – فيما عدا تلك الحفنة القليلة التي انحصرت ثروة الدولة بيدها – تريدها ثورةً لا هوادة فيها، فكانت الثورة .

*****

الفصل الثالث

الثورة والصراع والنهاية

(٢٤٩هـ/٨٦٣م – ٢٧٠هـ/٨٨٣م)

المبحث الأول/ مرحلة ما قبل
تسلم الموفق قيادة الجيش
(٢٤٩هـ/٨٦٣م – ٢٥٧هـ/٨٧١م)

بداية الدعوة للثورة (٢٤٩هـ/٨٦٣م):

لقد ذكر المؤرخون أنَّ أوَّلَ شرارة لثورة الزنج هذه كانت عربية من البحرين وتحديداً من مدينة (هجر) وهي عاصمة البحرين، فكان أهلها أوَّل مَنْ تحمَّس لعلي بن محمد وأفكاره ودعوته هذه التي كانت آنَ ذاك مجرد فكرة وسرعان ما صارت حركة أعتنقها الكثيرون هناك وآمنوا بمبادئها[١] .

ولعلَّ السرَّ في لجوئه إلى البحرين هو كون أهم أتباعه ومناصريه كانوا من البحرين، مثل[٢]: سليمان بن جامع الذي صار من أقدر قُوَّاده فيما بعد، ويحي بن محمد الأزرق المعروف بالبحراني وهو من مدينة الإحساء ومن العبيد أيضاً، ويحي بن أبي ثعلب الذي كان تاجراً من أهل هجر، وغيرهم مِمَّنْ كانوا بعدئذٍ من خيرة أصحابه ونخبة أنصاره الذين أمنوا بدعوته وآزروه حتَّى النهاية .

وبناءً على ما تقدم يمكن القول بأنَّ أوَّل طلائع هذه الثورة وأنصارها كانوا عرباً من البحرين، ثمَّ امتدت دعوته إلى أنْ تطال مدينة الإحساء[٣] وهي مجاورة لمدينة هجر عاصمة البحرين التي أنطلق منها علي بن محمد داعياً لحركته، وكانت مدينة الإحساء هذه هي الأخرى موطناً للعرب ونزل بحيٍّ من بني تميم، ثمَّ أخر من بني سعد، يقال لهم: بنو الشَّمَّاس[٤]، فقام يدعو قبائلها العربية للوقوف جانب ثورته التي ضمَّنها من المبادئ والأهداف ما هو كفيل وبجدارة بإقناع الناس بها والوقوف معها ومساندتها ومؤازرتها لذا اقتنعت هذه القبائل بطرح على بن محمد واعتنقوا أفكاره التي رأوا فيها بادئ ذي بدء ما يحقق رغباتهم وطموحاتهم فاستجابوا له وانخرطوا في صفوف حركته وناصروه وقاتلوا معه ضد الدولة العباسية وسلطانها حينما أصبحت حركته ثورة عارمة تلهب بنارها العباسيين، وتهزُّ أركان دولتهم في كلِّ أمصارها ونواحيها .

---

[١]– الكامل في التاريخ للإمام عمدة المؤرخين أبي الحسين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بغز الدين المتوفى سنة ٦٣٠هـ راجعه الدكتور محمد يوسف الدقاق (ط/٣) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٢١٦/٦.

[٢]– المصدر نفسه ٢١٦/٦ .

[٣]– تاريخ الطبري ٤٤٢/٩ .

[٤]– موسوعة (ألف حدث إسلامي) لعبد الحكيم العفيفي (ط/٢) (أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع/بيروت – لبنان) سنة١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٢٨ .

وفيما يبدو أنَّ علياً بن محمد لم يجد صعوبةً في الدعوة لحركته وانخراط الناس فيها واعتناقها، ثمَّ القتال ضد الدولة العباسية التي ينطوي نظامها على مساوٍ من شأنها أنْ تدفعَ الناسَ آنذاك دفعاً إلى الثورة، والتحرك ضد الضيم والظلم والفساد، وغيرها من المساوي التي صارت – حسبما يروي المؤرخون – وكما هو معروف ديدناً للقائمين على الحكم في دولة بني العباس .

وبناءً على ما تقدم من ذكر للحال المتردي الذي تقاسيه الناس تحت حكم بني العباس في ذلك الوقت لا يجد المتتبع غرابةً في اندفاع الناس مع علي بن محمد فيما يرمي إليه من الثورة على الدولة العباسية، ومحاربتها رغم ما تحمله أفكاره من خروج على الدولة، وانحراف عن الدين كما يرى الكثيرون آنذاك، فانتشر أمر حركته هذه انتشارَ النار في الهشيم في مرحلتها الأولى هذه بين القبائل العربية في البحرين " فأحلَّه أهل البحرين من أنفسهم محل النبي! حتى جُبِيَ له الخراج هنالك، ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه! ... "[١] .

والواقع أنَّ الناس لم يعتنقوا أفكار علي بن محمد فحسب، بل أنَّهم أكبروا من شأنه أيَّما إكبار، وقرَّبوه من أنفسهم ونال منهم مكانة سامية رفيعة على نحو ما مرَّ بنا آنفاً ، وفي كلِّ الأحوال، فإنَّ هذا مردَّه إلى الدولة العباسية وما تعانيه من انحلال وفساد كوَّن بدوره بيئة صالحة لقيام أي حركة أو ثورة معادية لها هدفها التغيير وإصلاح حال الناس يتبعونها ويمشون تحت لوائها بمجرد أنْ ترفع شعاراً لذلك فهم ليسوا بحاجة حتى للتمهُّل للتحقق منها واختبار صدقها .

وللأهمية ثَمَّة أمر ينبغي الإشارة إليه – هنا – يتمثل في أنَّ حركة علي بن محمد، ثُمَّ ثورته هذه اتخذت في بداية الأمر شكلاً عربياً خالصاً، فلم يكن للزنوج أيُّ دورٍ فيها يذكر اللهمَّ إنْ كان بين الأتباع بعض الزنوج بشكلٍ عفويّ غير مُخطط له، وهو على كلِّ حالٍ نزرٌ قليل شارك على سبيل الصدفة والعفوية، وهذا راجعٌ أولاً وأخيراً إلى عدم قبول الظلم والاستبداد والصبر عليهما من أيّ كان سواء كان المظلوم عربياً أو زنجياً أو غيرهما، فالجميع يستوون حينئذٍ، وعليه فالمؤكَّد أنَّه لم يكن أيُّ دور أو حتَّى ذكر للزنوج في حركة هذه الثورة اللهمَّ إلاَّ إذا كان في ضمير صاحبها ولم

---

[١]– تاريخ الطبري ٤٤٢/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٦/٦ .

يُظهر ما يُبطنه إلاَّ بعد ما استتب له الأمر واستغنى بالزنوج عن سواهم لأمرٍ يفرضه تكتيك القائد الحريص على نجاح أمره .

وممَّا لاشكَ فيه أنَّ الدولة ستذود على ملكها وسلطانها، فتحمي حِماها وتبذل دونه الغالي والنفيس .

لذا نجدها تصدَّت له ولأتباعه وهبت لحربهم وهم في جُلِّهم – إنْ لم نقل جميعهم عربٌ – وعلى رأسهم قائدهم زعيم هذه الثورة المقبلة على مواجهة طويلة ودامية مع بني العباس التي أضنتهم فيما بعد وآلمتهم كثيراً وعلى أشدّ ما يكون الإيلام .

ولعلَّ مواجهة الدولة والدخول معها في حرب حتَّمت على علي بن محمد توسيع الرقعة التي ينطلق منها لمهاجمة الدولة وملكها، وبذلك شاع أمر ثورته هذه وسرى حتَّى وصل إلى أهل البوادي الذين يُعَدُّون أوكد عروبةً وأخلص نسباً للعرب، فوقفوا معه وآزروه وناصروه، وبذلك حقَّقَ هذا الثائر المغامر مكسباً استراتيجياً تمثل في ذلك العمق الذي صارت تتمتع به حركته على المستويين الجغرافي والسياسي .

واستمرَّ علي بن محمد في التنقل من حيٍّ عربيٍّ إلى أخر عربي، وكلُّ هذا كان في البادية، وفي هذا كلِّه لا نجد ذكراً للزنوج في هذه المرحلة المهمة والحسَّاسة من عمر ثورة علي بن محمد .

والواقع أنَّ عليا بن محمد كافح وناضل في هذه المرحلة بنفسٍ لا ينقطع من أجل أنْ تنتشر دعوته، وتنتصر ثورته وتمتدُّ بها الحياة لتحقيق أهدافها، وفي الحقيقةِ أنَّهُ نجح إلى حدٍّ بعيدٍ في هذا ، إذ امتدت هذه المرحلة من حياة الثورة إلى ما يربو على خمسِ سنوات[1]؛ وفيها كلِّها كانت ذات طبيعة عربية .

وللأمانة والإنصاف لا ننسى القول بأنَّه لم يتفق كلُّ الناس مع علي بن محمد وأفكاره، بل مثلما كان له أتباع كان له أيضا معارضين لم يستجيبوا لدعوته، وليس هذا فحسب، بل وقفوا ضدَّها وعارضوا أفكاره ورفضوها، الأمر الذي أوقعه في صدام معهم، وتفاقمت الأمور بين الطرفين حتَّى بلغت الذروة وجُرَّ كلٌّ منهما إلى التقاتل والتناحر .

---

[1]– تاريخ الطبري ٩/٤٤١ – ٤٤٤ .

وكما ذكرنا آنفاً أنَّ بعضاً من أهل البحرين الذين اتَّبعوه أحلُّوه منهم مكانة سامقة مرموقة قيل فيها ما قيل قبل قليل .

أمَّا بعضهم الأخر فإنَّه قد أشير إليهم كذلك فهم لم يصدِّقوه في دعواه، وتنكَّروا له وضايقوه هو وأصحابه وأتباعه وضيَّقوا عليهم الخناق حتَّى ضاق بهم ذرعاً[1]، فقرَّر جراء ذلك الانتقال مع أصحابه إلى البادية؛ كان يتوقع أنَّ الأمر سيستتب له في البحرين وتستقيم له فيها الأحوال على نحوٍ لم يعهده في هجر وفي نواحيها مع أصحابه من أمثال يحي البحراني ويحي بن أبي ثعلب وسليمان بن جامع الذي صار فيما بعد قائداً للجيش في حركة علي بن محمد هذه .

فعندما وافى البادية صار يدعو لمبادئه وأفكاره، فأخذ يتنقَّل من حيٍّ إلى أخر، وحاول بكلِّ ما يملك إقناع الناس هناك فسلك كلَّ مسلكٍ، حتَّى إنَّه لم يتورع على أنْ يدِّعي موهماً تابعيه بأنَّه يحي بن عمر أبو الحسن المقتول في ناحية الكوفة[2]، وبالفعل استطاع بذلك خداع قوم منهم الذين اعتنقوا مذهبه ودعوا له حتَّى جمَّعوا عدداً لا بأس به .

وبذا ناصرتهم جماعةٌ كثيرةٌ. وعندما أحسَّ بكثرة أصحابه وأتباعه قرَّر مواجهة معارضيه فسار إليهم يطلبهم والتقى بهم في موضع بالبحرين يقال له: الردم، فنشبت بين الفريقين معركة طاحنة دارت عليه وعلى أصحابه وأتباعه فيها الدوائر فقُتل عددٌ ليس بالقليل منهم[3] .

ومن هنا أعاد أنصاره من العرب _ وكان جلهم منهم _ حساباتهم في أمره وأمر حركته هذه، فتراجعوا عن نصرته ونفروا منه[4] .

وبذا نستطيع القول بأنَّ العرب قلت صحبته وتفرقت عنه، بل نبت عنه وعن أمره البادية بأسرها[5]؛ الأمر الذي دفعه إلى الرحيل عن البادية، بل عن البحرين كلِّها، بعدما قرَّر الرحيل إلى البصرة! وكان له ذلك في (٢٥٤هـ/٨٦٨م)[1] .

---

(١)– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢٠٦ .

(٢)– المصدر نفسه ٦/٢٠٦، ٢٠٧ .

(٣)– المصدر نفسه ٦/٢٠٧ .

(٤)– ينظر تاريخ الطبري ٩/٤١٠، ٤١١ .

(٥)– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢٠٧ .

اندلاع الثورة (٢٥٥هـ/٨٦٩م):

ذكر المؤرخون أنَّ بداية دعوة علي بن محمد لثورته كانت في سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وأنَّ ظهور الحركة ودخولها مرحلة الانفجار والمواجهة مع الدولة العباسية كان في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م[٢]، وفيما يبدو أنَّ الدولة العباسية كانت في تلك الحقبة من الزمن المنحصرة من سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وسنة٢٥٥هـ/٨٦٩م وهي تقدر بزهاء ست سنوات لا تقيم وزناً لهذه الحركة استخفافاً بها وبالقائمين عليها خصوصاً وأنَّها فيما يبدو لا تقيم لهم وزناً لأمرٍ يقدّره القائمون على الخلافة العباسية آن ذاك؛ فهي إذن – أي الدولة العباسية – في شغلٍ شاغلٍ حتَّى تطور أمر الثورة واحتدم خطبها فاستفحل خطرها وصارت الحركة ثورةً تهزُّ أركان الدولة العباسية هزّاً؛ ولو أنَّ العباسيين أعطوا بالاً لهذه الحركة – على الأقل في الحقبة ما قبل الثورة – وهي فترة الدعوة والتكوين، حتماً لا يكون مستحيلاً أنْ يتسنَّى للدولة العباسية إخمادها والقضاء عليها في وقتٍ مبكّرٍ وربَّما قبل اندلاعها، ومن ثمَّ لا تنتقل هذه الحركة من كونها حركةً إلى أنْ تصيرَ ثورةً عارمةً – بعدما انتقل زعيمها إلى البصرة قادماً إليها من البحرين على غرار الهزيمة التي مني بها وأصحابه في معركة الردم، استطاع بهذه ومن خلالها الزنج وصاحبهم إحراز انتصارات متتالية، وتحقيق شيء من أحلامهم خلال الأسابيع الأولى القليلة من عمر ثورتهم .

وعودٌ على بدءٍ؛ فإنَّ انطلاقة هذه الثورة كانت – على ما ذكر المؤرخون – في ليلة السبت السادس والعشرين من شهر رمضان المبارك وقيل الثامن والعشرين منه سنة ٢٥٥هـ الموافق العاشر من سبتمبر سنة ٨٦٩م .

وكان هذا في زمان الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق، الممتدَّة ما بين سنة ٢٥٥هـ – ٢٥٦هـ/٨٦٩م–٨٧٠م، حيث حدث فيها – فيما يبدو – نوعٌ من التعديل في استراتيجية علي بن محمد (صاحب الزنج) كقائد وزعيم لثورة يريدها قوية الوقع

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٧/٦ .

[٢] – تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠هجرية) (ط/٢) (دار الكتب/بيروت – لبنان) سنة١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٤٤١/٩ – ٤٥٠ .

على الخلافة العباسية والقائمين عليها، فدخل مرحلةً جديدةً انتقل فيها من التبشير بأفكاره ومقاصد ثورته لدى العرب وغيرهم مِمَّن عانوا وقاسوا الأمرين من ظلم سلاطين الدولة العباسية وأعوانهم إلى التركيز على غيرهم من الزنوج الذين كانوا يرزحون تحت ظلم أسيادهم وغطرستهم؛ لأنَّهم كانوا أكثر جهوزية وتحمُّساً للخروج من أوضاعهم المأسوية التي لا تُطاق بسبب ما يلاقونه على أيدي أسيادهم من جور وقهر كبيرين وهو ما لا يلاقيه غيرهم مِمِّن ليسوا زنوجاً، وقد كان علي بن محمد (صاحب الزنج) مصيباً في ذلك إلى حدٍّ بعيدٍ، وكانت هذه الخطوة موفقةً تُحسب له في ميزان الحِنكة والخبرة القيادية، بل كانت حاسمةً في المراحل الأولى للثورة بحيث اندفع معه هؤلاء دون تردُّد لِمَا كانوا يقاسونه من جورٍ وضيمٍ وعذابات، خصوصاً أنهم صاروا يراهنون على هذه الثورة وقائدها الفذ – في نظرهم – الذي سيخلصهم مِمَّا هم فيه، إذا لا سبيل لهم سوى الثورة التي لا طريقَ لها غير الحياة الكريمة أو الموت .

ويذكر المؤرخون أنَّ علياً بن محمد (صاحب الزنج) ابتدأ حركته بأنْ آسر عبيداً كان يملكهم رجلٌ يدعى (العطَّار) فأخذهم وقيَّد وكيلهم[1]، وقد ضمَّ إلى هؤلاء بعد ذلك عدداً من العبيد يبلغ حوالي الخمسمائة عبداً، ثُمَّ بعد ذلك أخذ علي بن محمد (صاحب الزنج) يتجوَّل بين الأمصار ويضم إليه كلَّ مَنْ قابله من العبيد الذين يرون فيه وفي ثورته هذه ظالَّتهم المنشودة حتَّى اجتمع لديه بشرٌ كثيرٌ من غلمان الشورجيين[2] .

ولمَّا كان لعلي بن محمد من الحنكة، ولِما يتمتَّع به من قدرات ومواصفات للقائد الناجح والتي تؤهله لقيادة ثورة بهذا الحجم وتجعله مُصراً على تحقيق أهدافه والسير بأنصاره إلى برِّ الأمان، فلم يغفل الجانب التعبوي لأتباعه حتَّى يطمئنُّوا ويتخلَّصوا من ذعرهم وخوفهم! ولكي يكسب ودهم وثقتهم، فبدأ بإلقاء خطبه ومواعظه ليرفع من هممهم ويشد من أزرهم، فكانت أول خطبه تلك التي أبان لهم فيها مقاصده وأهدافه وكنه ثورته، وأسباب قيامها التي هم يقاسونها في حياتهم ويعرفونها جيّداً؛ بل هي

---

(1)– تاريخ الطبري ٥٤٦/٧ .

(2)– المصدر نفسه ٥٤٦/٧ .

التي جعلتهم ينخرطون معه في غايته هذه، ثُمَّ منَّاهم بأحسن الأماني وأطيب الآمال في استرداد حرّياتهم وانتزاعها من مغتصبيها أصحاب الأموال والأملاك الذين استرقُّوهم بأموالهم فيستغلُّون جهدهم ويمتصُّون دمائهم، ويستغلون عرقهم؛ ووعدهم بالنصر المؤزَّر الذي يمكنهم من كسب الأموال والأملاك .

ولرفع الروح المعنوية لهؤلاء العبيد المساكين الخائفين المذعورين، والذين عشعش في أذهانهم رقُّ أسيادهم لهم وسيطر عليهم الذلُّ والهوان، ثُمَّ عمد إلى نهرِ وكلاء العبيد، وشتمهم وهدَّدهم، وخاطبهم قائلاً :- " لقد أردتُ ضرب أعناقكم لِمَا كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرَّم الله عليكم أنْ تفعلوه بهم وجعلتم عليهم مالا يطيقون فكلَّمني أصحابي فيكم فرأيتُ إطلاقكم "[١] .

وقد كان من بين الزنوج وجهاء لهم مكنَّهم علي بن محمد – بعد ذلك وعند انتظام الثورة وأصبح لها جيشٌ جرارٌ – من أنْ يكونوا قادةً وأصحاب رأيٍ نافذٍ عنده، وهؤلاء منهم: صبيح الأعسر، وراشد المغربي، وطريف، وراشد القرماطي[٢] .

والواقع أنَّ علياً بن محمد كان صادقَ الوعدِ وفيَّ العهدِ لأتباعه من العبيد، حتَّى أنَّ أسيادهم ووكلائهم لَمْ يوفِّروا جهداً في إغرائه بالمال والأملاك والمراتب، ووعدوه بالحظوة لدى هؤلاء الأسياد لقاء أنْ يطلق صراح هؤلاء العبيد ويعيدهم إلى أسيادهم حيث مواضع أعمالهم الشاقة، ويتراجع عن ثورته هذه ويقلي أهدافها التي قامت من أجلها ثورة الزنج ومن أهم أهدافها تحرير هؤلاء العبيد وانتشالهم من مستنقع الاضطهاد الذي يلاقونه على أيدي اسيادهم؛ فرفض بشدَّةٍ ولم يكتفِ بذلك، بل عمد إلى إهانة هؤلاء الأسياد والوكلاء ومعاقبتهم أمام أتباعه العبيد، فأمر العبيد بالقيام برد اعتبارهم من هؤلاء الأسياد الذين طالما استعبدوهم وأذلوهم زمناً طويلاً

وآذن لهم ببطح هؤلاء الوكلاء وضربهم بشدَّةٍ ضرباً مبرحاً[١] .

ولعلَّ في هذا ما فيه من الانتقام تقدَّم به العبيد لأسيادهم، ولأوَّلِ مرَّةٍ تمكَّن فيها العبيد من الانتقام والثأر لأنفسهم من أسيادهم الذين مارسوا ضدَّهم شتَّى ألوان

---

[١]– تاريخ الطبري ٥٤٦/٧ .

[٢]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٣/٨ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٨/٦ .

الظلم والإهانات واضطهدوهم .
وكان في هذا كلِّه تصعيدٌ للمقت والعداء بين مـلاَّك العبيد وذلك الثائر الجريء علـي بن محمد الذي أفسد عليهم عبيدهم، وفوَّت فرصـة استغلالهم لهؤلاء العبيد وسحبها من بين أيديهم بعدما كانوا ملاَّكاً لهم؛ الأمر الذي يجعل من نـار الحرب مستعرة ولا مفرَّ منها بين الطرفين .
وقد انطلق علي بن محمد (صاحب الزنج) في الدعوة لثورته وأخذ يضمُّ إليها كلَّ من جاءه منتصراً له حتَّى اندفع إليه الزنوج أفواجاً يناصرونه ويشدُّون من أزره نصرةً له ولأنفسهم وانتقاماً من أسيادهم الذين ذهبوا في إذلالهم والإساءة إليهم كلَّ مذهبٍ .

تكوين الجيش وبدء الغارات (٢٥٥هـ/٨٦٩م) :

عندما تجمَّعَ لدى علي بن محمد (صاحب الزنج) جمعٌ كثيرٌ من الأنصار والموالين كـان لزامـاً عليـه أنْ يحـذو حـذو القائـد الفـذ الـذي يـنظِّم صـفوف أتباعـه ويضبطها، وهذا أمرٌ لابدَّ منه ليقومَ بأعباء حركته وليستعدَّ لِمَا ينتظره من المواجهات التي لابدَّ له منها مع الدولة وأعوانها جرَّاء ثورته الجريئة هذه التي تحمل في طياتها خطراً يكمن في تعدُّد أهدافه ومغازيها في آن واحد .
فهذه الثورة كان لها مغزٍ سياسي وهو مهاجمة الدولة والاعتداء على ملكها وشرفها وأمنها؛ وكذلك كان له مغزٍ اجتماعي وهو سحب السيادة مِمَّن كانوا يملكون العبيد وجعلهم في ذات الوقت عبيداً لعبيدهم، بحيث يصير الأسياد عبيداً والعبيد أسياداً، وهذا يعدُّ فـي حدِّ ذاتـه انقلابـاً اجتماعياً كبيـراً وخطيـراً بغض النظـر علـى شرعيته وخلافها لما لـه من أبعادِ كثيرة متعدِّدة منها الاقتصادية فضـلاً عن تلك السياسية والاجتماعية .
فأخذ يعيِّن القادة والرؤساء ليساعدوه على قيادة الثورة وأخذ يحفز قوَّاده ويغريهم بالدعوة إلى حركتهم، ووعدهم بأنَّ كلَّ من يأتي بشخصٍ جديدٍ يجعله تحت إمرته وقيادته ممَّا حدى بجميع القوَّاد والرؤساء إلى السعي بكل ما يملكون على ضمِّ الكثير

من الأتباع الجدد، وهذا له مردودٌ ايجابي على الحركة ساهم – ولا شك – في اتِّساع رقعة حركة علي بن محمد (صاحب الزنج) وجعلها تكبر وتعظم[١] .

وكما رأينا، فإنَّ صاحب الزنج استطاع أنْ يكوِّن ترسانة بشرية لا بأس بها، إلاَّ أنَّ هذا كله كان غير كافٍ بالنسبة لصاحب الزنج .

فهذه القوَّة البشرية بحاجة ماسَّة إلى المال الذي يُصرف على تموين المقاتلين بالعتاد والسلاح وتدريبهم على فنون القتال ليتمكَّنَ من تدبير أمور الحرب وإدارة شؤونها استعداداً للقتال الذي لا مفر منه، إذ صار يدرك أنَّ المواجهة الدامية مع الدولة أصبحت وشيكةً بسبب اعتناقه لهذه الأفكار الخارجة عن الخلافة والدولة وربَّما الدين أيضاً، والتي عبَّر عنها بحركته هذه التي تتَّخذ من الثورة السمراء الحمراء ضد الدولة شعاراً لها .

والواقع أنَّ علياً بن محمد (صاحب الزنج) وأتباعه كانوا عُزَّلاً من السلاح ولا يملكون شيئاً منه حتَّى رُويَ أنَّ أحد أتباعه قد اتَّخذ من طبقٍ سلاحاً له فرمى به أحد أعدائه[٢] وكما قيل – في هذا الصدد – أنَّ معسكر علي بن محمد (صاحب الزنج) لا يحتوي من السلاح سوى ثلاثة أسياف[٣] .

وهنا لا بدَّ للقائد علي بن محمد من تدبير وسيلة تمكِّنه من الحصول على المال والسلاح والعتاد لتسيير أموره وللمضي قدماً في حركته وتحقيق أهدافه في تحرير الزنج وقيادتهم .

لذا اتَّخذ من الغارات على القُرى المجاورة مصدراً ومموِّلاً لحاجاته وحاجات أتباعه، فبدأ بالهجوم على قرية الجعفرية[٤]، وقد تحصَّل نتيجة ذلك على مبلغ من المال قدْره مائتان وخمسون ديناراً وألفُ درهمٍ، وهو أول مبلغ يدخل خزنته[١]؛ كما نهب أتباعه

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٨/٦ .

[٢] – تاريخ الطبري ٥٤٨/٧ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٨/٦، ٢٠٩ .

[٣] – البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ١٩/١١ .

[٤] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٩/٦ .

[١] – تاريخ الطبري ٥٤٩/٧ .

من هذه القرية كمية من الأسلحة ليست بالهيّنة تمثلت في عددٍ من السيوف والتروس[٢]، وغيرها كانت معيناً لهؤلاء في المضي بثورتهم قُدماً .

وصار هذا ديدن علي بن محمد (صاحب الزنج) وأتباعه فأخذوا يغيرون على القرى والأرياف النائية عن مركز قيادة الخلافة ليسرها بالنسبة لهم فينهبون ويقتلون؛ وفي تلك الآونة والظروف أخذ عددٌ أنصاره وأتباعه يتزايد بشكلٍ كبيرٍ وتجمَّع لديه عددٌ كثيرٌ من المقاتلين حتَّى أنَّ جيشه دخل أحد المعارك حينها بستة ألاف مقاتل[٣]، مِمَّا يدلُّك على التزايد المطَّرد السريع في عدد أصحابه وتابعيه .

وتطوَّر أسلوب علي بن محمد (صاحب الزنج) في القيادة والقتال بمضي الزمن الذي ازدادت به خبرته وحنكته فحشد كلَّ إمكانياته ومواهبه وارتقى بأساليبه في إدارة شؤون جيشه في السلم والحرب، وكان هدفه في كلِّ هذا هو النصر المؤزَّر على الدولة العباسية وأعوان الخلافة، وتحقيق أهدافه بتأسيس دولة تحقِّق أهدافه وأهداف أتباعه من الزنوج تقوم على أنقاض دولة بني العباس .

فبثَّ العيون والجواسيس في الأنحاء المجاورة لاستطلاعها والكشف عن أحوالها ودراسة حال أعدائه ورصد تحركاتهم[٤] .

فكان جواسيسه وعيونه يقومون بواجبهم على أكمل وجهٍ حتَّى أنَّهم يُحدِّدُون بدقَّةٍ متناهيةٍ القرى التي تكيل له العداء من غيرها التي كانت تنحو نحواً مسالماً له أو أنَّها مواليةٌ له، وهذه الأخيرة لا يُقدِمُ على مهاجمتها قط أمَّا غيرها فلا يتوانى على مهاجمتها ونهبها والانتقام من أهلها؛ فإذن كان علي بن محمد يتحقق من أنَّ أهل هذه القرية أو تلك ليست موالية، بل معادية حتَّى يغير عليها .

حتَّى أنَّه رفض مهاجمة قرية القادسية آنذاك؛ لأنَّ أهلها لم يجرؤا على الإساءة إليه ولا إيذائه .

ليضمن (صاحب الزنج) بقاء حركته واستمرارها والحفاظ على ذلك سلك كلَّ السبل إلى ذلك، فداهم وقتل ونهب ونكَّلَ بأهلِ القرى التي لم تذعن له، بل أنَّه قام بإرهاب

---

[٢] – المصدر نفسه ٥٤٩/٧ .

[٣] – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٤/٨ .

[٤] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٩/٦ .

أعدائـه وشـنَّ عليهم حـربَ أعصـابٍ، فكـان كلَّمـا هـاجم قريـة ونهبهـا عمـد إلـى قتـل الأسـرى وقطـع رؤوسـهم وحملهـا علـى البغـال أمَّـا النسـاء والأطفـال فقد احـتفظ بهـم كغنائم[١] .

التمركز والتحصين (٢٥٥هـ - ٢٥٦هـ/٨٦٩م - ٨٧٠م):

أشرنا فيما سبق من حديثٍ إلى أنَّ حنكة علي بن محمد وتمرسه كقائدٍ يمكن التعويل عليه، فكان صاحب نظرٍ ثاقبٍ يفكِّرُ باستراتيجية تامَّة؛ من ذلك أنَّه عمدَ إلى تحصين مواقع أتباعه ومعسكرات قوَّاته والتمترس بهم في مكان آمن حصين يحتمي بـه، فقرَّر بنـاء مدينـة يتخذها مقرّاً لممارسـة مهامـه ونشـاطاته، فقـام ببنـاء الأسـوار والخنادق من حولها لتكون قاعدةً لإرساء دعائم دولته التي أزمع على تأسيسها على أنقاض دولة بني العباس، تساعده على التحكم في جيشه وتنظيمه والإشراف عليه، وتمكنه من تسيير أمور أتباعه ومناصريه؛ ومن ثَمَّ يجعلها قاعدةَ الانطلاق ينطلق منها لشن حروبه وحملاته العسكرية على الخلافة العباسية .

ففي بادئ الأمر لجأَ إلى أخر أنهار البصرة وتحديداً في منطقة سبخية جافَّة يسمونها أنْ ذاك (سـبخة أبـي قرَّة) تقـع بـين نهـر (أبـي قـرَّة)[٢] ونهـر (الحـاجر) وبـثَّ أصحابه يميناً وشمالاً استعداداً للآتي، وأمرهم باتِّخاذ الأكواخ؛ وهذه السبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات[٣]، فأقام أتباع علي بن محمد (صاحب الزنج) بها وبنوا أكواخهم من سعف النخيل والطين .

إلاَّ أنَّ إقامتهم فيهـا لـم تـدم طـويلاً؛ فهذه المنطقـة كانـت فقيـرة، فلـم تكـن بهـا مـوارد زراعية وهذا أمرٌ طبيعي لكون أرضها صبخية فهي ليست أرض زراعية، فلا إنتاج زراعي يرجى منها، كما أنَّها فيما يبدو تفتقر لأمور أخرى لا يمكن التجاوز عنها، فهي لم تكن ملاذاً آمناً لصاحب الزنج الذي سرعان ما أكتشف أنَّها لا تلبِّي أهدافه وطموحاته؛ لذا عمد في سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م إلى استبدالها بمنطقة غيرها تقع على

---

[١] – الملل والنحل للشهرستاني ١/١٦٤ .

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢١٢ .

[٣] – تاريخ الطبري ٧/٥٩٥ .

المنطقة الغربية لنهر أبي الخصيب[1] وقرَّر أنْ يبني مدينته على أرضها وأراد لهذه المدينة أنْ تكونَ قلعةً له أخذ بتحصينها، فقام ببناء الأسوار حولها وأحاطها بالخنادق .

فصارت المدينة ذات منعة تحيطها الأسوار والحصون والخنادق محتميةً بالجداول والمدود وقد ركَّز على أسوارها المنجنيق والعرادات وآلات الحصار المختلفة .
كما أمر أصحابه ببناء الأكواخ ليسكنوا فيها وكانت آنذاك من سعف النخيل والطين[2]؛ ولأنَّ علياً صاحب الزنج أراد الاستقرار في هذه المدينة لاطمئنانه لوفرة مواردها التي من شأنها أنْ تضمن له المدد والتموين بأنواعه ومن ثَمَّ الحماية .
باشر في بناء مدينته التي أرادها متكاملة حيث أقام القصور له ولكبار قُوَّاده والدور والمؤسسات العامة والسجون التي راعى فيها التحصين والمنعة فجعلها كالقلاع[3] .
وكما جرت عليه العادة كان لِزاماً على علي بن محمد أنْ يضع اسماً لمدينته هذه التي أرادها عاصمةً لدولته، فأطلق عليها اسم (المختارة) ولعلَّ في هذه الاسم ما يوحي بوجود عامل الاختيار والانتقاء الدقيق بحيث كانت مبعث اعتزازه وفخره بما يتمتَّع به موقعها من حصانة ومنعة ووفرة لجميع الموارد والمقومات التي تساعد على قيام دولته واستمرارها .
فكانت هذه المدينة على مساحات شاسعة معظمها مزروعة ذات بساتين وارفة من النخيل والأشجار المتشابكة تتخللها القنوات والترع، كما كان يخترقها نهر أبي الخصيب؛ لأنَّ علياً بن محمد قد بنى حصوناً على الضفَّة الشرقية أيضاً من نهر أبي الخصيب ممَّا جعل نهر الخصيب يمرُّ في وسطها؛ وهي الحصون التي لجأ إليها فيما بعد عندما ضاقت عليه الأحوال وحاصرته قوات الخلافة وطردته من قصره الذي كان في الضفة الغربية لنهر أبي الخصيب .
وكما أشرنا سابقاً، فإنَّ القائد علي بن محمد أقام عاصمته هذه على أساس محسوب بعناية ودقة متكاملتين ليضمن لها جلَّ ما يحتاجه، وليكفل لنفسه ولثورته البقاء

---

(1) – تاريخ الطبري ٥٩٥/٧ .
(2) – المصدر نفسه ٤٥٧/٩ .
(3) – دراسات الدوري ص٨٥ .

والاستمرار وكان أحرص ما يكون على مصادر التموين لمدينته هذه وسبلها وكان هذا ظاهراً خلال اختياره لموقعها الهام، فهي كما عرفنا آنفاً أنَّها تقع بين أراضٍ خصبة تمدَّه بما يحتاجه أتباعه من غذاء وغيره .

كما ضمن بموقعها هذا الحصول على الميرة[1] التي تموِّن مصاريفه على جيشه إذ تقع هذه المدينة بين الخليج الفارسي والبادية وهذا يساعده على الحصول عليها من الجانبين لتموين ما يصادفه، بل ما يواجهه من حروب وغزوات لا مفرَّ منها ضد الدولة العباسية، وتوفير الاستقرار لأتباعه في ساعة السلم .

بدء المواجهة بين صاحب الزنج والدولة العباسية (٢٥٦هـ/٨٧٠م):

لقد ضاقت الدولة العباسية ضرعاً بعلي بن محمد وأتباعه جرّاء ممارساتهم وتحركاتهم التي جعلت العباسيين يتيقنون من خطرها الداهم على الدولة العباسية آنذاك، أضف إلى ذلك شكوى[2] أهالي البصرة وتذمرهم الشديد من صاحب الزنج ومضايقات أتباعه لهم التي جعلتهم يستنجدون بالخلافة العباسية ويُوكِلون أمرهم إلى القائمين عليها .

كلُّ هذا من شأنه أنْ يحرِّك همة الدولة ويجعلها تتحرك ضد هؤلاء المردة عليها لإرساء دعائم الأمن واستتبابه وتثبيت سلطانها الذي بدأ – فيما يظهر – يترنَّح على هذا الجزءِ الهام والحساس من ملكها، فأرسلت بجيشٍ تحت إمرة أحد القادة الأتراك يدعى (جعلان)[1] تحرك على رأس جيشه إلى البصرة في سنة٢٥٦هـ/٨٧٠م لتحقيق المهمَّة الموكلة إليه والمتمثِّلة في دحر علي بن محمد (صاحب الزنج) وأتباعه بالقضاء عليهم وتخليص بني العباس منهم .

وكما ذكرنا آنفاً، فإنَّ علياً بن محمد كان متمترساً في منطقة نهر الخصيب التي تمتاز بكثافة أشجار النخيل فيها وكثرة الأدغال وتداخل القنوات التي من شأنها توفير

---

[1]– الميرة هي: الطعام يمتاره الإنسان. ابن سيدا: الميرة جلب الطعام، وفي التهذيب: جلب الطعام للبيع، وهم يمتارون لأنفسهم ويميرون غيرهم ميراً. لسان العرب لابن منظور، مادة: (مير)، ومقاييس اللغة لابن فارس، مادة: (مير) .

[2]– تاريخ الطبري ٤٨١/٩ .

[1]– تاريخ الطبري ٤٧٦/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٥/٦ .

الحماية ويتمكن علي بن محمد وجنده من الاحتماء بها بتوفير الحماية الطبيعية لهم وذلك بإعاقة العدو في حال تقدمه إليهم ومن ثَمَّ تكبيله بحيث يتمكَّن منه علي بن محمد .

وفي المقابل كان جيش العباسيين بقيادة (جعلان) القائد التركي أكثره من الفرسان[٢]؛ لذا لم تساعدهم طبيعة المنطقة على الولوج فيها ولقاء العدو، بل أعاقت حركتهم، فلم يستطيعوا الدخول إلى المنطقة والوصول إلى الأعداء[٣] الأمر الذي يشير إلى خللٍ في القيادة لدى جيش العباسيين .

ولعلَّ هذا راجعٌ – في تقديري – لأمرين اثنين : أحدهما أنَّ جعلان القائد التركي هذا ربما كان على غير دراية بطبيعة المنطقة التي يتمركز فيها صاحب الزنج بأصحابه ويحتمي بها، وأمَّا الأمر الثاني وهو أنْ يكونَ القائد جعلان نفسه في عوز للحنكة والخبرة، وعلى كلِّ حالٍ فيمكن التوصل إلى عدم صلاحية جعلان هذا في أنْ يكون قائداً لمثل هذه المنازلات خصوصاً عندما ندرك أنَّه أمام خصمٍ عنيدٍ لا يُستهان به ويُحسب له ألفُ حسابٍ، فلا يَقدر عليه إلاَّ من تمرَّس في ساحات القتال والمنازلات، لا مَنْ كان مثل هذا القائد التركي الذي لم ينتبه إلى أصغر الأمور في مواجهته هذه؛ فالمنطقة نخيلها متشابك، وأدغالها مخيفة، وقنواتها كثيرة ضاقت عن مجال الخيل، وأصحابه أكثرهم فرسان[٤]، إذ كان ينبغي عليه أنْ يجعل جلَّ جيشه من المشاة لا من الفرسان الذين يمتطون صهوات جيادهم، ليستطيعوا دخول المنطقة والتمكن من مقارعة العدو وتفويت فرصة التحصن منهم عليه وهو أمر لا يخفى حتَّى على مَنْ لم تكن له خبرة كبيرة في فنون القتال .

وفي هذا – كما يبدو – أُولى خطوات الفشل والهزيمة بالنسبة للعباسيين، وفيه ما فيه من هدرٍ للوقت والجهد والمال، إذْ بقي جيش الدولة العباسية تحت قيادة القائد التركي جعلان زُهاء ستة أشهر[١] مرابطاً قبالة مدينة الزنج وصاحبهم، ولم يستطع فعل أي

---

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩٣/٧ .

[٣] – المصدر نفسه ٢٢٥/٦ .

[٤] – تاريخ الطبري ٥٩٥/٧ .

[١] – تاريخ الطبري ٤٧٦/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٥/٦ .

شيءٍ، بل بالعكس، فإنَّ علياً بن محمد هو الذي بادر جيش الدولة بالهجوم عليه حيث تسلَّلَ أصحابه تحت جنح الظلام إلى مؤخرة جيش جعلان وأنقضُّوا عليها، وبذلك أحدثوا ارتباكاً شديداً وبلبلةً وفوضةً عارمةً بين صفوف الجيش العباسي حتَّى أُصيب كلُّ الجند بحالة من الهلع والرعب، بل أوقعوا منهم قتلى كثيرين وأعملوا السيوف والرماح في صفوفهم[٢] .

وهذا ليس بالغريب على صاحب الزنج علي بن محمد الذي تفنَّن في مفاجأة أعدائه وأتقن جميع أساليب التخندق والاختفاء والمباغتة مِمَّا سبَّب في زرع الهلع والرُّوْعَ في جيش الدولة وأوقع قادتها في حَيرة وأرق .

أمَّا جُعلان قائد جيش بني العباس التركي، فلم يجدْ بدّاً من الانسحاب[٣] إلى البصرة والاحتماء بها ليتَّقي ولو جزءًا من خطر الزنج وقائدهم علي بن محمد الذي لم يقف عند هذا الحد، بل أنَّه أخذ يتحيَّن الفرص ولم يفوِّتْ أيّاً منها حتَّى أنَّه وأصحابه هاجموا أسطولاً للعباسيين يتكون من أربعةٍ وعشرين مركباً كان متِّجهاً إلى البصرة[٤] ، فكانت معركةً حامية الوطيس مع جيش الدولة ذهب فيها عددٌ كبيرٌ من الضحايا بين قتلى وجرحى؛ ومع ذلك فقد استولى الزنوج على هذا الأسطول ، وانتهبوا من الأموال والغنائم الشيء الكثير، وكان هذا الفتح بالنسبة له أمراً طبيعياً فهو الذي أمر أصحابه وحثَّهم على الهجوم على هذا الأسطول عندما كان على يقينٍ من السيطرة عليه، فقد روى صاحب الزنج بعد أنْ استولى على الأسطول بأنَّ هذا الاستيلاء عليه وهذا النصر كان وفق إلهامٍ خوطب من خلاله من السماء عندماً سمع صوتاً يخاطبه قائلاً :- " قد أطلَّك فتحٌ عظيم "[١] .

وكان من البدهي في ظلِّ هذه الانتصارات التي تسجل لعلي بن محمد وأتباعه على حساب ذلك القائد التركي جعلان وجيشه جيش الخلافة، أنْ تعمد الخلافة إلى عزله[٢] لِما ظهر منه من عجز كاملٍ ليس على سحق صاحب الزنج وأتباعه

---

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢٢٥ .

[٣] – تاريخ الطبري ٧/٥٩٥ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢٢٥ .

[٤] – تاريخ الطبري ٩/٤٧٦ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢٢٥ .

[١] – تاريخ الطبري ٧/٥٩٥ .

[٢] – تاريخ الطبري ٩/٤٧٦ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/٢٢٥ .

والقضاء عليهم فحسب، بل لأنَّه لم يستطع صدَّ الزنج وقائدهم والذود على سيادة الدولة وشرفها .

بداية الغزو والتوسع على حساب الخلافة (٢٥٦هـ/٨٧٠م):

لقد رأينا كيف أنَّ ساعد الزنج قد أشتدَّ، وقويت شوكتهم حتَّى بلغت جرأتهم على الدولة وأمصارها الذروة، وأخذوا يوسعون من طموحاتهم وبذلك توسَّعت رقعة الأرض التي يمارسون عليها سيادتهم وسلطانهم، وكان السبيل الوحيد أمامهم إلى ذلك واضحاً بالنسبة إليهم، حيث تمثَّلَ في الغزو والاحتلال لمدن الدولة وأريافها، وضربها في عمق أمصارها والسيطرة على المواقع الحسَّاسة فيها من موانٍ ومنافذ، وهي التي تُعدُّ عصب الحياة بالنسبة إليها، فها هم يبدأون بشن الهجوم على الأُبلَّة .

غزو الزنوج للأبُلَّة (٢٥٦هـ/٨٧٠م):

ويستمر زحف الزنج بقيادة صاحبهم علي بن محمد الذي – فيما يبدو – أنَّه على عجلة من أمره؛ لأنَّه يدرك تماماً أنَّه يمرُّ بظروف مواتية قد لا يجدها فيما يأتي في المستقبل القريب، ففي ٢٥ من رجب سنة ٢٥٦هـ الموافق ٨٧٠/٦/١٩م أقدم الزنوج على مهاجمة الأبلة واكتساحها لِما تمثله من أهمية بالغة من حيث الموقع الجغرافي والمكانة الاستراتيجية الهامَّة التي تتمتَّع بها، والتي تعوِّل عليها الدولة العباسية كثيراً؛ فهي عبارة عن ميناء تجاري تقع على إحدى ضفَّتيْ نهر دجلة البصرة من أحد نواحي الخليج الفارسي[1] بحيث يقع شط العرب شرق هذه المدينة العظيمة؛ وهي مدينة عامرة بما فيها من دُور وأسواق ومساجد وغيرها من المرافق، ومن بين المدن الكثيرة التي تُحيط بالبصرة، " فهي من الجمال بحيث لا يمكن حدَّها أو وصفها "[2] .

---

[1]– معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ٨٩/١ .

[2]– سفر نامة لناصر خسرو العلوي (٤٨١هـ/١٠٨٨م) (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) (د/ن) ، ص٩٩ .

وقد جمع الزنج الكثير من الغنائم من بينها كمّيات هائلة من السلاح والعبيد بعد معركة دامية لم تدمْ طويلاً انهارت على إثرها المدينة لتسقط في أيدي الزنوج ويسيطرون على حصنها بعد أنْ أُغْرِقَ من أهلها وقتل خلقٌ كثيرٌ تبعه إضرام النيران وحرق معظم البيوت في المدينة المبنية من خشب الساج[٣] .

وعلى ما عرفنا من أهمية بالغة لهذه المدينة من نواحٍ شتّى يمكن القول بأنَّ دخول الزنوج لهذه المدينة واحتلالها يُعدُّ بالنسبة إليهم انتصاراً باهراً ومكسباً غالياً، أمّا بالنسبة للدولة العباسية، فهو خسارة فادحة وبداية التقهقر والتراجع والانحسار بسبب ما يحققه الزنج وصاحبهم علي بن محمد بانتصاراته هذه المتوالية التي تمكنه من التوسّع وزيادة المدِّ على حساب الدولة العباسية وملكها .

ولعلَّ في هذا ما فيه من دفع للزنج على الاستمرار في مشوارهم الموفق ومتابعة الخطى الحثيثة استكمالاً لهذه البداية المشجعة، فهي تُعدُّ بالنسبة إليهم فاتحة للانتصارات الواعدة تعدهم بإحراز مزيدٍ من التفوق والانتصارات المتلاحقة .

غزو الزنوج لعَبّادان (٢٥٦هـ/٨٧٠م):

لم يتوقَّفْ طموح صاحب الزنج علي بن محمد عند هذا الحد، بل ارتفعت معنوياته هو وأتباعه وأتخذ خطى جريئة جديدة خصوصاً بعدما شعر بنشوة النصر الذي كان شديد الوقع وقاسي الوطء على العباسيين والقائمين على الخلافة، فلم يكن ليقتنع بما توصَّل إليه من فتحٍ باحتلال الأبلة والسيطرة عليها وانتزاعها من بني العباس، فاتَّجه إلى (عبادان)، وهي جزيرة بها بلدة صغيرة تقع في مصب نهر دجلة العوراء قرب البحر[١]؛ وقد فتح أهلُها أبوابها واستسلموا لعلي بن محمد وأتباعه دون قيدٍ أو شرط[٢] لِمَا سمعوا من أخبار عن ما لاقته الأبلة من صاحب الزنج

---

[٣]– تاريخ الطبري ٤٧٧/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٥/٦ .

[١]– معجم البلدان لياقوت الحموي ١٠٤/٦ – ١٠٥ .

[٢]– تاريخ الطبري ٤٧٧/٩ .

وأتباعه من دمارٍ وقتلٍ وحرقٍ[٣]، فكان هذا من شأنه أنْ يزرع الرعب والخوف في نفوس أهل عبادان فجعلهم يسلِّمون مدينتهم طائعين ذالّين[٤] .

فدخل الزنوج المدينة وكالعادة أقدم علي بن محمد على تحرير العبيد الذين كانوا بها وضمَّهم إلى مقاتليه بحيث يزداد عددُ أصحابه وتزيد عدتهم وعتادهم خصوصاً بعدما تحصَّل على غنائم كثيرة وسلاح وفير وُجِدَ بعبادان[٥] .

ومِمَّا لاشكَّ فيه أنَّ صاحب الزنج قد أحرز باحتلال عبادان انتصاراً جديداً زاد من قوته وقوَّى شوكته وأجَّجَ من خطره الدَّاهم على الدولة العباسية الذي بدأت تهتزُّ له أركانها وترتعد له فرائس رعاياها ويمزِّق استقرارهم .

والواقع أنَّ سقوط عبادان بهذا الشكل له بعدان اثنان تمثَّل الأول في دخولها باستسلام أهلها دون مقاومة وفي هذا ما فيه من التدليل على سطوة الزنوج التي بدأ الناس يخشونها ويتمنعون بسببها عن مواجهة الزنوج ومنازلتهم وفي هذا خطر كبير على معنويات أهل البلدان والأمصار الواقعة تحت سيطرة الدولة العباسية الذين بدأوا بالتساقط تباعاً رعباً وهلعاً من الزنج وسطوتهم .

أمَّا البعد الثاني فيتمثَّلُ في ازدياد ملك الزنج تتراً إذ يزداد مدَّهم وتتسع الرقعة التي يسيطرون عليها وهذا كله على حساب العباسيين الذين صار يؤرِّقهم أمر الزنوج كثيراً .

وكما هو متوقع، فلم يكن علي بن محمد ليقفَ عند هذا الحد فالرحلة أمامه – فيما يبدو – طويلة والهدف أكبر وأعظم من الأبلة وعبادان .

فقد واصل صاحب الزنج زحفه تجاه الأهواز مروراً بـ(جُبَّى)[١] تلك البلدة التابعة لأعمال خورستان[٢] التي تعرضت هي الأخرى إلى أعمال النهب والقتل والحرق والتخريب التي يكاد الزنوج يتَّخذونها عادةً في غاراتهم وزحفهم، فانهارت بشكلٍ سريع وتمكَّن منها علي بن محمد بجيشه فحرَّرَ عبيدها وضمَّهم إلى جيشه .

---

[٣]– المصدر نفسه ٤٧٧/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٦/٦ .

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩٤/٧ .

[٥]– المصدر نفسه ٢٢٦/٦ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٦/٦ .

[٢]– معجم البلدان لياقوت الحموي ٤١/٢ .

وواصل زحفه الذي كان مقصده الأهواز لِما تمثله هي الأخرى من أهميةٍ بالغةٍ من حيث الموقع الجغرافي والمكانة السياسية بالنسبة للدولة العباسية، فهي تُعدُّ عاصمة الناحية .[٣]

غزو الزنوج للأهواز (٢٥٦هـ/٨٧٠م) :

تحرك صاحب الزنج محمد بن علي وجيشه زاحفاً تجاه مدينة الأهواز عاصمة مدن تلك المنطقة المتاخمة للخليج الفارسي وسامراء والتي تقع على نهر (كارون) المعروف بهذا الاسم في الوقت الحاضر .

والواقع فإنَّ السطوة والقوة اللتين يتمتع بهما جيش الزنج انهارت أمامهما معنويات أهالي تلك المدن الآمنة وحكامها وجنودها حتَّى اختلفوا بين منسحبٍ مستسلمٍ ومواجهٍ منهزمٍ .

هذا الأمر حدى بوالي الأهواز وقت ذاك (سعيد بن يكسين) إلى الانسحاب بجيشه[٤] أمام الزنوج، ولعلَّه كان مصيباً إذ جنَّب هذه المدينة ويلات التقتيل والتنكيل والحرق والتخريب، بل أنَّ صاحب الزنج وأتباعه لم يمسُّوها بسوء غير أنَّ صاحب الخراج والضياع والأملاك (إبراهيم بن المدير) قرَّر المواجهة ورفض الانسحاب والاستسلام للزنوج ذوداً عن أملاكه وأمواله إلاَّ أنَّه لم يصمد طويلاً أمام الزنج وصاحبهم الذي تمكَّن منه وآسره ثمَّ صادر جميع أمواله وأملاكه[٥] بما في ذلك عبيده الذين عمد علي بن محمد إلى تحريرهم ومن ثَمَّ ضمهم إلى جيشه وفي هذا ما فيه من دعم وقوة له ولجيشه الذي بات له دورٌ خطيرٌ في انهيار قوى الخلافة العباسية وإحباط همم القائمين عليها .

وبهذا تحقَّقَ سقوط[١] الأهواز في يوم الاثنين ١٧رمضان سنة ٢٥٦هـ/١٤آب سنة ٨٧٠م .

---

[٣]– تاريخ الطبري ٤٧٧/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٦/٦ .

[٤] – تاريخ الطبري ٤٧٧/٩ .

[٥] – تاريخ الطبري ٤٧٧/٩، ٤٧٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٦/٦ .

[١] – تاريخ الطبري ٥٨٧/٩ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٦/٦ .

محاولة الدولة العباسية صد الزنج (٢٥٧هـ/٨٧١م):

في بادئ الأمر، وفي تلك الفترة الماضية، والطويلة نسبياً لم يسجل التاريخ للدولة العباسية أيَّ تحركٍ جاد ضد الزنج وصاحبهم الذي أخذ زحفه يتوالى وانتصاراته التي اكتسح بها جانباً كبيراً يعدُّ مهماً من أملاك الدولة العباسية، وتتعاظم – على نحو ما رأينا آنفاً – حتَّى أنَّه كاد أن يسدَّ الطرق والمنافذ التي تتصل عن طريقها الخلافة العباسية بالعالم الخارجي .

ولعلَّ في هذا ما فيه من دلالة على البلبلة والتخبط اللذين كانا يسيطران على الخلافة العباسية وأعوانها في جميع أمصار الدولة جراء ما لحق بها من عبث الزنج بها وبأهلها، فعلى سبيل المثال أنَّك تجد عاصمة الخلافة سامراء تعاني انشقاقاً ظاهراً واضطراباً مخلاًّ بين من كانوا يتقاسمون السلطة فيها وفي آنْ بدأتْ المدن العباسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام زحف الزنج وتقع تحت وطأتهم وسطوتهم، وسلطانهم .

فنجد الأتراك يتآمرون[٢] على الخليفة المهتدي وهو حديث العهد بالخلافة إذ لم يمر على ولايته سنة واحدة من توليه الحكم .

ولعلَّ في هذا وغيره ما يدعو للاستغراب والحَيرة والعجب من أمر الدولة التي تتساقط أشلاؤها أمام أعين القائمين عليها ولم يحركوا ساكناً؛ فالفرقة والتناحر خلَّفا أثاراً سيئة انعكست على سطوة الدولة فجعلاها عاجزةً لا تقوى على الصحوة والنهوض في وجه العدو ودرء خطر الزنوج الداهم، وهو بلا شك وضع مترِدٍ لا يبشِّر بخير بالنسبة للخلافة العباسية، بل بالنسبة للدولة بأسرها إذ من شأنه أنْ يضاعف طمع الطامعين ويذكي نار ثورة الثَّائرين، وهذا تماماً ما جرى وحدث على نحو ما سوف نرى بعونه تعالى .

لقد بقيت الأمور في الحقيقة أثناء حقبة خلافة الخليفة المهتدي على ماهي عليه من التردِّي. إذ زحف الزنج على مدن الدولة وتطاولوا على الخلافة، والخلافة والدولة لم

---

(٢) – البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٢٧/١١، ٢٨ .

تحرّكا ساكناً؛ وعلى هذا الوضع الخطير يمكن القول بأنَّه كان بإمكان الزنوج اكتساح الخلافة العباسية من الأساس وتقويض ركائز الدولة العباسية من الأصل .

إلاَّ أنَّ ذلك لم يدم طويلاً حيث تمَّ تغييرٌ في إدارة الدولة العباسية لم يكن في صالح الزنج، بل كان إيذاناً بصعوبة الأمور وتعقيدها أمام الزنوج وصاحبهم، فصارت بذلك مهمتهم صعبة، بل تكاد تكون مستحيلة . أمَّا بالنسبة لعلي بن محمد صاحب الزنج فصارت الأمور على نحوٍ لم يكن ليرغب فيه إذ صار ينطبق عليه المثل الذي قال قائله : " قَدْ تَأتِي الرِّيَاحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السَّفنُ "[1] .

فقد تمَّت مبايعة الخليفة المعتمد يومَ الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب سنة٢٥٦هـ/٨٧٠م[2] ، الذي صارت الأمور أثناء خلافته في يد أخيه أبي أحمد الموفق لصرامته وشدته وقوة شخصيته التي مكنته من الإمساك بزمام الأمور والقبض عليها بيد من حديد وبهذا لم يحتكم أخوه الخليفة المعتمد إلاَّ على اللقب والصورة فقط[3] .

وقد استطاع أبو أحمد الموفق إلى حدٍّ بعيد أنْ يستردَّ جانباً كبيراً من هيبة الدولة والخلافة ومنعتها[4] الأمر الذي كلَّفه وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً أغفله هذا بعض الشيء أو برهة من الزمن على مواجهة الزنج ومقارعة صاحبهم؛ فالخلافة كانت على شفير الهاوية وقريبة جداً من الانهيار بسبب الفساد المستشري بين أركانها نتيجة تسيّب القائمين عليها أولاً، زد على ذلك ما لاقته من عنف الزنوج الذين باتوا يقضُّون مضاجع العباسيين ويرهقونهم؛ وهذا في حدِّ ذاته يعدُّ عقبةً أثقلت كاهل

---

[1]– يروى: تجري الرياح بما لا تشتهي السُّفنُ، وقد ذكره الميداني ضمن أمثال المولدين، ينظر مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد محمد النيسابوري ت(٥١٨هـ) (طبعة جديدة منقَّحة) (دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع) سنة١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ٢٠٧/١ .

[2]– تاريخ الطبري ٤٧٨/٩ .

[3]– الفخري في الآداب السلطانية ص١٨٣ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٥١/١١ وأخبار الدول المنقطعة لابن ظاهر الأزدي ت(٦١٣هـ) تحقيق الدكتور علي عمر (ط/١) (مكتبة الثقافة الدينية/القاهرة – مصر) سنة١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٢٨٦ والأيام الأخيرة في حياة الخلفاء للدكتور إيلي منيف شهلة راجعه وقدَّم له محمد عبد الرحيم (ط/١) (دار الكتاب العربي/دمشق، القاهرة) سنة١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١١٢ .

[4]– الأيام الأخيرة في حياة الخلفاء للدكتور إيلي منيف شهلة ص١١٢ .

الموفق وأخذت جانباً كبيراً من مهامه ومسؤلياته قبل أن يتفرغ لمهمته الأصلية وهي قتال الزنج والقضاء عليهم ومن ثَمَّ تخليص الدولة العباسية منهم .

ومع ذلك لم ينتظر الموفق حتَّى يطيب له زمانه، بل أنَّه قرَّر التنغيص على الزنوج ومضايقتهم بالمواجهة، فريثما يتحقَّق له ذلك أرسل إليهم قوةً في رجب سنة٢٥٧هـ/٨٧١م بقيادة سعيد بن صالح، المعروف بالحاجب[١] .

فاتَّجه هذا القائد بجيشه من فوره صوب نهر يدعى نهر معقل ويتفرَّع منه نهر يسمَّى المرغاب الذي كان تعسكر به قوَّةٌ للزنج دارت بينه وبينها معركة حامية الوطيس استطاع سعيد بجيشه التَّغلب عليها وهزيمتها وقد حرَّر على إثرها عدداً من النساء كنَّ سبايا في أيدي الزنج إلاَّ أنه أُصيب في هذه المعركة بجراح بليغة[٢] أرغمته على الانسحاب فقرَّر اللجوء إلى مكان آمن فوجده في منطقة تسمَّى هطمة فأناخ فيها وجيشه ليعيد الكرَّة على الزنج[٣]، بعدما تطيب جراحه وبعد إعادة تعبئة جيشه ثانية .

وهكذا دارت المعارك الطاحنة بينه وبين الزنج وتواصلت انتصاراته على الزنج خلال شهري رجب وشعبان حتَّى استنهضت هِمم سكان الفرات الذين أخذوا يساندونه ويعاضدونه رجالاً ونساءً[٤] .

ولأنَّ الأيام دولٌ بين الناس لم يدُمْ طويلاً تفوق الحاجب على الزنج، فقد تبدلت الأمور لتصيرَ أكثر ملائمة للزنج وقائدهم عندما أخذوا الحاجب وجيشه على حين غُرة في هجوم ليلي فأذاقوه شرَّ هزيمة وأعملوا في جنده تقتيلاً كثيراً ومن ثَمَّ أحرقوا معسكره وتركوه عاجزاً لا يقوى على مواجهة ثانية، ولمَّا تيقَّن الخليفة المعتمد من عجز الحاجب عزله، وعيَّنَ بدله قائداً أخرَ يُدعى (منصور بن جعفر الخياط)[١] .

وعندما تسلَّم هذا القائد أمر الجيش بدأ بحصار شامل للزنج ومناطقهم التي يتولونها وكان هذا أمراً موجعاً بالنسبة للزنج؛ لأنَّه مُحكم وكان ليضرَّ بهم ويؤلمهم كثيراً لو كُتب له الاستمرار والديمومة؛ ولأنَّ الزنج كانوا فطنين لوقع هذا الحصار وآثاره السيئة

---

[١]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٥/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٧/٦ .

[٢]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٩/٦ .

[٣]– تاريخ الطبري ٥٩٩/٧ .

[٤]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٦/٨ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٠/٦ .

عليهم في حال استمراره فبادروا حثيثين إلى العمل على فكِّه فكمنوا لجيش الخياط وباغتوه فقتلوا عدداً ليس بالقليل وأغرقوا كثيراً من جنده[٢] .

ولما كان الزنج يحاربون عدوَّهم على كلِّ الصُعد وبشتَّى أنواع الخطط العسكرية منها والمعنوية فقد حملوا زهاء خمسمائة رأس[٣] إلى معسكرهم الذي يقع على نهر المعقل لإحباط معنويات جيوش الخلافة وأعوانها هذا من جانب، ومن جانب أخر للإعلان عن هزيمة الخياط هذا القائد العباسي[٤]، وفشله الذريع – كسابقه القائد العسكري الحاجب – في الوقوف في وجه الزنوج والقضاء عليهم أو على الأقل صدهم وإيقافهم عند حدِّهم .

وفي ذات الوقت كانت انتصارات صاحب الزنج وأتباعه تتوالى في الأهواز، فكان القائد الزنجي المهلبي يحصد الانتصار تلو الانتصار على الخلافة وأعوانها حتَّى أنَّه قتل شاهين بن بسطام وهو من كبار أعوان الخليفة وابن عمٍ له كما قُتل معه خلقٌ كثير[٥] .

ولعلَّ في هذه الانتصارات التي سجلها الزنج مِا يجعلهم يبلغون درجة عالية من الزهو والخُيَلاء أكسبتهم هذه اعتداداً بأنفسهم لا يُقهر وحفزهم على الإقدام ومقارعة الأعداء، لتحقيق المزيد من الانتصارات، وشدَّ من أزرهم، ورفع هممهم؛ حتَّى أنَّ قائدهم الأعلى علي بن محمد أصدر أوامره لإبراهيم بن يحي المهلبي بالزحف إلى البصرة والتمهيد لاحتلالها بضرب حصارٍ عليها وقطع مواصلاتها التي تصلها بدجلة[١] .

احتلال البصرة (٢٥٧هـ/٨٧١م):

لقد ضاق أهل البصرة ذرعاً بالزنج وقائدهم – كما عرفنا آنفاً – وزاد فزعهم ورعبهم منذ أنْ بَنَى صاحب الزنج مدينته المختارة متاخمة لمدينة البصرة وأدركوا أنَّه لا طاقة لهم بصاحب الزنج وأتباعه، ولا مأمن لهم منهم، ولا ملاذ لهم سوى جيش

---

[٢] – المصدر نفسه ٢٣٠/٦ .

[٣] – تاريخ الطبري ٤٨١/٩ .

[٤] – المصدر نفسه ٦٠٠/٧ .

[٥] – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٦/٨ والكامل في التاريخ لابن أبي الأثير ٢٣٠/٦ .

[١] – تاريخ الطبري ٤٨٢/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣١/٦ .

الدولة، فأوكلوا أمرهم إلى الخلافة العباسية مستعينين بها، والتي قامت بدورها بإرسال قوة بقيادة ذلك القائد التركي جُعلان[٢] الذي عرفنا المصير الذي صار إليه فيما سبق من حديث عندما تخندق قريباً من قوات الزنج على مشارف مدينة المختارة مداوماً على هذه الحال زهاء الستة أشهر دون أنْ يجرؤ على مهاجمة الزنج، مِمَّا حفَّز هذا عليا بن محمد – الذي دأب على التبييت ونصب الكمائن لجيوش الخلافة – فأقدم على مباغتة جعلان وقواته الذي لم يكن – فيما يبدو – أهلاً لهذه المعركة بما يفتقده من حنكة وخبرة في فنون القتال، ويدلُّك على ذلك كون أكثر أصحابه من الفرسان الأمر الذي ولا شك يعيقه عن حرية الحركة والمناورة في ساحة المعركة تلك ذات الأرض كثيرة الأشجار الملتفَّة المتشابكة، والقنوات المتفرعة الكثيرة، والتي لا تتيح مجالاً لأصحابه، ولا لخيولهم أثناء القتال؛ وهذا في آنٍ كان الزنج متمرسين في مثل هذه الطبيعة، ولِمَ لا؟ فهي الأرض التي عرفوا والطبيعة التي آلفوا، ففيها وعليها استطاعوا قطع كلِّ المسالك والسبل على جيش الخلافة، الأمر الذي أحدث بين صفوفه ارتباكاً وبلبلةً شديدتين، ودَاخَلَ الجندَ العباسيين الرُّعبُ والحيرةُ على أشدِّ ما يكون الرعب والحيرة والاستغراب من هول ما لاقوه من صلابة ومباغتة من جيش الزنج، مِمَّا زاد في عدد القتلى الذين سقطوا من بينهم، حتَّى أنَّ جعلان ذلك القائد التركي صار مرغماً على الانسحاب والتراجع محتمياً بالبصرة عاجزاً عن مواجهة، بل مقاومة خطر الزنج الداهم.

وهنا يجدر بنا ألاَّ ننسى أنَّ علياً بن محمد كان إلى جانب القتال وخوض معامع النازلات يمارس التبشير بحركته والدعوة لثورته وينشر بين الناس مبادئها[١] .

كما تجب الإشارة هنا إلى دور المرأة في هذه الثورة وحروبها بحيث يُذكر أنَّ نساء الزنج قد اشتركن في معارك اقتحام البصرة، فكنَّ يجمعنَ الآجر ويمددنَ به الرجال[٢]، ولاشكَّ في أنَّهنَّ شاركنَ في أعمال أخرى كثيرة تأكَّدَ فيها لهنَّ دورهنَّ الفاعل والواضح في هذه الثورة .

---

[٢] – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٥/٢ .

[١] – تاريخ الطبري ٤٣٣/٩ .

[٢] – المصدر نفسه ٤٣٦/٩ .

فعودٌ على بدءٍ، فإنَّه بهذه الهزيمة لجيش الدولة ثبت فشل هذا القائد التركي الأمر الذي جعل الخليفة يصدر أمراً بعزله لعجزه عن الصمود أمام علي بن محمد وأتباعه. ولعلَّ مصير القائد التركي هذا وما آل إليه مصير جنده جرَّاء إغارة صاحب الزنج وأتباعه عليهم هو الذي شجَّع علي بن محمد على أنْ يجرأَ على مدينة البصرة، ولعلَّ النصر المظفَّر الذي أحرزه عليهم هو الذي فتح شهيته عليها وأذكى نار أطماعه فيها وفتَّح عينيه عليها لأهميتها فوضعها نصب عينيه حتَّى أنَّه ادَّعى يوماً أنَّ هاتفاً من السماء هتف إليه بأنْ :- " قد أطلَّك فتحٌ عظيم "[٣]؛ فاقتنع بذلك أصحابه وأطاعوا أمره بالإغارة على عدد أربعٍ وعشرين سفينةً في طريقها إلى البصرة، فدارت معركة طاحنة بين الزنج والقائمين على هذا الأسطول أودت بحياة كثيرين من الطرفين .

وكانت النتيجة استيلاء الزنج على كامل هذه السفن بما فيها من غنائم طائلة وسبايا كثيرة .

ومنها صار ديدن صاحب الزنج وأتباعه قطع المواصلات على البصرة ومحاصرتها تمهيداً لاحتلالها والسيطرة عليها، فطوَّروا تحركاتهم ضد هذه المدينة حتَّى ضُرب عليها حصارٌ شاملٌ للضغط عليها ودفعها للاستسلام أضف على ذلك أنَّهم عمدوا إلى تخريب المدن التي حولها .

ولعلَّ الظروف التي تمرُّ بها البصرة آن ذاك كانت مواتية ومشجعة للزنج للانقضاض عليها إذ كانت تعاني من انقسام سببه تلك الضغائن بين طوائفها وأحزابها .

فهي إذن تعيش حالةً من الانقسام يسودها جوٌّ من الفرقة والتشرذم بين قواها التي تكاد تكون منهارة .

مِمَّا ساعد على نجاح الحصار المضروب عليها من قِبل الزنج والذي تسبَّبَ في ندرة أقوات الناس وحاجياتهم مِمَّا سبَّبَ في غلاء أسعارها[١] .

ولقد أنهكهم الحصار فعضَّ الجوع أهل البصرة وكثر الوباء بها واستعرت الحرب فيها بين الحزبين المعروفين آن ذاك بالبلالية والسعدية .

---

[٣] – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٠٢/١٢ .

[١]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٥٦/١٢ .

ففي الواقع أنَّ البصرة تعيش آنذاك نزاعاً كبيراً يؤرقها، وتُقاسي ويلاته المستمرة التي لا تكاد تقف عند حدٍّ، ذلك النزاع الذي نشأ واستعر، وكان طرفاه حزبان من أكبر الأحزاب في المدينة، وهما حزب البلالية وحزب السعدية اللذان يعدَّان فريقين من فرق الأتراك[٢] – وإنْ لم يكن هذا مؤكَّداً، بحيث انفرد به المسعودي دون غيره من المؤرخين مِمَّن كتبوا عن ثورة الزنج – اللذين حركتهما عصبية وعنصرية شديدتان، وفيما يبدو أنَّ كلاًّ من هاتين الفرقتين يسكن حيّاً غير الحي الذي تسكنه الأخرى؛ ويُقال أنَّ أوَّلَ شرارة في فتيل هذه الفتنة بينهما كانت في سنة٢٥٢هـ/٨٦٦م في زمن خلافة المعتز[٣]، ولقد تطور الانشقاق بين هذين الحزبين حتَّى صار عداءً تستعر ناره وتتأجج إلى أن صار تصادماً دموياً قاست ويلاته مدينة البصرة وتجرَّعت الأمرَّيْن جراء هذه الفتنة التي استمرت إلى قُبيل مجيء صاحب الزنج إليها[٤]. فإذن تفاقمت الفتنة وعظم التشرذم بين جلِّ أهل البصرة، وقد عمَّ الجوع والقحط بين جموعها حتَّى تناحر أهلُها من أجل لقمة العيش، ولعلَّ في الصراع الذي نشأ بين حزبي البلالية والسعدية ما يؤيد ذلك ويؤكده على نحو ما مرَّ بنا قبل قليل وهو في كلِّ الأحوال أمرٌ يخدم كثيراً مصلحة صاحب الزنج وأتباعه في تحقيق أطماعه وطموحاتهم في احتلال مدينة البصرة .

ومثلما أنَّ الصراع قد دبَّ بين أهالي البصرة للظروف السيئة التي تمرُّ بها وعلى رأسها عدم الحصول على المِيرة؛ فإنَّ صراعاً أخر عموماً يدور بين قائد العباسيين في البصرة وصاحب الزنج عليها وعلى كيفية ضمان وصول المؤن إلى مدينته وقطعها على غريمه؛ واستطاع القائد العباسي منصور الخياط إلى حدٍّ ما تأمين وصول التموين للبصرة إلاَّ أنَّ ذلك لم يدم طويلاً[١] بسبب محاولات صاحب الزنج الحثيثة قطعها عنه وإيصالها إلى أتباعه وجيشه بحيث حشد كلَّ إمكانياته لهذا الهدف فأوكل مهمة قطع المؤنة على البصرة إلى نخبة من قواده من بينهم علي بن

---

(٢)– تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ١٤٦/١ .

(٣)– مروج الذهب للمسعودي ٤٠٣/٢ .

(٤)– مختصر تاريخ البصرة لعلي ظريف الأعظمي تقديم وتحقيق الأستاذ عزة رفعت (د/ط) (مكتبة الثقافة العربية) (بيروت/لبنان) (د/ت)، ص٩٥، ٩٦ .

(١)– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٠/٦، ٢٣١ .

أبان ويحي بن محمد، وقد نجح على بن محمد في ذلك نجاحاً باهراً إذ تمكَّن من قطع المواصلات عن البصرة مرَّة أخرى وبذلك عاد أهلها إلى ما كانوا عليه من الضيق[٢] .

وبعد هذه الضغوطات الخانقة لهذه المدينة استطاع على بن محمد أنْ يستفيد منها بحيث اجتمعت لديه عوامل مهمَّة تمكنه – ولا شك – من القضاء على القيادة العباسية في المدينة واحتلالها، فمن هذه العوامل التي كانت نتاجاً للحصار الذي ضربه على البصرة تفشّي الفرقة بين أهالي البصرة وأصحاب القرار فيها، ومعاناة أهلها المجاعة والفاقة والعوز حتَّى لأتفه الحاجيات فخارت قوى كثيرٍ من أهل البصرة وتردَّت الأوضاع الأمنية واختلَّت، وقبل هذا كلِّه عمد علي بن محمد إلى تخريب القُرى المنتشرة حول البصرة[٣]، وفي هذا ما فيه من تضييق الحصار على البصرة وإحكامه والانفراد بها دون ساتر، الأمر الذي يساعد كثيراً على بث الرعب في الناس وإحباط الروح المعنوية للأهالي وخور عزائمهم؛ أضف إلى ذلك انضمام عدد كبير من الأعراب إلى جيش صاحب الزنج[١] بسبب ما يقوم به من دعاية لثورته وأهدافها إذ كان إلى جانب إدارة المعارك ومقاتلة العدو كان يقوم بالدعوة والتبشير لحركته هذه؛ زد على ذلك أنَّ هؤلاء المنضمين إليه من أهل البصرة قد رأوا أنَّ إشارات سقوطها في أيدي الزنج قد صارت واضحةً جليةً للعيان لِما رأوا من ظهور عوامل ومؤشرات تؤدِّي حتماً إلى سقوطها في أيديهم فانفتحت شهيتهم طمعاً في خيرات البصرة الوفيرة التي لا يتردَّدون في نهبها أثناء الاجتياح والاحتلال وبذا ضمنوا انهيار البصرة أمام الزنج .

ولمَّا أيقن على بن محمد من أنَّ الظروف صارت مواتية من حيث استعداد جيشه الذي كان على أحسن أحواله من حيث التعبئة المادية والمعنوية كذلك، وهذا يقابله ذلك التردِّي في الأحوال داخل البصرة كما مرَّ بنا آنفاً، قرَّر الزحف على هذه المدينة

---

[٢]– المصدر نفسه ٢٣٠/٦ .

[٣]– المصدر نفسه ٢٣١/٦ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣١/٦ .

واجتياحها وعقد العزم على ذلك، بل جعل من يوم الجمعة ١٧شوال سنة ٢٥٧هـ/٧سبتمبر ٨٧١م آواناً لتحريك جيشه صوبها والهجوم عليها[٢] .

بحيث رسم خطَّةً لذلك تمثلت في تقسيم الجيش على ثلاث فرق تدخل كلٌّ منها من جهةٍ، بحيث يتمُّ الهجوم على البصرة من ثلاث جهات وكان على رأس هذه الفرق الثلاثة القائد العام علي بن أبان .

دارت بين صاحب الزنج وجيش العباسيين معارك طاحنة كان تفوقه فيها على جيش الخلافة واضحاً جلياً منذ التقى الجمعان، فلم تقوى المدينة المنهكة وجيشها المهلهل على مواجهة الزنج فتمكَّن الزنج من المدينة المنكوبة وعلى رأسهم قائدهم الأعلى علي بن محمد الذي أخذ جيشه " يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت[٣]، ولحنكة صاحب الزنج وخبرته الحربية التي صارت تتنامى يوماً بعد يوم انسحب من المدينة لضمان عدم مباغتة جيش الخلافة له وإقامة الكمائن لجيشه وتلافي وقوع جنده فيها[٤] .

فتركها إذن وانسحب ليعود إليها يوم الاثنين ليعلن الزنوج احتلالهم لها وسيطرتهم عليها ولتعلن الخلافة العباسية سقوط هذه المدينة العظيمة في أيدي الزنج[١] .

ويروي المؤرخون هنا أنَّ علياً بن محمد قد أخلَّ بوعده وخان عهده عندما وعد أهالي البصرة بالسلم وأعطاهم الأمان حيث أخذ أصحابه ينتقمون منهم أشد ما يكون الانتقام فعملوا فيهم تقتيلاً وحرقاً حتَّى أنَّهم أقدموا على حرق المسجد الجامع بالمدينة ولم يراعوا له حرمة[٢] .

لعلَّ ما كان يعانيه العبيد من أسيادهم حفزهم على اعتبار أنفسهم بصدد الأخذ بالثأر مِمَّا جعلهم متعطِّشين للنيل منهم والتنكيل بهم حيثما صاروا قادرين عليهم فأعملوا سيوفهم في البصرة وأهلها حتَّى ذكروا أنَّ حشداً كبيراً من أهل البصرة أُعطوا الأمان بباب إبراهيم بن يحي إلاَّ أنَّ الزنج خانوا عهدهم " فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم

---

[٢] – تاريخ الطبري ٥٨٧/٩ .

[٣] – تاريخ الطبري ٤٨٣/٩ البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٣٤/١١ .

[٤] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٢/٦ .

[١] – تاريخ الطبري ٤٨٣/٩ .

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٢/٦ .

مرتفعة بالشهادة "[٣]، وعظم الخطب وعمَّها القتل والنهب والحرق، وقتلوا كلَّ من رأوا بها من أهل اليسار وأخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته، فكان القتل في أول أهل البصرة وأخرهم، حتَّى روي أنَّ عدد القتلى من أهل البصرة وصل إلى ثلاثة ألاف قتيلٍ[٤] مِمَّا يجعلها مجزرةً كبيرةً بكلِّ الوجوه والمقاييس .

أمَّا عن الحرق فقد أضرم الزنج النيران في كلِّ أنحاء المدينة فأحرقت كلُّ إنسان أو بهيمة أو أثاث أو متاع طالته، ثُمَّ بعد ذلك نهبوا وسلبوا حتَّى وقعت بين أيديهم الغنائم الكبيرة الكثيرة، ووقعت بأيديهم الحرائر سبايا من الهاشميات والعلويات والعباسيات وبِعنَ بأبخس الأثمان[٥]؛ وهكذا صار أهل البصرة الأسياد – في لمحة بصرٍ – عبيداً للزنج وصار الزنج أسياداً بعدما كانوا عبيداً .

وبذا سقطت هذه المدينة العريقة في أيدي الزنج الغزاة وباتت ترزح تحت سطوتهم وجبروتهم الذي دعاهم إلى ارتكاب أبشع الجرائم وأدهاها في حقِّ أهلها وضرب المدينة التي تعوِّل عليها الدولة العباسية في العراق كثيراً لأهميتها التجارية والاقتصادية إذ تُعدُّ الميناء الوحيد بالنسبة للعراق واحتلالها يعدُّ كارثة كبرى للقائمين على الخلافة العباسية وأتباعهم كما يعتبر تهديداً مباشراً للدولة وهزاً وتقويضاً لأركانها من أُصولها .

لهذا وذاك لم يستسلم القادة العباسيون أمام هذا الواقع المرير الذي فُرض عليهم، فهبَّوا مرَّةً أخرى لنجدة المدينة وتحريرها من براثن المحتل، فأصدر الخليفة العباسي المعتمد في ذي القعدة سنة٢٥٧هـ/٨٧١م لقوة من جيشه على رأسها القائد العسكري محمد المولد أوامره بالتحرُّك تجاه البصرة وتحريرها[١]، وقد كان له ذلك بالفعل بعد قتالٍ دامٍ، فأفتكها من أيدي الزنج بعدما سقطت بأيديهم على نحو ما مرَّ بنا آنفاً، وليس هذا فحسب بل أنَّه لم يكتفِ بذلك فاسترجع الأبلة كذلك بعد دحره للزنج وطردهم منها، وبذلك أخذ أهل البصرة الذين فرُّوا من ويلات الزنج في العودة إلى

---

[٣] – البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٣٤/١١ .

[٤] – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٢٤/١٢ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣١،٢٣٢/٦ .

[٥] – نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٧/٢ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٢/٦ .

بيوتهم بعدما أطمأنوا إلى ما أحرزته الخلافة من نصرٍ مؤزَّرٍ على الزنج وطردهم من مدينتهم .

ولأنَّ الحرب كرٌّ وفرٌّ، فإنَّ الزنج قد اعتمدوا ذلك في حساباتهم، فلم يهدأوا حتَّى أعادوا الكرة على جيش محمد المولد بعدما كمنوا له وتحيَّنوا له الفرصة المواتية .

وكان ذلك بقيادة يحي بن محمد ذلك القائد الزنجي المحنَّك الذي كُلِّف بهذه المهمَّة حديثاً، فلم يلبث أنْ ألحق بجيش العباسيين هزيمة منكرة وكبَّدهم خسارة فادحة، فأجبره على التقهقر إلى ضواحي المدينة[٢]، وبذلك فشل العباسيون في الاحتفاظ بمدينة البصرة تحت سيطرتهم طويلاً بعدما انتزعوها من أيدي الزنج[٣] .

ولم يكن حال جيش الخلافة العباسية في الأهواز بأحسن منه في البصرة، بل كان أسوأ حالاً منه وأمرُّ، حيث استطاع الزنج دحره، بل وقتل قائده منصور بن جعفر الخياط في سنة٢٥٨هـ/٨٧٢[٤] الأمر الذي يُعدُّ مبعثاً لزرع الرعب في نفوس مقاتلي جيش الدولة العباسية، وزيادة في مهابتهم لصاحب الزنج وأتباعه، مِمَّا يجعلهم يخشون مواجهته ونزاله بعدما قويت شوكته وارتفعت معنويات مقاتليه مما تحقَّق لهم من انتصارات باهرة عظم بها شأنهم بين الأمصار ليس في العراق فحسب، بل حتَّى في فارس، وصاروا يشكلون خطراً داهماً يقضُّ مضاجع الخلافة والدولة العباسية بأسريهما في أمصارها ونواحي سلطانها .

*****

---

[٢]– المصدر نفسه ٢٣٢/٦ .

[٣]– المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ١٣٦/١٢ .

[٤]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٣٤/١١ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٥/٦ .

المبحث الثاني/ مرحلة ما بعد
تسلم الموفق قيادة الجيش
(٢٥٧هـ/٨٧١م – ٢٧٠هـ/٨٨٣م)

فيما مضى في المرحلة الأولى يجد المتتبع لسيرة الزنج وثورتهم هيمنةً كاملةً لهم على المناطق التي اختاروها موطناً لثورتهم كما يلمس سطوةً لا مجال لكبحها، بعد أنْ أشتدَّ ساعدهم وقويت شوكتهم الأمر الذي جعل عجز القائمين على الخلافة العباسية ظاهراً للعيان .

وبهذا باتت الدولة العباسية بحاجة ماسة إلى أخذ التدابير التي تمكنها من إيقاف هذا الزحف الهادر الذي إنْ كُتِبَ له الاستمرار على هذا المنوال لا شكَّ بأنَّه سيستأصل جذور هذه الدولة ويقيِّض أركانها .

لذا سعى – وبجد – القائمون على الخلافة في دولة بني العباس حثيثين إلى إيجاد حلٍّ وتدارك الموقف وكانت النتيجة أنْ رشَّح[1] الخليفة المعتمد أخاه أبا أحمد الموفق لقيادة الجيش وأمر الولايات في صفر سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م الذي كان له فيما بعد دورٌ مفصليٌّ في الصراع بين الدولة العباسية وثورة الزنج الأمر الذي دفعنا – وبشدَّة – إلى تقسيم هذا الصراع إلى مرحلتين اثنتين الأولى سبقت تولي الموفق للقيام بمهام

[1]– تاريخ الطبري ٢/٨ .

قيادة الجيش – كما مرَّ بنا – والثانية وهي التي جاءت بعد توليه لها وكان فارسها باقتدار كما سنرى بعونه تعالى .

فإذن كلَّف الخليفة أخاه الموفق بمهمة القيام باكتساح خطر الزنج الداهم، وكان ذلك بعدما عقد له[٢] على ديار مُضر وقنَّسرين والعواصم في يوم الاثنين ٢٠ربيع الأول سنة٢٥٨م/٨٧٢م ؛ فقد أمر بالاتِّجاه صوب البصرة بعدما سلَّمه قيادة جيش عرمرم[٣] كامل العدَّة والعتاد والسلاح قوامه جمعٌ غفيرٌ[٤] .

وعندما تناهى إلى أسماع صاحب الزنج قدوم أبي أحمد الموفق إليه على رأس ذلك الجيش العظيم صار وأتباعه قلقين حتَّى نزل بقلوب بعضهم الرعب وحلَّ بهم الهلع، وكاد أمر هذا الجيش أنْ يحدَّ من عزائمهم الصلبة، وأدرك علي بن محمد ما أصاب بعضاً من أصحابه من وهن فأرسل مستغيثاً[١] بأحد قادته وهو علي بن أبان قائد جيش الزنج في الأهواز لينضمَّ إليه في البصرة لملاقاة جيش الخليفة العباسي وقد لبَّى علي بن أبان ومَنْ معه من الجند نداء زعيمهم علي بن محمد وانضمَّ إليه قبل اللقاء مع جيش الموفق بقليل[٢]، ثُمَّ التقى الجمعان في معركة طاحنة قُتل فيها (مفلح) بسهمٍ طائشٍ أصابه في صدغه لا يُعرف راميه يوم الثلاثاء فأصبح ميتاً يوم الأربعاء في غد ذلك اليوم وحُملت جثته إلى سامراء فدفن بها[٣]، وهو الساعد الأيمن لأبي أحمد الموفق .

ولِمَا كان من أهمية بالغة لمفلح هذا لدى الموفق وللدور الجوهري الذي يلعبه في جيش الخليفة تأثَّر الجيش لمقتله أشدَّ ما يكون التأثُّر، حتَّى أنَّه داخلته البلبلة وفشت في صفوفه الفوضى حتَّى كاد أنْ يختلَّ فينهار[٤]، بعدما ألحق به جيش الزنج

---

[٢]– المصدر نفسه ٤٨٨/٩ .

[٣]– عرمرم: الكثير من كلِّ شيء والشديد، ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة: (عرم) ومقاييس اللغة لابن فارس، مادة: (عرم) .

[٤]– تاريخ الطبري ٤/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٦/٦ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٦/٦ .

[٢]– تاريخ الطبري ٤٩٠/٩ .

[٣]– تاريخ الطبري ٤٨٩/٩، ٤٩٠ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٦/٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ٤٩٠/٩ .

مـاألحق مـن هزيمـة نكـراء فـي ٢٩أبريـل سـنة (٢٥٨هـ/٨٧٢م)، إلاَّ أنَّ حنكـة أبـي أحمد الموفق كانت حاضرةً فاستطاع الحفاظ على هدوء جيشه وتماسك سراياه، وذلك عندما انسحب بشكلٍ يدلُّ على رباطة جأشٍ وخبرةٍ عالية إلى الأبلة وسار إلى نهر أبي الأسد لإعادة تنظيم جيشه وإعداده لكرَّةٍ قادمة قريباً[٥] .

ولمَّا كان القتال كرّاً وفرّاً التقى الجمعان في معركة أخرى دارت رحاها هذه المرة في الأهواز[٦] فكانت كفَّةُ الموفق وجيشه هي الرَّاجحة فيها بحيث تمت إصابة القائد الزنجي يحي البحراني الذي يُعدُّ من أبرز قادة الزنج بجروح بليغة أُخذ على إثرها أسيراً حيث اقتيد إلى سامراء التي تمَّ تعذيبه فيها، فضُرب بالسياط أمام الناس، وليس هذا فحسب، بل قطعت يداه وكذلك رجلاه وأخيراً ذُبِحَ وأُحرِقَ[٧] . وبخصوص علاقة هذا القائد الزنجي برئيسه علي بن محمد صاحب الزنج، فيروي

المؤرخون أنَّ أمر هذا القائد كان هيناً على قائده صاحب الزنج لأسباب ذكرها في نصٍّ رُوي له ينمُّ على أنَّ علاقته به كانت فيما يبدو هشَّة يشوبها شيءٌ من التوجس والريبة حيث يستشفون ذلك من نصٍّ يُعزى إليه قاله عندما وفاه نبأ وفاة مساعده يحي البحراني، فقال :- " لقد خُوطبت فيه فقيل لي: قتله كان خيراً لك؛ لأنَّه كان شرهاً يخفي من الغنائم خيارها "[١]؛ فهنا يظهر جلياً أنَّ علياً بن محمد لم يكن حزيناً ولم يكترث بموت هذا القائد ولا للطريقة المسيئة له، والتي تمسُّ بشرفه كقائد مُثِّل بصاحبه وأحد مساعديه ذلك القائد المهم في جيشه، الأمر الذي دفعه صاحب الزنج عن نفسه باتِّهام يحي البحراني بالخيانة وعدم الإخلاص .

والواقع، فإنَّ المتتبع لخطوات الحرب والمعارك والمواجهات بين الجيش العباسي والزنج في هذه المرحلة يجد أنَّ جيش الخلافة يكابد مشاقاً كثيرةً وعنتاً كبيراً ومتاعبَ جمةً على رأسها شدة الزنج وتعنُّتهم وتفانيهم في القتال وصلابتهم، أضف إلى ذلك ظروفاً أخرى كانت تعاند العباسيين وقواتهم والتي تحوِّط أبا أحمد الموفق وتكبله،

---

[٥]- تاريخ الطبري ٥/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٦/٦ .

[٦]- تاريخ الطبري ٤٩٢/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٦/٦ .

[٧]- النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٢٨/٣ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٧/٦ .

[١]- البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٢٣٠/١١ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠١/٧ .

منها طبيعة الأرض القاسية التي تدور عليها المعارك والمنازلات التي يعمل فيها جيشه زد على ذلك تعوَّد جيش الزنج عليها وألفته لها، ولعلَّ من أهم مظاهر قسوتها وعورة تضاريسها التي امتلأت بالمستنقعات وحرارة الجو، إذ تُعدُّ تلك المناطق شديدة الحرارة في ذلك الوقت من السنة الذي تدور خلاله رحى الحرب، الأمر الذي ساعد على تفشِّي الأمراض وإصابة الجند بالأوبئة التي انتشرت في صفوفهم حتَّى كثُرَ بينهم الموت[٢] .

وبالطبع، فإنَّ ما تعرَّض إليه هذا الجيش من عوائق وعقبات ومتاعب تُعدُّ جسيمةً أجبرت الموفق أنْ يبقىَ رابضاً بجيشه في الأبلة أملاً من الله أنْ يقيه هجوم الزنج عليه، ليستعيد عافيته بعلاج أفراد جيشه المرضى والمصابين جرَّاء تلك المعارك الطَّاحنة والقتال الضاري، فكان له ذلك حيث برأ المرضى وتعافى المصابون من جيشه خلال هذه الاستراحة .

وعندها رأى أنَّ من مصلحته وجيشه أنْ ينتقلَ[١] إلى مدينة أخرى تكون له أكثر أماناً وتقيه من هجمات الزنج فأخذ يتخيَّر المواقع والأمصار، فوقع اختياره على مدينة باذاورد[٢]، وفي هذه المدينة كان المجال أوسع له وأرحب من أي مدينة أخرى لإصلاح ما فسد من أمر جيشه، وإعادة تنظيم صفوفه، وإعداد عدته، لذا قام بإصلاح الأعطاب التي أصابت بعض سفنه وعمد إلى الرفع من معنويات جيشه التي أصابها شيءٌ من الفتور وربَّما الوهن، فجدَّد لهم السلاح وأصلح أمر عدَّتهم وقام بتعبئتهم استعداداً للقاء جديد مع الزنج[٣] .

ولمَّا كان لقاء جيش الزنج ومقارعته ديدناً للموفق وجيشه زحف الموفق تجاه مكان عسكرة الزنج والتقى معهم بمحاذاة نهر أبي الخصيب ودارت بينهما معركةٌ طاحنةٌ كان من نتائجها قتلُ عددٍ كبيرٍ من المتحاربين من الطرفين، وجرح عددٍ أخر منهم ليس بالقليل[٤] .

---

[٢]– تاريخ الطبري ٤٩٣/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٧/٦ .

[١]– تاريخ الطبري ٤٩٣/٩ .

[٢]– هذه مدينة قرب مدينة واسط إذ تقع بينها وبين البصرة، معجم البلدان لياقوت الحموي ٣١/٢ .

[٣]– تاريخ الطبري ٩/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٧/٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ٤٩٣/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٦/٦ .

ولأنَّ أبا أحمد الموفق قد أعدَّ إعداداً جيداً لهذا اللقاء، فقد أبلى جيشه أحسن البلاء في هذه المعركة فضربوا بيد من حديد على جيش الزنج وآلموه أشدَّ ما يكون الإيلام وضغطوا عليه وطوَّقوه، وبهذا أحرزوا شيئاً من التقدم بادي الأمر [٥] يُحسب للموفق وجيشه .

إلاَّ أنَّ النتيجة كانت في النهاية للزنج الذين تمرَّسوا في فنون الحرب والقتال فأكثروا من الكمائن وترصَّدوا جند الخليفة بين الأدغال، واصطادوهم فتمكَّنوا منهم حتَّى أنَّهم استطاعوا الوصول إلى معسكر جيش الموفق وأضرموا فيه النيران، مِمَّا اضطرَّه إلى الانسحاب والتراجع في شعبان سنة٢٥٨هـ/٨٧٢م إلى واسط[٦]، وقد حقَّق جيش الزنج في هذه المعركة –علاوةً على انسحاب الموفق وتراجعه– نصراً أخر على الموفق حيث أحدثوا بلبلةً وتشرذماً في بعض صفوف جيشه إذ تفرَّق بعض مِمَّنْ كانوا معه من أصحابه[١] .

ولعلَّ في هذه المعركة ضربة قاسمة لجيش الخلافة بقيادة أبي أحمد الموفق الذي تفرَّق عنه معظم أصحابه حتى صار الجيش أجوفاً وهِناً لا يشكِّل أيَّ خطرٍ على أعدائه؛ لذا، فإنَّ أحمد بن الموفق بعد انسحابه إلى واسط رجع إلى سامراء في يوم الجمعة ٢٦ربيع الأول سنة٢٥٩هـ/٨٧٣م بعدما ترك محمد بن المولد خلفاً له في واسط[٢] .

وبذا يعدُّ هذا (أحمد بن الموفق) – على الأقل في هذه المرحلة – فاشلاً جديداً يسجل في تاريخ الدولة العباسية وينضمُّ إلى قائمة القادة العسكريين العباسيين الفاشلين أمام صلابة الزنج والتي فيما يبدو أنَّها آئلة إلى أنْ تطول .

أمَّا بالنسبة للزنج فقد خلا لهم الجوُّ بعدما تخلَّصوا من خطر جيش الدولة العباسية، وأصبحوا في مأمنٍ من مباغتته إياهم، وبذا صاروا يتحرَّكون بحرية تامَّة دونما أيَّة

---

[٥]– تاريخ الطبري ٤٩٣/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٧/٦، ٢٣٨ .

[٦]– تاريخ الطبري ٤٩٣/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٨/٦ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠٢/٧ .

[٢]– تاريخ الطبري ٤٩٥/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣٨/٦ .

قيود، فعاثوا في هذه المناطق فساداً ونهباً وتخريباً[٣] بعدما طاب لهم زمانهم على مبدإ قول القائل[٤] :- " خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري "! .

وارتفعت معنويات صاحب الزنج علي بن محمد فطالت يده كلَّ ما ومَنْ يريد، وصار قادراً على الضرب في أيِّ اتِّجاه في تلك المناطق التي يسيطر عليها، لذا لم يرُقْ له وجود قُوَّات عبَّاسية بالأهواز، فأرسل إليها جيشاً جرَّاراً على رأسه القائد الزنجي علي بن أبَّان والقائد سليمان بن جامع، حيث التقى هذا الجيش مع والي الأهواز حينها الذي يدعى (أضغجون)، ولكن هذا الأخير لم يستطعْ الصمود طويلاً أمام جيش الزنج[١] الذي كان يتمتَّع بروحٍ معنويةٍ عالية علاوةً على العدَّة والعتاد اللتين كان الجيش الزنجي يتمتَّع بهما خصوصاً وأنَّه كان يحصد الانتصار تلو الانتصار على حساب جيوش الدولة العباسية وحملاتها ضده .

وبذا سقطت الأهواز مرةً أخرى أمام صاحب الزنج وأتباعه ليدخلها القائد علي بن أبَّان في ٦رجب سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م[٢] .

والواقع أنَّ علياً بن محمد صار قائداً محنَّكاً يدرك جيِّداً كلَّ خطوة قبل أنْ يخطوها، ويحسب لها ألف حساب، فكان يدرك مدى خطورة جيش الدولة، فلم يعرِّض نفسه ولا جيشه لها بشكل مباشر دائم، بل كانت جلُّ مواجهاته تعتمد على الهجمات الخاطفة وسرعان ما يتراجع ليحتمي ويتخندق بجيشه في أوكاره التي أعتادها وهو على ثقة من حصانتها ومن أنَّها تحميه من مباغتة عدوه له فيها وكان له ذلك طيلة هذه

---

[٣]- تاريخ الطبري ٤٩٥/٩ .

[٤]- أول من قال هذا المثل هو طرفة بن العبد الشاعر، وذلك أن كان مع قومه في سفره، وهو صبي، فنزلوا على ماء، فذهب طرفة بفخٍّ له فنصبه للقنابر، وبقي عامة يومه، فلم يصد شيئاً، ثُمَّ حمل فخَّه ورجع إلى عمِّه، وتحمَّلوا من ذلك المكان، فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهنَّ من الحبِّ فنظم أبياتاً أولها:

يالكِ من قنبرة بمعمر خلا   لك الجوُّ فبيضي واصفري

ينظر جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت بعد (٣٩٥هـ)(ط/١) (دار الكتب العلمية) (بيروت/لبنان) سنة١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٣٤١/١، ٣٤٢ والمستقصَى في أمثال العرب لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت(٥٣٨هـ/١١٤٤م) (ط/٣) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ٧٥/٢ .

[١]- تاريخ الطبري ٤٩٦/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٠/٦ .

[٢]- الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠٢/٧ .

الفترة، ولعلَّ هذا سرُّ هجماته السريعة وانسحابه الأسرع، فلم يكن احتلاله لأكثر المناطق التي يتواجد فيها دائماً، بل أنَّه يغير عليها ثُمَّ يتركها متراجعاً، ولعلَّ في هذا ما يمكنه من تأمين أمورٍ عدَّة منها ضمان حصوله على الغنائم التي تمكنه من تسيير أمور جيشه، زد على ذلك أنَّه تمكَّن من قذف الرعب والهلع في قلوب أعدائه وأهم من ذلك أنَّه قطع الطريق على عدوه من أنْ يصلَ إليه ويتمكن منه .

فواقع الحال يؤكِّد ذلك إذ لا بدَّ لقائدٍ كبيرٍ مغامرٍ مثل علي بن محمد من أحلامٍ وأطماعٍ في فتوحات كبيرة أوسع من تلك التي تمكَّن منها وهذا واضحٌ في أصل أهداف حركته .

ولكنَّه كان على درجة عالية من اليقظة لخطر جيش الخلافة في حال تمكنه منه؛ لذا كانت سلامة جيشه وأتباعه والحفاظ على وحدتهم وقوتهم أولى عنده من نصرٍ سريع تعقبه هزيمة دائمة – كان فيما يبدو أنَّه على يقين منها يوماًً ما – فالأهم لديه من الفتوحات والانتصارات القصيرة الخاطفة أنْ يُحافظ على تماسك جيشه ويُبقي عليه متمترساً متحصِّناً في تلك الخنادق الطبيعية من المستنقعات والأدغال .

لم ترتح الخلافة إلى ما آل إليه مصير حملاتها هذه ضد الزنج ولم يهدأ لها بال حتَّى أرسلت جيشاً بقيادة القائد التركي موسى بن بُغا وهو أحد قادة الخليفة المعتصم وكان صهراً لبيت الخلافة[١]، والذي أنطلق من سامراء في ١٧ذي القعدة سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م وكان في مساعدته[٢] عدد من القادة منهم اسحاق بن كنداج[٣] الذي قاد جبهة البصرة وعبد الرحمن بن مفلح الذي اتَّجه إلى الأهواز وإبراهيم بن سيما الذي سار إلى باذاورد[٤] .

والواقع أنَّ هؤلاء القادة خاضوا معارك عديدة مع الزنج فيما بعد وكانوا لا يوفِّرون جهداً أمام الأعداء، بل قاتلوا بصلابة وشجاعة منقطعتي النظير، وحاولوا تطويق الزنج وحصارهم من ثلاث جهات وعمدوا إلى قطع الإمداد عنهم، ولكنَّ الزنج قد

---

[١]– تاريخ الإسلام السياسي لمحمد إبراهيم ٤٠/٣ .

[٢]– تاريخ الطبري ١٣/٨ .

[٣]– ويروى: (كنداجيق) ينظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٠/٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ١٣/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٠/٦ .

خبروا هذه المناطق وعرفوا الأساليب والخطط التي يدير بها قادة جيش الخلافة المعارك؛ لذا لم يحرز القادة العبَّاسيون أيَّ نتيجة نهائية مطمئنة[٥] .

وعليه فإنَّ الحرب لم تُحسم، مع أنَّ سطوة جيش الخلافة على الزنج زادت حدَّتها وقويت الضربات التي يتلقَّاها منه، بل انتشرت المعارك وصار القتال أشبه ما يكون بحرب عصابات لا ترجى منه نتيجة حاسمة تذكر .

واستمرَّ الحال على هذا المنوال شهوراً تمركز فيها القائد التركي موسى بن بغا بجيشه في واسط متَّخذاً منها مركزاً له إلى غاية أنْ عُيَّنَ بدله القائد مسرور البلخي[٦] بعدما أيقنت الخلافة من عدم توصل الأول إلى نتيجة حاسمة أمام جحافل الزنج .

والواقع، فإنَّ ما يأتي من الأيام يبدو أنَّه ينبيء بسوء الطالع للخلافة العباسية إذ تتزايد المتاعب والعقبات التي زادت من إرهاق كاهل الدولة ومن المصاعب أمامها إذ في هذه الأثناء طفح على سطح الأحداث ما يؤكِّد ذلك حيث ظهرت حركة جديدة تسمَّى (حركة الصفَّارين) نسبةً إلى قائدها ذلك المغامر الذي يدعى (يعقوب الصفَّار)[١] ذو الإرادة القوية والطموح الكبير وبدأت تتزايد خطورته بسرعة كبيرة خاطفة إذ زحف على رقعة كبيرة من أمصار الدولة العباسية، فاستولى[٢] في شوَّال ٢٥٩هـ/٨٧٣م على نيسابور وسجستان وهراة وبوشتج، وغيرها من الأمصار التي تجاورها، ثُمَّ دخل طبرستان في سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م[٣] ومن البدهي ألاَّ يروق هذا للخليفة العباسي وأغضبه غضباً شديداً وجعله يناصب الصفَّار العداء إلاَّ أنَّ ذلك لم يثنِ يعقوب الصفَّار وأتباعه من الصفَّارين على المضي قُدماً في تحقيق أطماعهم ومآربهم حتَّى أنَّ الخليفة أذعن[٤] لمطالبهم نتيجةً للوهن والإنهاك اللذين تعاني منهما

---

[٥]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٣٧/١١ .

[٦]– تاريخ الطبري ١٤/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠٣/٧ .

[١]– اسمه: يعقوب بن الليث، وكان صفَّاراً قبل ذلك يعمل في تصفير الأواني النحاسية لُقِّب بحرفته هذه وصار اللقب سارياً على أتباعه وعلى حركته، ينظر تاريخ عصر الخلافة العباسية للدكتور يوسف العش ص١٤٢ وفي التاريخ العباسي والفاطمي لأحمد مختار العبادي (د/ط) (مؤسسة شباب الجامعة/الإسكندرية – مصر) (د/ت)، ص١٥٠ .

[٢]– وفيات الأعيان لابن خلِّكان ٣١٢/٢ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٢/٦ .

[٣]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٦/٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ٥٠٤/٩ .

الخلافة العباسية، فاضطروه إلى الاعتراف بهم وأجبروه على أنْ يعترف لهم بولاية فارس والشرطة بمدينة السلام وخراسان وطبرستان وجرجان واذربيجان والري وقزوين، وغيرها من الأمصار التي وضعوا أيديهم عليها وتعاظمت آمال يعقوب وأحلامه حتَّى زحف على رامهرمز [٥] ودخلها في سنة ٢٦٢هـ/٨٧٦م[٦] .

وبهذا نجد أنَّ تهديد يعقوب الصفَّار للخلافة بلغ مداه فصار طامعاً في باب السلطان[٧] فتجاوز زحفه واسط ليصل إلى دير العاقول[٨]، الأمر الذي لم يترك بُداً للخليفة للخروج له وملاقاته بنفسه على رأس جيش جرَّار لإيقاف زحفه الهادر

الذي ربَّما كان الخليفة سيبقى عاجزاً على صدِّه لولا أنَّ أتباع الصفَّار استكبروا محاربة الخليفة واستنكروه[١]، الأمر الذي جعلهم يتمرَّدون على قائدهم يعقوب الصفَّار، وبهذا التمرد تمكَّن الخليفة من صدِّه وهزيمته سنة ٢٦٢هـ/٨٧٦م[٢] .

ولعلنا عمدنا إلى ذكر هذه الحويصلة البسيطة من حركة الصفَّارين لنستبين كيف أنَّ الدولة العباسية قد شُغلت عن الزنج ومحاربتهم بالقدر الذي مكنَّهم من التحرُّكِ بحرية تامَّة حتَّى أنَّهم قد فلتوا من مراقبة الدولة وأعوانها لتحرُّكاتهم ورصدها .

لذا يمكن أنْ نقول مطمئنِّين بأنَّ الظروف في هذه الحقبة من الزمن كانت مواتية للزنج، بل وتحفزهم على القيام بما يصبون إليه؛ لأنَّهم قد لا يجدون فرصةً كهذه مرَّة أخرى .

فعمل الزنج على اغتنام جميع هذه الفرص والاستفادة منها في تثبيت دعائم أمنهم وسلامتهم على حساب الدولة العباسية فمدُّوا نفوذهم إلى الشمال بعد انسحاب قوات الخليفة من دجلة الأدنى وساعدهم على ذلك المدِّ بعض القبائل العربية التي تقطن

---

[٥]– مدينة مشهورة في خورستان، معجم البلدان لابن خلكان ٢١٢/٤ .

[٦]– تاريخ الطبري ٥٠٥/٩،٥٠٤،٤٩٨،٤٩٧ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٠/٦ .

[٧]– تاريخ الطبري ٢٢/٨ والكامل في التاريخ ٢٦٠/٦ .

[٨]– دير العاقول: موضع يقع على شاطئ دجلة بين مدائن كسرى والنعمان بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخا، معجم البلدان لابن خلكان ١٥٤/٤ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦١/٦ .

[٢]– المصدر نفسه ٢٦١/٦ .

في جنوب واسط[٣] ثُمَّ زحفوا تجاه واسط، فسيطروا عليها للمرَّة الثالثة وكعادتهم عملوا في أهلها التقتيل والسبي والحرق والنهب والسلب، فكان عدد القتلى كثيراً جداً[٤] .

وفي هذه الأثناء تخلَّى موسى بن بُغا عن محاربة الزنج بعدما استقال من ولاية المشرق في سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م لمَّا رأى أنَّه لا قوام له بأعداء الدولة في هذه النواحي وبعدما ضاق ذرعاً بمقارعة صاحب الزنج وأتباعه[٥] .

وبهذا انتقلت الولاية وقيادة الجيش إلى أبي أحمد الموفق الذي[٦] ركَّز جُلَّ اهتمامه وسخَّر جلَّ جهوده وإمكانيات الدولة العباسية آن ذاك منذ بداية مشواره لتصفية يعقوب الصفَّار وحركته التي باتت تشكِّل خطراً كبيراً على مصير الدولة والخلافة العباسيتين[١] .

ولقد حاول صاحب الزنج الاستفادة أكثر من قيام حركة الصفَّارين علاوة على ما استفاده منها من انشغال الدولة العباسية عنه وعن محاربته بسبب هذه الحركة، فعمد إلى إبرام اتِّفاقية مع الصفَّارين بإقامة حلف معهم ضد الخلافة العباسية وكانت الاتِّفاقية تحديداً مع عامل يعقوب الصفَّار على الأهواز وهو كردي الأصل يدعى " محمد بن عبد الله " .

وقد كان بينهما ذلك الحلف في سنة ٢٦٢هـ/٨٧٦م الذي كان هدفه التحالف ضد جيش الخلافة العباسية ومقارعته حتَّى القضاء عليه في تلك المناطق التي سيطرت عليها؛ ولأنَّ هذا الحلف دعته إليه الضرورة وكان مبنيّاً على المصلحة الخالصة، فلم يدُمْ طويلاً؛ لافتقاده إلى عنصري الوفاء والإخلاص[٢] اللذين يشكلان الأساس في كلِّ اتفاق وعهد .

---

[٣]– تاريخ الطبري ٥١٢/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٢/٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ٥١٧/٩–٥١٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٥١/٦ .

[٥]– تاريخ الطبري ٥٠١/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٥١/٦ .

[٦]– تاريخ الطبري ٥٠٢/٩ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦١/٦ .

[٢]– تاريخ الطبري ٣١/٨ .

وعلى إثر انفصام ذلك الحلف انفرد جيش الخليفة بالزنج في موقعة التقى فيها معهم جُرِحَ فيها قائدهم علي بن أبان واستطاع أنْ يذيقَهم طعم الهزيمة وجعلهم يتجرَّعون كأسها .

ولكن وبسب يعقوب الصفَّار الذي يُعدُّ وحركته كابوساً يرزح تحت وطأته أعوان الخلافة العباسية لم يهنأ العبَّاسيون كثيراً بهذا الانتصار على الزنج ولم يستفيدوا منه على أرض الواقع ولا على صعيد صراعهم المرير معهم، بدليل أنَّ أيدي الزنج بقيت طليقة في تلك المناطق يعبثون بها كما يشاءون فيسرحون ويمرحون في هذه النواحي كما يحلو لهم، ويعيدون تعبئة جيوشهم كيفما يروق لقادتهم؛ فأوقعوا بذلك الرعب في قلوب سكان تلك المناطق[٣] .

والواقع أنَّ صاحب الزنج كان قد فطن لأهمية اتِّحاده مع الصفَّارين لاتفاقه معهم في النيَّة والأهداف التي تتمثل في تقويض أركان الدولة العباسية وزعزعة أمنها وتصفية القائمين عليها؛ ومن ثَمَّ السيطرة والسيادة على تلك الأمصار .

لذا لجأ مرَّةً أخرى إلى الحوار مع يعقوب الصفَّار لغرض التَّآلف معه والاتِّحاد ضد الخلافة العباسية، ولكنَّ يعقوب الصَّفار كان يعتبر الزنج متجاوزين لحدودهم ومارقين وخارقين للأعراف والنواميس بسبب الأسلوب الذي يسلكونه في قتالهم الذي لا يقف عند حدٍّ ولا حرمةٍ . فلم يمكنهم سوى من هدنة فرضتها عليه ظروف القتال التي يمليها عليه واقع أرض المعركة والصراع وهذه الهدنة تظلُّ في جميع أحوالها وأحسنها دون مستوى أي اتِّفاق بينهما[١] .

وفي ذي القعدة سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م حصل حدثٌ مفاجئ غيَّرَ مجرى الأحداث برمتها حيث تمثَّل هذا الحدث في وفاة يعقوب بن الليث الصفَّار[٢] بالأهواز الذي وافاه

---

[٣]– المصدر نفسه ٥٠٦/٩– ٥٠٩ .

[١]– تاريخ الطبري ٥١٠/٩، ٥١١ .

[٢]– كان يعقوب الصفار شخصية فذة حتى سماه الحسن بن زيد العلوي: (السندان) لثباته وشجاعته، وكان عاقلا يقول: من عاشرته أربعين يوما فلم تعرف أخلاقه فلا تعرفها في أربعين سنة، ينظر تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ٥٢٠/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٨٣/٦، ٢٨٤ ومروج الذهب للمسعودي ٢٢/٢ وفيات الأعيان للعلامة شمس الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ت (

الأجل المحتوم، فانقلبت الأمور عاليها سافلها بحيث خلفه أخوه عمرو الذي عقد صلحاً مع الموفق إذ استطاع الأخير إقناعه بإبرام هذا الصلح[3] الذي يمنح الصفَّارين سقفاً مرضٍ لأطماعهم وطموحاتهم، فولَّى أبو أحمد عمراً هذا خراسان وفارس وأصبهان وسجستان وكرمان والسند والشرطة ببغداد وأشهد له بذلك وصيَّره إليه مع الخلع[4]، وبذلك كسب الموفق تأييد الصفَّارين وآمن جانبهم، ولعلَّ في هذا الحدث ما يمكن اعتباره نهاية لهذه الحركة التي لطالما أقضَّت مضاجع أعوان الخلافة والقائمين عليها .

وهذا كلُّه يساعد الموفق ليتفرغ للزنج ثانيةً وتخلو الساحة له من الصَّفارين الذين كانوا يشغلون الدولة العباسية كثيراً عن الزنج ومحاربتهم .

وكما يلحظ المتتبع لمسيرة الأحداث في هذا الصراع المحموم بين الزنج والخلافة العباسية يجدها تتطور وتتصاعد بوتيرة كبيرة، فلم تكد تثبت الأمور على حالٍ نتيجةً لذلك السباق المستمر بين الطرفين والذي كان محوره الزمن وترتيب الأمور وتعبئة الجيوش كلَّما سنح لهما الزمن بذلك مراهنين على النصر والسيادة .

فهذا الموفَّق الذي عيِّن خلفاً لابن بغا التركي قائد الجيش ووالي المشرق في صفر سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م يصبح قائداً للجيش ووالياً على الولايات، كما عقد له أخوه الخليفة المعتمد على ديار مصر وقنسرين والعواصم، وولاَّه الكوفة وطريق مكة والحرمين ومضر واليمن وبغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس[1] في يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٥٨ه/٨٧٢م ، ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل لم يترك الخليفة المعتمد مهلة حتى خلع عليه أخوه في ربيع الثاني من نفس السنة ٢٥٨ه/٨٧٢م وأرسل به تجاه الزنج لمحاربتهم، حيث كان القائد الأعلى للجيش[2] على نحو ما مرَّ بنا آنفاً .

٦٨١ه/١٢٦١م) (د/ط) (بولاق/القاهرة – مصر) سنة ١٢٨٣ه، ٣١٢/٢ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٠٦/١٢ .

[3]– تاريخ الطبري ٥٢١/٩ .

[4]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٨٤/٦ .

[1]– تاريخ الطبري ٤٨٨/٩ .

[2]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٨/٥ .

وتصاعد نجم أبي أحمد الموفق وتلالأ وزاد حظوةً ومرتبةً حتَّى عُيِّنَ وليّاً للعهد بعد جعفر المفوض بن الخليفة المعتمد، كما وُليَ المشرق الذي تتبعه مدن عديدة وكثيرة منها بغداد والسواد والكوفة الذي كان تحت ولاية جعفر المفوض بن المعتمد، كما ولي كذلك اصبهان وقم والكرخ والدينور[٣] طريق مكة والمدينة واليمن وكسكر وكور ودجلة والأهواز الرى وزنجان وقزوين وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان والسند[٤] .

وبهذا نجد أنَّ أبا أحمد الموفق صار شخصيَّةً مرموقةً بحيث اجتمعت لديه عدة مناصب في آنٍ؛ فكما رأينا أنَّه وُلي على عدَّةٍ مدن ومناطق وأمصار تحت ملك الدولة العباسية، ثمَّ صار وليّاً للعهد على بعضٍ منها، كما كُلِّفَ بقيادة الجيش وبهذا لابدَّ أنْ يكون ذا شأنٍ عظيمٍ في سُلَّم الخلافة العباسية ولديه اليد الطُّولى في تدبير أمور الدولة وإدارة شؤونها . ولعلَّ أبا أحمد الموفق صار فيما بعد المسيطر الغالب على أمور الدولة وشؤونها، فكانت تصرفات الدولة كلُّها تحت يديه[٥] .

والواقع، فإنَّ هذا كلَّه كان على حساب سيادة أخيه الخليفة المعتمد على الدولة الذي بات جليّاً أنَّه لا يقوى على تدبير أمور الخلافة والدولة، ولعلَّ السبب الحقيقي في ذلك هو انصرافه إلى اللهو واللذات، فكان غارقاً في مجونه وميله عن الجادة والالتزام وتبعه في ذلك جلُّ أمراء البيت المالك آنذاك الذين لم يكونوا بأحسن حالٍ من خليفتهم فهم كانوا في غفلةٍ عن أمر الخلافة وسلطانها، فأفرطوا في طلب اللذات والترف، وبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة حتَّى سيطر عليهم الوهن والضعف ليبلغوا في التردِّي والسقوط أبعد المدى؛ فلم يأبه بهم حتَّى العبيد والرقيق لسفالتهم وسقوطهم وهوان أمرهم[١] .

أمَّا الخليفة المهتدي، فقد بات عاجزاً ضعيفاً لا يلوي على شيء سوى المجون والغرق في الملذات، ممَّا فتح المجال واسعاً لأخيه الموفق الذي قبض على زِمام الأمور

---

[٣]– مدينة تقع بين همدان وأصبهان في منتصف الطريق، معجم البلدان ٢٣٠/٧ .

[٤]– الفخري في الآداب السلطانية للطقطقي ص١٨٣ .

[٥]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٨/٦ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٧٠/٦ .

قبضـةً قويَّـةً، فسـيطر علـى الدولـة وعلـى الخليفـة نفسـه الـذي سـاءت أحوالـه وذهبـت هيبته أدراج الرياح، حتَّى قيل أنَّه أحتاج إلى مبلغ من المال زهيد بالنسبة لمن كان خليفةً مثله قدره ثلاثمائة ديناراً فلم يجدْها[٢]، فليس هذا فحسب، بل بلغ أمره من السوء حتَّى أنَّ أخاه الموفق حجر عليه وبذا صار يُعدُّ أولَ خليفةٍ يُحجر عليه[٣] ، ولعلَّ في هذا الأمر ما فيه من الغرابة والعجب بحيث يُحجر على الخليفة من قبل أحد قادته الذي لم يقف عند هذا الحد، بل عمد إلى تكبيل أيدي الخليفة بحيث يصير عاجزاً لا يقدر على فعل شيء، حتَّى أنَّ المؤرخين هالهم أمر هذه الدولة ولم يخفوا شعورهم بالعجب وربما بالذهول إزاء هذا الوضع الغريب، حتَّى أنَّ بعضاً منهم قال :- " ... وكانت دولـة المعتمد دولـةً عجيبـةً الوضـع كـان هـو وأخـوه الموفـق طلحـة كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي، وقود العساكر، ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء، وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك كلِّه
بلذَّاته "[١]

ولعلَّه من صائب القول القول بأنَّ ظهور حركة الصَّفَّارين على رأسها قائدها يعقوب الصَّفَّار هو إشغال للخلافة وذلك بمقارعتها لهم على كلِّ الصعد العسكرية منها والسياسية وغيرها من عقد المصالحات وإبرام الاتِّفاقيات والتي حسمت الصراع بين الصَّفَّارين والخلافة على نحو ما رأينا آنفاً .

هذا كلُّه مجتمعاً كان في الحقيقة بمثابة عونٍ وسندٍ للزنج في إطلاق أيديهم وإفلاتهم من مراقبة الدولة وضغطها عليهم وحتَّى مواجهتها لهم خلال برهة من الزمن أفاد منها صاحب الزنج كثيراً؛ لذا تنامت أطماعهم في ملك الخلافة العباسية فحاولوا اغتنام هذه الظروف على أحسن ما يكون الاغتنام بحيث كانوا على دراية بأنَّ منطقة دجلة الأدنى كانت خالية من جيش الخلافة ولا توجد بها أيُّ قوة أو حامية يمكن أنْ

---

[٢]- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٧٠/٦ و تاريخ الدولة العباسية للشيخ محمد الخضري (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة١٩١٦م، ص٣٣١ وتاريخ العباسيين لابن وادران تقديم وتحقيق الدكتور المنجي الكعبي (ط/١) (دار الغرب الإسلامي/بيروت – لبنان) سنة١٩٩٣م، ص٦٤٣ .

[٣]- مروج الذهب للمسعودي ١٦٣/٤ وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر الأزدي ص٢٨٧ .

[١]- الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ص١٨٣ .

تواجههم؛ لذا بدأوا في الإغارة على بعض القرى والمناطق، وسارعوا إلى تخريب مرافقها، ونهب خيراتها وأرزاق أهلها، ثُمَّ أخذوا يسبون نساءها وأطفالها[٢] .

كما علم صاحب الزنج عن طريق عيونه وجواسيسه المبثوثين في الأنحاء بأنَّ جيش الخلافة قد انسحب من البطيحة لملاقاة الصَّفَّارين، وكان آنذاك الجيش العباسي تحت قيادة القائد مسرور الذي اتَّجه من البطيحة مباشرة إلى واسط التي وصلها يعقوب الصَّفَّار لصدِّه وصدِّ أتباعه من الصَّفَّارين[٣] .

وعلى الفور زحف صاحب الزنج وجيشه إلى البطيحة ودستميان[٤]، وبدأوا باكتساح تلك النواحي واحتلالها تساعدهم هذه المرة في ذلك بعض قبائل العرب الرابضة هناك جنوب واسط[٥] .

وبهذا نلحظ أنَّ أمر الزنج قد استفحلَ وصار محيَّراً للخلافة العباسية والقائمين عليها، فقويت شوكة الزنج وأشتدَّ بأسهم، حتَّى فشلت كلُّ الجهود التي تبذل من قبل الدولة العباسية لصدهم، فعجزت الجيوش الجرارة على ملاقاة الزنج وقهرهم وفي هذا ما فيه من معاناة مريرة ومكابدة مرة كانتا مصيراً آل إليه أهالي تلك المناطق الذين لم يفلح العباسيون في حمايتهم، والذود عنهم ضد خطر الزنج وبأسهم، الذين سيطروا على تلك المناطق فباتوا يقرِّرون مصير أهاليها .

واستمرَّ زحف الزنج نحو المدن والقرى في هذه المناطق حتَّى وصلوا إلى واسط حيث استطاع أحد قادة الزنج العسكريين وهو سليمان بن جامع أنْ يدخل واسط وذلك سنة[١] ٢٦٤هـ/٨٧٨م .

فما كان من أهاليها إلاَّ أنْ فرُّوا منها وهجروها من هول ما كانوا يلاقونه من سطوة الزنج وهمجيتهم، " فخرجوا منها حفاة الأقدام هائمين على وجوههم ليس لديهم وجهة

---

[٢]– تاريخ الطبري ٥١٥/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٢/٦ .

[٣]– تاريخ الطبري ٥١٦/٩–٥١٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٢/٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ٢٥/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١١٦/٧ .

[٥]– تاريخ الطبري ٥١٧/٩، ٥١٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٢/٦ .

[١]– تاريخ الطبري ٥١٧/٩، ٥١٨ .

يقصدونها هلعاً ورعباً، فمضوا فزعين يأخذ أحدهم عمامته ورداءه فيشد بهما رجليه ويمشي، وضُربت هذه المدينة بالنار "[٢] .

ولم يكتفِ الزنج بدخولهم واسط واحتلالهم لها، بل أخذوا يغيرون على ما جاورها من مناطق وقرى أخرى من مثل قرية طهيثا وحسان والحوانيت وتل رمانا والرصافة؛ وكالعادة كانوا يُعملون فيها حرقاً وتقتيلاً ونهباً ويعيثون فيها فساداً ثُمَّ يعودون محمَّلين بالغنائم[٣] .

وفي هذه الأثناء حاول قوَّاد الجيش العباسي بين الفينة والأخرى كبح جماح الزنج وقائدهم علي بن محمد، وصدهم عن بعض المناطق والمدن والقرى، فدارت بينهم بعض الصدامات والمعارك حيث التقى العباسيون بالزنج تحت قيادة سليمان بن جامع في سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م إلاَّ أنَّ تلك الصدامات لم تأتِ بنتيجة تُذكر إذ تتراوح الكفة بين الطرفين فتارة تكون مع العباسيين وتارة أخرى مع الزنج؛ لذا لم يلحظ المتتبع شيئاً منها يُظهر على أرض الواقع أيَّ نتاج ذي بال[٤] .

إلاَّ أنَّ إصرار الزنج على تحقيق طموحاتهم مكنَّهم من إحراز نصرٍ استراتيجي جاء على إثره احتلال النعمانية[١] في سنة٢٦٥هـ/٨٧٩م بعدما دخلوها بإحراق معظم دورها، وأخذوا يُعملون في أهلها تقتيلاً وأسراً، وبهذا صاروا على أبواب جرجرايا[٢] التي فرَّ معظم أهلها رعباً وفزعاً من الزنج إلى بغداد[٣] التي تبعد عنها حوالى سبعين ميلاً فقط .

والواقع أنَّ كلَّ هذه الانتصارات التي أحرزها الزنج على الجيوش العباسية كانت تجلب المتاعب والاحراجات لها، فكانت صورتها تهتزُّ أمام الرعايا جراء هذا الضغط

---

(٢)– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٤٥/٥ .

(٣)– تاريخ الطبري ٣٨/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٢٥/٧ .

(٤)– تاريخ الطبري ٥١٩/٩-٥٢٢ .

(١)– تاريخ الطبري ٢٦٥/٩ .

(٢)– جرجرايا هي بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي، معجم البلدان ٨٠/٣ وتاريخ ابن الوردي ١٣٨/١ .

(٣)– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٥٠/٥ .

المتواصل من صاحب الزنج الذي لو قدر له أنْ ينجح لاستأصل جذورها من الأصل .

لذا حاول الخليفة المعتمد أخذ التدابير التي يرى أنَّها تساعده في صد الزنج وردعهم، فأرسل إلى أخيه الموفق مستدعياً إياه في سنة٢٥٧هـ/٨٧١م ليوكل له مهمة القيام بمحاربة الزنج وقتالهم والقضاء عليهم؛ لما يراه فيه من كفاءة تنطوي على شدة وصرامة تجعله المرشح الوحيد لخوض غمار هذه الحرب التي لا يرى الخليفة شيئاً أهمَّ منها حالياً لتقوم به الدولة، فالنصر على الزنج والقضاء عليهم بات حلماً كبيراً يراود الخليفة وأعوانه .. وهذا الأخير كان قد نفاه أخوه الخليفة المعتمد على الله إلى مكة على خلفية ما صار إليه أمرهما في إدارة الخلافة والخلاف الذي شبَّ بينهما حول شؤون الدولة وأمورها[٤] على ما مرَّ بنا آنفاً .

فتعاظم شأن الزنج وما صاروا إليه من قوة وبأس يشكلان خطراً جسيماً على الخلافة العباسية ودولة بني العباس، هو أمرُ جعل الخليفة يتجاوز عن أسباب نفي أخيه إلى مكة التي كان من أهمها أنَّه أصبح يشكِّلُ خطراً على أخيه الخليفة لما يراه فيه من ضعف يجعله ليس بأهلٍ للخلافة وهو أمرٌ خطيرٌ لا يمكن للخليفة أنْ يتغاضى عنه وإنْ كان المعني أخاه مع ذلك استدعاه وكلَّفه بقيادة الجيش؛ لأنَّ أمر الزنج استفحل وصار أخطر وأنكى من أيٍّ منها .

أضف إلى ذلك أنَّ الخليفة المعتمد كان لا يحظى باحترام الرعية وتقديرهم لضعفه وعدم اهتمامه بأمور الدولة لانشغاله عنها بسفاسف الأمور من ملذاتٍ ولهوٍ ومجونٍ، زد على ذلك سيطرة الأتراك عليه وتسييرهم له ولشؤون الدولة كما يشاءون، ووفقاً لمصالحهم وأهوائهم .

كلُّ هذه الأمور وربما يُضاف إليها غيرها الكثير، جعلت المجال فسيحاً رحباً لأبي أحمد الموفق أخي الخليفة المعتمد ليستميل قلوب الناس ويجعلهم يعلِّقون الآمال عليه لإصلاح أمر البلاد والعباد .

الموفق وابن طولون:

---

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٩/٦ .

وفيما مضى من الوقت الذي تخللته أحداث أخرى ووقائع كثيرة فرضها الزنج على أرض الواقع، وجعلوا الخلافة العباسية رهناً لها وبأت كلُّ محاولاتها للفكاك منها في مهب الريح، كانت الأخيرة قد تعرَّضت لاستنزاف قواها وأموالها إذ أنَّها تواجه حرباً عمد فيها عدوها علي بن محمد وأتباعه إلى استنزاف جميع مقدَّراتها، الأمر الذي راهن عليه الزنج ليكون أحد عوامل انتصارهم وسقوط الخلافة العباسية ومن ثمَّ دولة بني العباس .

ولعلَّ هذا يجعل من الحاجة الملحَّة للمال والعتاد هاجساً وكابوساً للموفق الذي لم يتردَّدْ في طلبها، فلم يوفِّر جهداً في الإلحاح على عماله في الأمصار التابعة لسيادة الدولة العباسية، والضغط عليهم لمدِّه بالمال والعتاد المطلوبين .

ومن بين الذين أضطرَّ أبو أحمد الموفق إلى اللجوء إليهم للحصول على المال والمدد اللازمين لمواصلة الحرب ضد الزنج هو أحمد بن طولون حيث أرسل إليه بطلب بغية تزويده بما يكفي من المال والمدد، فوفاه ابن طولون على الفور بمبلغٍ كبيرٍ من المال[1]، إلاَّ أنَّ الموفق لم يرضَ على هذا المبلغ الذي يرى أنَّه لم يكن كافياً فأوعز إلى ابن طولون طالباً منه المزيد بموجب خطاب كان أسلوبه لا يليق بمن كان مثل ابن طولون إذ كان جافّاً شديد اللهجة فيه كثيرٌ من الجفاء[1]، ومن هناء دبَّ الخلاف بين الرجلين، بل تطور عندما عمد الموفق إلى عزل ابن طولون من ولايته لمصر، إلاَّ أنَّه لم يتمكِّن من ذلك، بسبب أنَّه لم يجد أحداً يحتلُّ محله؛ لأنَّ ابن طولون أمير ديار مصر كانت خدمته وهداياه متَّصلة إلى القواد بالعراق وأرباب المناصب، فلهذا لم يجد من يتولاَّها[2]، وبذا زادت حدَّة الخلاف بينهما، الأمر الذي لم يكن ذا نتائج محمودة بالنسبة للموفق فيما بعد، بل فتح به الموفق على نفسه باباً من المتاعب الجمَّة كان يجب عليه إلاَّ يُوقع نفسه فيها أو في مثل هذا الموقف على الأقل في مثل هذه الظروف التي تسيطر عليها مواجهته للزنج وقتالهم ومحاولة

---

[1]– سيرة أحمد بن طولون لابن الدَّاية أبي جعفر أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم ت(٣٣٠هـ/٩٤١م) (د/ط) (برلين) سنة١٨٩٤م، ص١٩ .

[1] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٩/٦ .

[2] – المصدر نفسه ٢٦٩/٦ .

صدِّهم وتجنيب الخلافة ذلك الخطر الداهم الذي يشكلونه عليها، بحيث كانوا يهدِّدون الدولة العباسية في الصميم .

ولم يقفْ الأمر عند هذا الحد، بل وبما يشبه تمرداً عن الخلافة ردَّ ابن طولون على أبي أحمد بكلامٍ لاذعٍ قاسٍ ضمنه كتاباً أرسل إليه به يلمح فيه بالعصيان وبتهديده وبإعلان الحرب عليه وكان ذلك عندما خاطبه مشيراً إلى :- " أنَّ في ولايته مائة ألفِ جنديٍّ قد يستعين بهم في حرب الموفق إنْ أعوزه الأمر ... "[٣]، وأشعره بأنَّه مهتمٌّ بأمر الدولة أكثر منه وأنَّه أهلٌ للقيادة أكثر منه، عندما أخبره في كتابه هذا " أنَّه يستكثر من العدد والعمال لصيانة الدولة والدفاع عنها ... "[٤]، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ مثل هذا الكلام يغيظ أبا أحمد الموفق ويستشيطه غضباً حتَّى أنَّه عمد إلى عزله مرة أخرى وكان في هذه المرَّة جاداً، فأمر القائد التركي موسى بن بغا بتنفيذ مهمة عزل ابن طولون من ولاية مصر وتنصيب ماجور التركي والي دمشق بدله[٥]، إلاَّ أنَّ والي دمشق ماجور[٦] التركي رفض تنفيذ أوامر الموفق بعزل ابن طولون وتولِّي أمر مصر بدلاً عنه، الأمر الذي دفعه إلى إصدار أوامره لموسى بن بغا في ١٥رمضان سنة٢٦٧هـ/٨٨١م بالتوجه ناحية الرِّقَّة[١] لقتال ابن طولون بنفسه[٢]، وعندما تناهى إلى أسماع ابن طولون أمر الموفق وخبر زحف القائد التركي ابن بغا إليه أخذ يُعِدُّ نفسه لمواجهة ذلك الزحف فبنى حصناً منيعاً واستطاع تكوين أسطول حربي ضخم[٣] وجهَّز نفسه لملاقاة المعتدين ، وعندما وصل ابن بغا إلى الرّقَّة بقي فيها مرابطاً قرابة العشرة أشهر استعداداً

---

[٣] – سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص٢١ .

[٤] – المصدر نفسه ص٢١ .

[٥] – الخطط للمقريزي ٣١٩/١ .

[٦] – عند ابن كثير: (أماخور) ينظر البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤٤/١١ ويروى: (أماجور) ينظر في تاريخ عصر الخلافة العباسية للدكتور يوسف العش ص١٤٦ .

[١] – الرقة مدينة تقع على الفرات ذائعة الصيط واشهرة وتقع على مسيرة ثلاثة أيام من خراسان، معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٧٢/٤ .

[٢] – تاريخ الطبري ٥١٠/٩ .

[٣] – الخطط للمقريزي ٣١٩/١ .

لقتال ابن طولون وعزله[٤] . إلاَّ أنَّ يد القدر حسمت الأمر في هذه المرحلة إذ أُصيب ابن بغا بمرضٍ عُضال تدهورت على إثره صحته، فلم يعد قادراً على الاستمرار في مرابطته، وبذا لم يعد قادراً على القيام بمهامه كقائد للجيش، بل لم يعد مستطيعاً لفعل أيّ شيءٍ لسيطرة المرض عليه، فانسحب إلى العراق ثُمَّ تُوفِيَ ببغداد عليلاً وحُمل إلى سامراء فدفن فيها في صفر سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م[٥] .

وبهذا ازداد ابن طولون انطلاقاً وأخذ يتحرَّكُ بحرية أكبر لكونه تحرَّرَ من ضغوط الموفق التي كان يمارسها عليه بجيشه وتخلَّص من تهديداته له، فزادت أطماعه وتوسعت بذلك أحلامه وآماله فاستتب له الأمر على الثغور الشامية التي كان قد عزله الموفق عنها. وبوفاة ماجور التركي والي الشام زحف ابن طولون إلى باقي الشام فاحتلَّ الرملة ثُمَّ دمشق وكذلك حمص، وبذا استولى على كامل سورية وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج فعيَّن خادمه لؤلؤ نائباً له عليها، وكان كلُّ هذا خلال الفترة التي استغرقت من سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م وحتى سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م أي خلال سنتين من الزمان. وليس هذا فحسب، بل دخل إنطاكية سنة ٢٦٥هـ ثمَّ بعدها طرطوس[٦]، ولم يكن ابن طولون ليكتفي بهذا لولا أنْ حدثت قلاقل واضطرابات كادت تزعزع أمنه وتهزُّ سلطانه فتحرك صوب دمشق للقضاء على تلك الفوضى[١] .

وفي أثناء وجود ابن طولون في دمشق وَرَدَهُ طلبُ الخليفة المعتمد باللجوءِ إليه فرحَّبَ به حيث خرج الخليفة المعتمد من سامراء إلى دمشق مقر إقامة ابن طولون آن ذاك مدَّعياً بأنَّه في رحلة صيدٍ في السادس من جمادى الأول سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م[٢] .

---

[٤] – تاريخ الطبري ٥١٤/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦٩/٦ .

[٥] – تاريخ الطبري ٥١٤/٩ .

[٦] – الخطط للمقريزي ٣٢٠/١ .

[١] – تاريخ الطبري ١٠٧/٨ والخطط للمقريزي ٣٢٠/١ .

[٢] – محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) للشيخ محمد الخضري تحقيق إبراهيم أمين محمد (د/ط) (المكتبة التوفيقية) (د/ن) (د/ت)، ص٣٦٦،٣٦٥ وتنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني (٢١٨هـ – ٣٣٤هـ) للدكتور خالد جاسم الجنابي (ط/١) (دار الشؤون الثقافية العامة " أفاق عربية " الأعظمية/بغداد – العراق) سنة ١٩٨٩م، ص١٥٥ .

إلاَّ أنَّ هذه الحيلة لم تنطلِ على الموفق الذي وافته عيونه وجواسيسه بأمر أخيه الخليفة وابن طولون الذي أرسل جماعة ينتظرون المعتمد في الرقَّة، وفي ذات الوقت أرسل الموفق جماعته التي أحبطت محاولة المعتمد الفرار لتأخذه محجوراً عليه إلى سامراء[٣] .

ولعلَّ في هذا ما يستفيد منه ابن طولون في أنْ يجعل الناس والرعية يغضبون على الموفق ويرغبون في الانتقام منه جراء ما اقترفه ضد أخيه الخليفة .

فأغتنم بهذا ابن طولون هذه الفرصة ونجح في عقد اجتماع للقضاة والفقهاء وتوصَّلوا فيه إلى اتخاذ قرار بخلع الموفق عن ولاية العهد، بل وطالب بالوقوف في وجهه ومحاربته لقيامه بهذا الأمر الخطير الذي عمد فيه إلى الحجر على أخيه الخليفة[٤]، ومن ذلك اليوم استمرَّ الخلاف والمشاحنات بين الموفق والطولونيين واشتدَّ بينهم العداء إلى أنْ جرى بينهما صلحٌ[٥] وضع به الموفق وابن طولون حدّاً لذلك الصراع الدامي الذي استمرَّ حيناً من الدهر مع عدم وجود أي مصلحة للرجلين فيه وبالأخص الخلافة العباسية التي كانت تكابد متاعب كثيرة ومشاق جمَّة جراء حركات أولئك المغامرين الانفصالية، بل كان وبالاً عليها وعلى بني العباس إذ كاد يعصف بدولتهم ويهزُّ أركانَها ؛ وذلك خصوصاً عندما أخذ الزنج جادين استغلال هذا الخلاف لتحقيق أطماعهم، فلم يضعوا لزحفهم حدّاً، بل بلغوا كلَّ مدى أوصلتهم إليه إرادتهم وقوتهم، بحيث لم يوفِّروا في سبيل التوغل والزحف على أمصار الدولة في تلك الأثناء جهداً .

فراغ الموفق وتحركه الحاسم ضد الزنج (سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م):

---

[٣] – تاريخ الطبري ١٠٢/٢ والخطط للمقريزي ٣٢٠/١، ٣٢١ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٤٥ .

[٤] – أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر الأزدي، ص٢٨٧ وأخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة لعباسية) للشيخ الإمام العالم جمال الدين أبي الحسن علي بن الفقيه (٥٦٧ – ٦١٣هـ/١١٧١ – ١٢١٦م) تحقيق ودراسة الدكتور محمد بن سفر حسين الزهراني (د/ط) (مكتبة الدار/المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية) سنة١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٠٠، ١٩٩ .

[٥] – تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم ٤٥/٣ .

لقد استقام الأمر في هذه المرحلة نوعاً ما لأبي أحمد الموفق وأخذت الظروف تسير في صالحه، فها هو يتفرَّغ للزنج وقتالهم بعد تلك العقبات والمصاعب التي واجهته على نحو ما رأينا آنفاً وهو في طريقه لصد الزنج، فاستطاع بحنكته التمكُّن من ذلك المغامر الشجاع يعقوب الصَّفَّار وحركته التي كانت قد شكلت خطراً محدقاً على الخلافة العباسية، ثُمَّ رأينا كيف استطاع أيضاً تسوية الأمر مع أحمد بن طولون والي مصر الذي استعر خلافه معه حتَّى وصل مداه إذ صارت حركة ابن طولون عقبةً تعرقل أبا أحمد الموفق في حربه مع الزنج[١] .

فلعلَّ خروجه من هذا النفق المظلم الذي تمثَّل في حركة الصَّفَّارين وخلافه مع ابن طولون ومواجهته له يُعدُّ بدايةً طيِّبة له وأولى خطواته الواثقة على طريق النصر على أعدائه الزنج .

فأمر فراغ الموفق من العقبات التي كانت تكبحه وتخلصه منها وتسويته لها كان أمراً جللاً وموضع كدرٍ وقلقٍ بالنسبة للزنج .

والواقع أنَّ جيش الموفق واستعداداته هذه المرة كانت تجعله في حالٍ يجعل الزنج حقيق بهم أن يجزعوا وأن يقعوا في حَيْرةٍ، فهم بإزاء عهدٍ جديدٍ بالعباسيين وقوتهم وسطوتهم الأمر الذي يستوجب عليهم الاستعداد والتأهب لمرحلة جديدة قد لا تمهلهم إلى مرحلة أخرى غيرها، فالموفق أعدَّ جيشه إعداداً حتَّى صار على مستوى لم يكن عليه يوما ما فيما مضى، أضف إلى ذلك أنَّه فرغ لهم، فلم يعد في الساحة سواهم أمامه مع أنَّه استفاد كثيراً من تلك العقبات التي واجهته فيما إذ زادته قوةً وصلابةً بحيث نمَّت خبرته التي صيَّرت منه قائداً مجرباً، ومحنكاً خبيراً في مقارعة الزنج وجحافلهم .

فهو إذن وضع نصب عينيه أنَّه إزاء فرصة نادرة قد لا يحصل عليها ثانيةً، وهو يدرك أنَّ عليه عدم تفويتها، كما صار يدرك جيداً أنَّه في سباقٍ محمومٍ مع الزمن والأحداث، وأنَّه صار عليه القضاء على الزنج عاجلاً وليس آجلاً؛ لذا نجده في هذه المرحلة الحسَّاسة بالنسبة إليه يلعب دوراً جوهرياً بأنْ يخلط فيه بين السياسة والحنكة

---

[١]– محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) للشيخ محمد الخضري بك اعتنى به الدكتور درويش جودي (ط/١) (المكتبة العصرية/صيدا – لبنان) سنة١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٢٦٢ .

العسكرية ليضمن النهاية المحتومة لثورة الزنج والتي ترسي أحكام الخلافة العباسية وتوطدها على ملكها، التي لطالما قاست من هذه الثورة السوداء ألواناً من الفشل تلو الفشل وتجرع العباسيون من السود غصغص الهزيمة بأصنافها بين الفينة والأخرى على نحو ما مرَّ بنا آنفاً .

فإذن صار الوقت مواتياً بإزاء سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م للموفق للتحرك ضد الزنج ومقارعتهم والاستعداد لحملة جديدة والتي تتطلب منه بذل جهدٍ فائقٍ وتخطيطٍ دقيقٍ يختلف جذرياً عنه في كلِّ ما مرَّ من زمان الصدام مع الزنج .

فأول هذا التجديد في الاستعداد قد كان على مستوى القيادة أيضاً بحيث عيَّنَ الموفق ابنه العباس قائداً للجيش[١] وهو شاباً في الثالثة والعشرين من عمره[٢] في ربيع الأخر سنة ٢٦٦هـ٨٨٠م وكلَّفه بمهمة طرد الزنج من شمال البلاد حيث استقرَّ الزنج قريباً من واسط .

وفيما يبدو أنَّ الموفق قد عمل حسابه وعدَّ العدَّة جيداً بحيث أعدَّ جيشه على أحسن ما يكون الإعداد كما زوَّده بالعتاد الكثير الذي يساعده على القيام بمهمته وإنجازها، فكان عدده زهاء العشرة ألاف فارساً وراجلاً في أحسن زيٍّ وأجمل وأكمل عدَّة[٣]، يرافقه أسطولٌ مكونٌ من مختلف السفن الكبيرة والصغيرة التي أُوكِلَتْ مهاماً جسيمة منها نقل الجنود ومنها سفن تقوم بالهجوم على الأعداء[١] .

وحان الوقت لتحرُّك هذا الجيش العرمرم وزحفه بعد أنْ كان قد أنجز استعداده على أكمل وجه ليتجه إلى منطقة تدعى (جرجرايا) واستقرَّ قريباً من العدو حيث عسكر في فم[٢] الصلح[٣].

---

[١]– تاريخ الطبري ٥٢٨/٩ .

[٢]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٤/٧ .

[٣]– المصدر نفسه ١٣٤/٧ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٢/٦ .

[٢] – فم الصلح: نهر كبير محصور ما بين واسط وجبل يقابلها عليه قرى، معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٩٩/٦ .

[٣] – تاريخ الطبري ٥٢٨/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٢/٦ .

ولمَّا بلغ الزنج أمر وصول جيش الخلافة إليهم عمدوا إلى ملاقاته بكامل قوتهم وصدِّه خصوصاً أنَّ العباس قائد جيش الخلافة كان صغيراً في السن فظنُّوا أنَّهم أمام قائد قليل الخبرة والمراس فقلَّلوا من شأنه واستصغروه[٤] .

لكنَّ الأمور والحقائق صارت تفند ما اعتقدوه، فقد برهن لهم هذا القائد الشاب على رباطة جأش وحنكة ومراس قلَّ نظيرها، الأمر الذي أذهلهم بحيث أرغمهم على التراجع والانسحاب في أول لقاء لهم به، فسرعان ما أمر سليمان بن جامع القائد الزنجي معاونيه بالانسحاب بالجيش لعدم جدوى استمراره في القتال وخشيته من جيش الخليفة الذي قرَّر قائده أنْ يصلِّي بجيشه صلاة الجمعة في وسط واسط[٥] .

وبعد هذه المنازلة الأولى بين أبي العباس والزنج انسحب الزنج على إثرها، وقرَّر أبو العباس بعد الصلاة في واسط إنشاء معسكر لجيشه عسكر فيه في مكان يوفر له الحماية والأمان من مباغتة الزنج وخداعهم، فانحدر إلى (بالعمر) وهو مكان يبعد فرسخ واحد من واسط، ثمَّ أخذ يعدُّ جيشه ويعيد تعبئته استعداداً للآتي[٦] .

أمَّا الزنج فقد هالهم وفاجأهم وأزعجهم كثيراً وأرعبهم أداء الجيش العباسي وقائده أبي العباس، فأدركوا أنَّهم أمام جيشٍ يختلف عن كلِّ الجيوش العباسية التي لاقوها من قبل؛ لذا أخذوا يعدُّون أنفسهم إعداداً كبيراً محاولين بذلك مواجهة هذا الجيش العنيد الذي يلاقون[١] .

وكانت خطة سليمان بن جامع القائد الزنجي تُملي عليه تقسيم جيشه على ثلاث فرق تهاجم كلٌّ منها أبا العباس من جانب على حدة، ففرقة أتت من نهر أبان، وفرقة من برغوتا، وفرقة من بردودا، وأمر بوضع الكمائن في طريق الجيش العباسي[٢] .

أمَّا أبو العباس فقد كان متيقظاً لكلِّ حركات الزنج وسكناتهم بحيث كانت عيونه المبثوثة في كلِّ مكان توافيه بأخبار العدو وتحركاته لذا كانت خطة سليمان بن جامع مكشوفة بالنسبة له بفضل تلك العيون المتيقظة، فبمجرد أنْ دارت المعركة أحرز

---

[٤] – تاريخ الطبري ٥٢٩/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٢/٦، ٢٩٣ .

[٥] – تاريخ الطبري ٥٢٩/٩ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٤٤/٨ .

[٦] – تاريخ الطبري ٥٢٩/٩ .

[١] – تاريخ الطبري ٥٢٩/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٣/٦ .

[٢] – الكامل في التاريخ ٥٢٩/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٣/٦ .

العباس نصراً مؤزّراً على أعدائه الذين باتوا يوقنون بأنَّهم أمام خصمٍ عنيدٍ لا سبيل لقهره[٣] .

ولعلَّ أبا العباس كان مختلفاً في أسلوبه عند مواجهة الزنج سواء كان على مستوى أدائه العسكري العالي أو على مستوى سياسته وحنكته .

حيث عمد إلى استقطاب قُوَّاد جيش الزنج الذين أخذوا يتوافدون عليه بفضل تلك السياسة الناجحة التي عمد إليها والمتمثلة في العفو عنهم وإكرامهم، فانضموا تتراً إليه كلَّما التحموا معه في المعارك الدائرة بينهم وأحرز عليهم انتصاراته المتوالية، وقد أخذ الوهن يتسرب إلى صفوفهم خصوصاً وأنَّ أبا العباس أخذ يغريهم بالمنح والعطايا المجزية[٤]. وبهذا بدأ موقف صاحب الزنج يسوء ويزداد مرارةً ولِما لا ؟ فلا أمرَّ ولا أصعبَ على القائد من أنْ يهجره أصحابه من قوَّاد جيشه وأعوانه الذين يعوِّل عليهم كثيراً ويستند إليهم في كلِّ أمور ثورته وحربه، خصوصاً وأنَّه متورطٌ في أكبر محنةٍ يلقاها خلال مسيرة ثورته الطويلة هذه . والواقع أنَّ أبا العباس قد أحرز انتصاراته المؤزرة في جميع المعارك التي دارت بينه وبين جيش

الزنج[١] وكان من نتائج ذلك أنْ حرَّرَ الكثير من الأسرى والسبايا من النساء والأطفال الذين كانوا تحت سيطرة الزنج وقام بردهم جميعاً إلى أهلهم[٢] وفي هذا ما فيه من كسبٍ للتأييد من الناس والتفافهم حوله .

أضف إلى ذلك أنَّه وسَّع من رقعة الأرض التي حرَّرها لتشملَ عدَّة قرى ومدن وكان هذا على حساب سلطان الزنج وسيطرتهم.

وخلال هذا التحرير لا بدَّ له من الحصول على الكثير من الأموال والغنائم كما احتفظ عنده بعديد الأسرى من الزنج وتحصَّل على سفينتين كانتا تحت إمرة صاحب الزنج بهما زادت قوة أسطوله[٣] .

---

[٣] – تاريخ الطبري ٥٢٩/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٣/٦ .

[٤] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٨/٦ .

[١] – النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٤٢/٣ .

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٦/٧ .

[٣] – تاريخ الطبري ٦١/٨-٦٢ .

وبهذا تنفست الخلافة العباسية، بل الدولة العباسية بأسرها الصعداء واستبشرت بهذه البداية الموفقة لأبي العباس الموفق الذي بثَّت جهوده الجبارة شيئاً من النشوة بعدما فقد الناس والرعيَّة الرَّجاء في النصر على جحافل الزنج وجموعهم الهادرة التي اكتسحت كلَّ ما في طريقها، وجعلت كلَّ الجهود التي تُبذل من طرف القائمين على الخلافة ورجالات الدولة تذهب أدراج الرياح .

تدخل الموفق وانضمامه للقتال نصرةً لابنه العباس (٢٦٧هـ/٨٨١م):

لقد اندحر صاحب الزنج وأتباعه في كلِ موقعة التقى فيها مع أبي العباس ذلك المحنَّك الشاب قائد جيش العباسيين في هذه المرحلة من عمر محاربة بني العباس للزنج على نحو ما رأينا آنفاً؛ لذا صار حرياً بصاحب الزنج أنْ يدرك الخطر الذي يحدق به وجيشه، وأنَّ عليه اتِّخاذ التدابير التي تخرجه من هذا المأزق الذي وُضع فيه؛ لذا لم يكن أمامه سوى حبك خطَّةٍ تقضي بجمع شتاته واستعادة قوته وتركيزها في مكان واحد والهجوم في آن واحد على جيش أبي العباس وضربه ضربةً قويةً لا تقوم له بعدها قائمة[٤] .

إلاَّ أنَّ نبأً هذه الخطة – التي كما يبدو أنَّها ذات قيمة عسكرية عالية – تسرب ليتناهى إلى أسماع الموفق في بغداد[١] حتَّى أنَّه ولإدراكه أنَّ هذه الخطة والخطوة التي يزمع صاحب الزنج الإقدام عليها لربما كان لها الأثر السيء على جيش الخلافة؛ لذا تحرَّك بنفسه لنصرة ابنه أبي العباس في ١١ صفر سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م على رأس جيش جرَّار مدعوماً بأسطولٍ كبيرٍ محمَّلٍ بمختلفِ العدَّة والعتاد[٢] .

وبمجرد وصول الموفق وجيشه إلى المكان الذي يربض فيه جيش ابنه العباس طلب تزويده بكلِ المعلومات عن العدو وتفاصيلها وعن أحوال الميدان، وعلى إثر هذه

---

[٤] – المصدر نفسه ٥٣٣/٩ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٥/٦ .

[٢] – تاريخ الطبري ٦٢/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٥/٦ .

المعلومات وضع خطَّةً كاملةً شاملةً تناول فيها أدق التفاصيل التي تؤدِّي إلى صدِّ العدو وهزيمته والقضاء عليه[٣] .

فكان الزحف على المنيعة أوَّل خطوات هذه الخطة، وهذه المدينة بناها الزنج على مقربة من واسط في يوم الثلاثاء ٨ربيع الثاني سنة٢٦٧ هـ/٨٨١ م ، فاحتلَّها جيش الخلافة الذي حرَّرَ بذلك الاحتلال ما يربو على خمسة ألاف من الأسرى والسبايا[٤]، وفي اليوم التالي استباح الموفق مدينة المنيعة وسمح للناس بنهب كلِّ ما فيها من أموال ومتاع، ثُمَّ قام بهدم سورها وطمِّ خنادقها وحرق ما بقي فيها من سفن[٥] .

وكان سقوط المنيعة أمام جيش الخلافة بمثابة الكارثة التي قصمت ظهر صاحب الزنج وأتباعه وشكلت تهديداً كبيراً لمصير ثورته، فوقع عليه نبأ سقوطها كالصاعقة، حتَّى قال على الكتاب الذي ورده بخبر سقوط المنيعة في أيدي الموفق وابنه العباس :- " ... ورد بقاصمة الظهر "[٦] . وفي خضمِّ نشوة هذا الانتصار كان لزاماً على أبي الموفق ألاَّ ينتشي به كثيراً، ويتوقف على الزحف إلى الأمام،

بل لابدَّ له من أن يزحف من فوره إلى الأمام ويتقدم، حتَّى لا يعطي للزنج وقواتهم وقتاً يعيدون فيه جمع شتاتهم وإعادة عافيتهم وقوتهم؛ لأنَّ مشواره طويل، وليحقِّق مزيداً من الانتصارات، فكان أمامه منطقة تُدعى (طهيثا)[١] حيث تحرَّك إليها فوفاها في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأخر سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م التي تقع بها مدينة المنصورة التي تعدُّ الحصن الثاني لصاحب الزنج وجيشه .

وكان الموفق قد عمل حساب كلِّ شيءٍ، فأعدَّ جيشه إعداداً منقطع النظير[٢]، بحيث لا يعوقه شيءٌ على الوصول إلى عدوه حيثما كان، فاصطحب الكثير من العمَّال والآلات التي تمهد الطرق وتصلحها، وسدَّ الأنهار للتعامل مع طبيعة تلك المنطقة

---

[٣] – تاريخ الطبري ٥٣٣/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٥/٦ .

[٤] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٦/٦ ونهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٤٥/٨ .

[٥] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٧/٧ .

[٦] – تاريخ الطبري ٦٤/٨ .

[١] – في الكامل في التاريخ لابن الأثير (طهثا) ٢٩٦/٦ .

[٢] – تاريخ الطبري ٥٣٥/٩ .

الوعرة التي يتطلَّب التحرُّك فيها جهداً مضنياً وعملاً دؤوباً، منه بناء السدود والتعامل مع الأنهار وتطويع مجاريها لخدمة الجيش، فكان بصحبته كثيرٌ من المهندسين الذين كان لهم الدور الهام في مساعدة الجيش[٣] .

ففي ٢٧ربيع الثاني سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م دخل الموفق بجيشه إلى طهيثا ودارت معركة دامية بينه وبين الزنج، وفي أثناء المعركة برهن أبو أحمد على حنكة وبراعة عاليتين في فن القتال والحرب ساعده في ذلك تلك التعبئة الجيدة للجيش

والذي قامت السفن بإسناده من نهر المنذر الذي كان يعبر مدينة طهيثا[٤] .

وفي هذه المعركة حقَّق جيش الخلافة أكبر النتائج، وزرع الرعب في جند الزنج، وقُتل في هذه المعركة أحد قادة الزنج وهو أحمد بن مهدي الجبَّائي[٥] الذي كان من أخلص القادة لعلي بن محمد صاحب الزنج وأكثرهم طاعةً وولاءً له جراء سهمٍ رماه به أبو العباس أصابه في أحد منخريه فخرَّ صريعاً[٦] .

وبسقوط مدينة طهيثا زحف أبو أحمد إلى ناحية مدينة المنصورة بحيث صار أمام أسوارها ثُمَّ شرع في إعادة ترتيب جيشه وتعبئته استعداداً للهجوم المقبل عليها .

أمَّا الزنج فأمر قائدهم سليمان بن جامع بحفر الخنادق أمام مدينة المنصورة حيث قيل أنَّ عدد هذه الخنادق خمسة خنادق، وأمام كلِّ خندق سور[١] لإعاقة زحف الموفق على المدينة .

إلاَّ إنَّ هذا كلُّه لم يصمد طويلاً أمام الموفق الذي سرعان ما اقتحم المدينة[٢] بعد فرار القائد الزنجي سليمان بن جامع الذي ترك المدينة مع أصحابه لائذين بالفرار، وقد أخذ الموفق يطاردهم وكلَّما وقع بيده نفرٌ منهم عفى عنهم وضمَّهم إلى جيشه[٣]

---

[٣] – المصدر نفسه ٥٣٥/٩ .

[٤] – المصدر نفسه ٥٣٧/٩ .

[٥] – في الكامل في التاريخ لابن الأثير (أحمد بن مهدي الحيامي) ينظر المصدرنفسه ٢٩٧/٦ .

[٦] – تاريخ الطبري ٥٣٧/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٧/٦ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٧/٦ .

[٢] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٧/٦ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤٠/١١ .

[٣] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٨/٦ .

كسباً لتأييدهم، وإخلاصهم وتضييقاً على قائدهم صاحب الزنج الذي يؤلمه كثيراً انضمام أصحابه إلى أعدائه ومحاربتهم له .

وبهذا النصر المؤزَّر سقطت المنصورة بيد أبي أحمد الموفق الذي حرَّرَ عدداً كبيراً من الأسرى يقدَّرُ بعشرة ألاف أسير من الأطفال والنساء[٤]، ومنهم من قدَّر عدد هؤلاء الأسرى بخمسة عشر ألفاً[٥]، وقيل عشرين ألفاً[٦] .

وعندما استقام الأمر للجيش العباسي أناخ بطهيثا سبعة عشر يوماً أمر خلالها الموفق بهدم أسوار المدينة، وطمِّ خنادقها وردم أنهارها[٧] .

تمرُّ الأيام ويتحرك الموفق بجيشه مجدَّداً باتِّجاه عدوه لملاحقته في الأهواز تاركاً واسط تحت إمرة ابنه هارون، وكان ذلك في جمادى الثاني من سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م لتحريرها من براثن الزنج وظلمهم وإعادتها تحت سيطرة الدولة العباسية، وقد سبقه إليها ابنه العباس[٨] الذي بدأ هذه الحملة ضد الزنج والتي تبدو أنَّها موفقة منذ البداية .

وفي تلك الأثناء بلغت صاحب الزنج أنباء قدوم جيش الموفق إليه فأصابه هلعٌ كبير واحتار في أيِّ مسلك يسلكه، فلم يجد مخرجاً له من هذا المأزق سوى تركيز قوته كلها في مكان واحد وقذفها في وجه العباسيين الذين قدموا إليه بأعتى القوات وأحسن التجهيز. فأمر أحد قواده وهو علي بن أبان المهلبي الذي كان في الأهواز على رأس ثلاثين ألف من الزنج بالتوجه إليه في الحال بقوته وترك كلِّ مؤنته[١]، كما أرسل إلى بهبوذ[٢] بن عبد الوهاب الذي كان والياً في الغندم[٣] والباسيَّان[٤] بالتوجه إليه حالاً ليترك ورائه كلَّ شيءٍ[٥] .

---

[٤] – تاريخ الطبري ٦٨/٨

[٥] – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٥٨/٥ .

[٦] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٨/٦ .

[٧] – البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤١/١١ .

[٨] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٨/٦ .

[١] – الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٨/٦، ٢٩٩ .

[٢] – في الكامل في التاريخ لابن الأثير (بَهْبود) بالدال المهملة ٢٩٩/٦ .

[٣] – الغندم موضع بالأهواز، معجم البلدان لياقوت الحموي ٤٠١/٦ و في الكامل في التاريخ لابن الأثير هكذا (الغيدم) بالياء ٢٩٩/٦ .

وبهذا فقد ترك الزنج في هذه المناطق التي انسحبوا منها كميات هائلة من التموين المتمثل في الحبوب والتمر والمواشي لتقع في يد أبي أحمد الموفق الذي ازداد بها قوةً على حساب صاحب الزنج وقواته[٦]، الذين يصعب عليهم، بل يستحيل تعويض هذا الفاقد الكبير من الإمداد الضروري لمواصلة القتال .

وبعدما تحقَّقت للموفَّق مكاسب كثيرةٌ أخذ يحسب لكلِّ خطوةٍ ألفَ حساب بحيث ازداد حرصه كلَّ ما تقدَّم على تأمين خطوط الإمداد والمواصلات، وضمان مؤخَّرة جيوشه، وحفظها من أيِّ هجومٍ مباغتٍ ليقطع بهذا ورقة لطالما كانت رابحةً في يد صاحب الزنج الذي أجاد استعمالها ضد جيش الخلافة كثيراً وكسب بها معارك عديدة حتَّى صارت ديدناً له .

ثُمَّ زاد تركيزه على جانب الإمداد والتموين، فأخذ يضمنه لجيشه ويعمل جاهداً لقطعه على عدوِّه، وبذا دخل مرحلةً جديدةً في قتاله مع عدوه تمثلت في الحرب الاقتصادية التي لا تقلُّ أهميةً عن قتال العدو عن طريق العمليات العسكرية ومنازلته على ساحات المعارك والمواجهات[١]، بل لعلَّها تفوقها أهميةً قي بعض الظروف والأحايين .

كما عمد إلى هدم كلِّ المدن والخنادق والأسوار والحواجز التي بناها الزنج لعرقلة عدوهم جيش الخلافة والحيلولة دون تقدمه، كما أزال السدود والجسور من نهر دجلة وغيره من الأنهار التي تتخلَّل تلك المناطق[٢] .

وأرسل إلى محمد بن عبيد الله الثائر الكردي ليعقد معه صلحاً لتأمين جانبه فوافق الأخير على ذلك[٣]، فآمنه وعفا عنه، فطلب منه الأموال والعساكر فحضر عنده

---

[٤] – الباسيان: قرية تقع بخورستان، معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٦/٢ .

[٥] – تاريخ الطبري ٧٠/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٩/٦ .

[٦] – تاريخ الطبري ٧٠/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٩/٦ .

[١]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤٨/١١ .

[٢]– تاريخ الطبري ٥٣٧/٩ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤٨/١١ .

[٣]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٩٩/٦ .

فأحسن إليه بعدما دخل الموفق إلى جند يسابور وتُستر، وألحقهما بملك دولة بني العباس[٤] .

ومن هنا نلاحظ أنَّ مدن الأهواز أخذت تنهار سريعاً الواحدة تلو الأخرى أمام قوة جيش الخلافة وزحفه الهادر، حتَّى سيطر على كلِّ المنطقة، وانتزعها من الزنج المحتلين الذين آلمهم كثيراً فقدهم لها[٥] .

بناء مدينة الموفقية (٢٦٧هـ/٨٨١م):

لقد انحصرت مساحة رقعة الأرض التي تقع تحت سيطرة الزنج لتقتصر على مدينة المختارة عاصمة الزنج التي بناها صاحب الزنج في ٢٠رجب سنة٢٦٧هـ/٨٨١م، وبهذا صارت المعقل الوحيد والأخير بالنسبة للزنج .

وقد تتبع الموفق بجيشه الجرار فلول الزنج المنهزمة أمامه إلى المختارة للاحتماء بأسوارها وحصونها إلى أنْ وقف عند أسوارها التي هاله ما وجده فيها من أمر منعتها وكثرة عدد الزنج الذين تحصَّنوا بالمختارة المنيعة بما فيها من الحصون والخنادق والسدود والأسوار التي نشر عليها عددٌ من المنجنيقات وآلات الحصار المختلفة، وغيرها من آلات القتال التي يستعملها الزنج في الدفاع على مدينتهم من أي هجوم[١]، ولم يكتفِ صاحب الزنج عند هذا الحدِّ من التحصين والتمترس، بل أمر أصحابه بإنشاء المزيد من الدفاعات التي من شأنها صد العدوان من خارج المدينة[٢] .

ولحنكة الموفق وخبرته العسكرية أدرك في الحال أنَّ هجوماً مباشراً قد لا يكون مضمون النتائج؛ لذا قرَّر التريث والتروِّي والمرابطة قريباً من العدو، الأمر الذي دعاه إلى اتِّخاذ مقرّاً يعسكر فيه بحيث يفصله النهر عن مدينة المختارة[٣] .

---

[٤]– المصدر نفسه ٢٩٩/٦ .

[٥]– تاريخ الوردي ٢٣٩/١ .

[١]– تاريخ الطبري ٥٤١/٩، ٥٤٢ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٠/٦ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤١/١١ .

[٢]– تاريخ الطبري ٥٤١/٩، ٥٤٢ .

[٣]– المصدر نفسه ٥٤٣/٩ .

وما كاد الموفق أنْ يستقرَّ في مكانه هذا حتَّى انتقل إلى مكان أخر في ٢٤ رجب من سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م يقع على جانب دجلة الشرقي أي على نهر يدعى جطي، فأقام فيه وأخذ يُصلح من طرقه ومساكنه، ويُنشئ القناطر والجسور فتوافدت الناس إلى ذلك المكان التماساً للأمان، وتطلعاً للسلامة من شرور الزنج والاحتماء بجيش الخلافة[٤] .

فواقع الحال يشير إلى وجود قلق كبير من خطر الزنج وحنكتهم يجيش في داخل خلجات أبي أحمد الموفق هذا القائد المحنك الذي أدرك جيداً خطورة عدوه ومدى بسالته، وكيف لا؟ وقد لقَّن الزنج بقيادة صاحبهم علي بن محمد جيش الخلافة العباسية دروساً صعبة لن ينساها، بحيث استطاع الزنج بإرادتهم الصلدة وإصرارهم منقطع النظير دحر كلِّ الحملات التي شنتها الخلافة العباسية ضدهم للقضاء على ثورتهم العارمة ولكن دون جدوى بحيث تساقط القادة العسكريين من أتراك وغيرهم – على نحو ما مرَّ بنا – على أعتاب الزنج الواحد تلو الآخر، فكانوا في كلِّ الأحوال يعودون خاليي الوفاض يتجرعون غصغص الهزيمة الأمر الذي جعل القائمين على الخلافة العباسية في حَيرة لا يجدون سبيلاً للخروج منها .

وفي هذه الأثناء كان الموفق يُعِدُّ جيشه، وينظم صفوفه، ويعيد تعبئته دونما أحداث صدام يذكر بينه وبين الزنج، وبقيت الأمور على هذه الحال إلى يوم ١٤ شعبان من سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م[١] .

لم يطل المقام بأبي أحمد الموفق في معسكره هذا، بل انتقل إلى مكان جديد عسكر فيه بجيشه بجانب المختارة على جانب دجلة، وأمر ببناء مدينة اشتقَّ لها اسماً من اسمه فسمَّاها (الموفقية) في منتصف شعبان من سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م[٢] .

والواقع، فإنَّ الموفق ببنائه لموفقيته هذه كان قد بنى حجر أساس توفيقه في هزيمة الزنج والقضاء عليهم نهائياً، خصوصاً كونها تتمتع بموقع جغرافي يجعلها ذات أهمية استراتيجية بالنسبة للدولة العباسية إذ تقع بجانب المختارة مدينة الزنج ومرادفةً لها .

---

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٤٠/٧ .

[١]– تاريخ الطبري ٧٧/٨ .

[٢]– تاريخ الطبري ٥٤٤/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠١/٩ .

فبهذا البناء فقد الزنج وصاحبهم – فيما أحسب – ورقةً قويةً ورابحةً لطالما كانوا يستعملونها على أحسن ما يكون الاستعمال، وهي بعدهم على عاصمة الخلافة التي كان الجيش العباسي دائماً يعاني مشاق الطريق، ويكابد بعد المسافة إذ كان في كلِّ مرَّة يشن فيها هجوماً على الزنج يواجه عناء السفر وبذل الجهد المضني والوقت الطويل ليصلَ منهكاً إلى المختارة أو غيرها من المناطق التي يسيطر عليها الزنج ، وفي هذا ما فيه من العقبات الجمَّة التي تحول دون تحقيق أي نجاح أكيد للجيش العباسي يمكن أنْ يُعوَّل عليه، الأمر الذي أرَّق العباسيين وقادتهم وجنودهم كثيراً .

أمَّا الآن وبعد بناء الموفقية، فإنَّ الموفق قد وفَّرَ على الدولة العباسية وقواتها كلَّ هذا، لِمَا في ذلك من تأكيد على الحنكة العسكرية التي يتمتع بها الموفق، والتخطيط السليم، الذي من شأنه تضييق الخناق على العدو ليضمن بذلك دحر عدوه وسحقه لتمكنه منه بقربه إليه جغرافياً، علاوةً عن تلك الإمكانيات والقدرات التي يتمتع بها الجيش العباسي والتي ستظلّ فاعلةً طالما كانت قريبةً من عدوها ومتاخمةً له ولا تحتاج لشد الرِّحال إليه، مثلما كان يجري في كلِّ مرة يقرر فيها قادة الجيش التحاماً مع الزنج وقتالهم، وخلافاً لما مضى من الزمان الذي شنَّت فيه الخلافة عديد الحملات ضد الزنج، ولكنَّها لم تفلح – على نحو ما مرَّ بنا – من أمر الصراع بين الدولة والزنج في وضع حدٍّ له .

والواقع، فإنَّ الموفق اتَّخذ من السبل والاحتياطات بالقدر الذي يكفل نجاح قيام هذه المدينة وظهورها على وجه البسيطة، فكان لها الازدهار والنمو سريعاً، فعمَّ فيها الرخاء جراء تلك القوافل التجارية والسفن المحمَّلة بالبضائع والمؤن التي أخذت تتوافد عليها، فتدافع إليها التجار قادمين من مختلف البلدان[١] يعرضون أصنافاً عديدة من البضائع والسلع، مِمَّا أدَّى إلى إنشاء الأسواق بالمدينة التي غصَّت بالبائعين والمشترين على حدِّ السَّواء[٢] .

وقد أحوجه ذلك النشاط التجاري الكبير إلى إصدار عملة خاصة به من الدراهم والدنانير التي عن طريقها تتمُّ المعاملات من الشراء والبيع بين الناس .

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٤٠/٧ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤١/١١ .

[٢]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٤٩/١١ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي٢١٢/١٢ .

والجدير بالذكر أنَّ السفن التجارية كانت لا تستطيع أنْ تجوبَ في النهر بسبب أنَّ الزنج قد قطعوا المواصلات النهرية من زمن بعيد يربو على العشر سنوات، إلاَّ أنَّه وبعد انحصار سيطرة الزنج وتراجعهم بسبب ضغط الموفق بجيشه عليهم وتحقيقه نوعاً من النصر الذي يبشِّر بقدوم نصرٍ كاملٍ شاملٍ، هذا النصر وإنْ كان غير كاملٍ، فإنَّه قد استطاع الموفق به أنْ يصِلَ ما كان مقطوعاً بسبب غطرسة الزنج وسيطرتهم على منافذ تلك المنطقة البرية منها والمائية، فأخذت السفن التجارية، وغيرها من القوافل البرية تعبر أنهار تلك المنطقة وممراتها بسلام[٣] .

وأهتمَّ الموفق ببناء مرافق هذه المدينة، فلم يهمل منها شيئاً بدءاً من الأسواق والدور والقصور ودور العبادة، وكلَّ ما تحتاجه من خدمات ومرافق، حتَّى أنَّه أنشأ مسجداً جامعاً وأمر الناس بإقامة الصلاة فيه[٤] .

والحقيقة، فإنَّ هذه المدينة وإنْ كانت حديثة الإنشاء جديدة البناء فقد احتوت على جميع المرافق، وسيقت إليها صنوف المنافع حتَّى كان ساكنوها لا يفتقدون شيئاً مِمَّا يوجد في الأمصار العظيمة القديمة، وجمعت الأموال وادرَّ الموفق للناس العطاء في أوقاته فاتَّسعوا في أرزاقهم، وحسنت أحوالهم ورغب الناس جميعاً في المصير إلى المدينة الموفقية والمقام فيها "[١] .

وبمجرد اكتمال بناء الموفقية، وسريان الحياة فيها بدأ الموفق بحبك خطّة متأنية طويلة الأمد تعتمد على عناصر عدَّة على رأسها حصار الزنج، والضغط عليهم بحيث استطاع أبو أحمد الموفق أن يقطع الميرة عن الزنج وذلك بقطعه سبل المواصلات عنهم؛ لأنَّه كان يدرك جيداً أنَّ الحصار الاقتصادي بقطع جميع أنواع التموين هو أجدى أنواع الضغط من أجل القضاء على الزنج، وإفشال حركتهم، وإيذائهم أشد ما يكون الإيذاء؛ على أنَّ الزنج حاولوا كثيراً إفشال هذه الخطَّة واختراق هذا الحصار، الأمر الذي أوجب جهداً مضنياً على الموفق لدحض مقاومة الزنج

---

[٣]– تاريخ الطبري ٥٤٤/٩ .

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠١/٦ .

[١]– تاريخ الطبري ٧٩/٨ .

لهذا الحصار، والحفاظ عليهم وهم يرزحون تحت نير المعاناة بدون تموين بإطباق القبضة الحديدية وإحكامها عليهم[٢] .

وهذا الأمر لم يكن متاحاً للموفق ولا للدولة كما هو معروف قبل بناء الموفقية بحيث أصبحت مدينته جارةً للمختارة عاصمة الزنج وملاذهم الأخير .

وبهذا الوضع صار الزنج فاقدين لجميع قنوات تموينهم، وازدادت صعوبة حصولهم على التموين اللازم باتِّخاذ الموفق خطوات حاسمة من شأنها تطويق كلِّ جهود الزنج التي يبذلونها لكسر حصار الموفق لهم والحصول على التموين والعدَّة والمؤن، فأنشأ أبو أحمد الموفق سوقاً في البصرة يؤمِّن حاجة الناس من جميع احتياجاتهم الحيوية من غذاء وعلى رأسه التمر الذي يعدُّ غذاءً رئيسياً لهم في ذلك الوقت، ولم يكتفِ أبو أحمد بهذا، بل ضيَّق عليهم فسدَّ آخر مصدر يحصلون منه على الغذاء بحيث أوقف تزويد الزنج بالسمك ومنعه عنهم منعاً باتاً[٣] .

وأخذت السبل تضيق على علي بن محمد صاحب الزنج شيئاً فشيئاً جراء هذا الحصار المحبوك ضده وضد جيشه وأتباعه خصوصاً مع مطلع السنة الثانية لهذا الحصار ٢٦٨هـ ، فبعد أنْ سُدَّتْ في وجهه جميع الطرق التي تمكنه من الحصول على لوازمه، ويأتيه منها التموين براً ونهراً، لا بُدَّ له من خلق سبيل بديل يجد فيه شيئاً من احتياجاته من المؤن، فأخذ يتحيّن الفرص لعبور نهر الأمير إلى القندل وصولاً إلى الطرق المؤدِّية إلى البرِّ والبحر ليحصلَ على حاجته من السمك . إلاَّ أنَّ أبا أحمد سرعان ما فطن له واكتشف خط سيره فقطعه عليه[١]، وبذا شمل الحصار البر والنهر والبحر الأمر الذي جعل السبل تتقطَّع بالزنج " فلم يكن لهم من سبيلٍ إلى برٍّ ولا بحرٍ، فضاقت عليهم المذاهب وأشتدَّ عليهم الحصار "[٢] .

---

[٢]– تاريخ الطبري ٥٤٥/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠١/٦ .

[٣]– تاريخ الطبري ٩٤/٨ .

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٣/٦ .

[٢]– تاريخ الطبري ٩٢/٨ .

ولم يبقَ من سبيلٍ لهم سوى أُولئك الأعراب من بني تميم الذين ساعدوا الزنج على احتلال البصرة، حيث كانوا يأتون خلسةً إلى المختارة ويحملون إليها المؤن والحيوانات من الإبل والأغنام عن طريق الأنهار.

وبمجرد أنْ علم بأمرهم الموفق، وكشف ما يقومون به أرسل إليهم رشيقاً غلام أبي العباس الذي هاجمهم أثناء سيرهم إلى المختارة، وصادر بضائعهم التي كانت بصحبتهم، واستولى على ما كانوا يحملونه من المير والمؤن وغيرها؛ وكان عقاب هؤلاء الأعراب عسيراً حتَّى لا يُقْدِموا أو يُقدم ويَجرؤ غيرهم على مساعدة الزنج بجلب الغذاء والدعم إليهم[٣] .

وبذلك فقد الزنج أخر سبيل لهم للحصول على شيء يسدُّ رمقهم من الغذاء والتموين وسُدَّت في وجوههم كلُّ السبل والمسالك إلى الحصول على المؤن، وكلِّ ما يلزمهم من مقومات تجعلهم يصمدون في وجه جيش الخلافة.

وبهذا صار الزنج يتأثرون بهذا الوضع فظهرت عليهم أثاره الكثيرة والتي من أهمها أنْ قلَّت الموارد لديهم ونقص الطعام والتموين فبدأوا يشعرون بتفشِّي الجوع والفاقَّة بينهم وتأذُّوا كثيراً " فأضرَّ بهم الحصار وأضعف أبدانهم، فكان الأسير منهم يؤسر والمستأمن يستأمن فيُسأل عن عهده بالخبز فيعجب من ذلك ويذكر أنَّ عهده بالخبز منذ سنة أو سنتين "[٤]، وتفاقمت أحوال الزنج الاقتصادية وتدهورت أمورهم وانتشر بينهم الجوع والقحط، حتَّى يروى أنَّهم أكلوا لحوم الناس، فنبشوا
القبور فأكلوا لحوم الموتى[١] .

ولعلَّ في هذا ما يفوق الخيال ويعطينا صوراً أسطورية على بعد ذلك المدى الذي ذهب بالزنج فيما يخصُّ مسألة الطعام والتموين والغذاء، ويصوِّر لنا مدى الضرر البالغ الذي لحق بالزنج بسبب ذلك الحصار المحكم الذي ضربته عليهم دولة بني العباس والذي أحسبه أنَّه قد أتى بقاصمة الظهر بالنسبة لصاحب الزنج وأصحابه .

---

[٣]– المصدر نفسه ٩٧/٨ .

[٤]– المصدر نفسه ٩٧/٨ .

[١]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٦٣/٥ .

وعندما ظهرت هذه النتائج الباهرة للحصار بالنسبة للخلافة العباسية، والمضروب على الزنج، زاد الموفق من ضغطه عليهم وإحكام قبضته ليقترب من النهاية التي لطالما حلم بها وسعى إليها كلُّ قادة الخلافة العباسية .

واستمرَّ الحصار وزادت حدَّته، وتعاظمت معاناة الزنج حتَّى تفرَّقوا بحثاً عن قوتهم ليحتموا به من شدة وطأة الجوع الذي حلَّ بهم فأضرَّ بقوتهم وتماسكهم كثيراً، فقصدوا الأنهار يصطادون الأسماك، ويبحثون على التمر في مواضعه وهنا كانت فرصة جيش الموفق الثمينة التي كان ينتظرها بحيث أخذ يتصيِّد هؤلاء ويوقعهم بين قتيلٍ وأسير، وهكذا حتَّى انفضَّ عددٌ كبيرٌ من الزنج[٢] من حول صاحبهم علي بن محمد وتركوه يكابد المصائب والمتاعب، وتفاقمت عدوى هجرانه من قبل أصحابه حتَّى طالت ابنه الذي حاول الهروب منه والانضمام إلى جيش الموفق، إلاَّ أنَّ أباه علي بن محمد عندما سمع بنبأ ابنه قام بقتله[٣] .

وكما رأينا، فإنَّ من ثمرات هذا الحصار المهمَّة هي انضمام أفراد من جيش الزنج إلى جيش الخلافة العباسية قادةً وجنوداً، خصوصاً عندما لمسوا منه ترحاباً كبيراً بهم، فقد أخذ يعفو عنهم، ويجزل لهم العطاء، ويظهرهم بمظهرٍ لائقٍ أمام أصحابهم الذين لم يلتحقوا بجيش الموفق؛ فكانت هذه السياسة ناجحةً فتمسَّك بها الموفق " حتَّى استأمن إليه خلقٌ كثيرٌ "[٤] لما كان ينفقه من النعم والمنح، بحيث كان يبذل للمنضمين إليه كرماً وسخاءً وافرين، الأمر الذي كان يغري أصحاب محمد بن علي ويجعلهم يتأثَّرون، فيعمدون إلى هجره والانضمام إلى جيش الخلافة خصوصاً أنَّ أملهم في النصر قد تلاشى بناءً على ما يرون من أمر ما يحدث على أرض الميدان وما يمليه واقع حالهم من حقائق .

ففكروا في أمر هذه الثورة، وأعادوا النظر فيها، والتي بدأ لهم واضحاً جلياً بعد طول قتال وكفاح وتضحيات جِسام أنَّها ليست في مستوى تحقيق طموحاتهم، بل أنَّها أئلة للفشل والاضمحلال والأفول . وبذا فقد صاحب الزنج خيرة قوَّاده الذين انضمُّوا إلى

---

[٢]– المصدر نفسه ٦٣/٥ .

[٣]– تاريخ الطبري ١٠١/٨ .

[٤]– المصدر نفسه ٩٢/٨ .

جيش الموفق فبات لا يثق في جميع من بقوا معه فوكَّلَ بكلِّ ناحية يرى أنَّ فيها طريقاً للهرب من عسكره حرَّاساً وعيوناً، وأمرهم بضبط تلك النواحي، واجتهد في سدِّ كلِّ مسلكٍ أو طريق أو ثلمة؛ لئلاَّ يُطمع في الخروج من مدينته[1] .

وفيما مضى من حديث رأينا كيف أنَّ الموفق اتَّبع سياسة متأنِّية طويلة الأمد تمهد له طريق النصر على عدوه الذي بات يقترب بهذا الحصار إلى هزيمته المنكرة يوماً بعد يوم.

وبعد أنْ تأكَّد للموفق جهوزيته للانقضاض على المختارة عاصمة الزنج ومعقلهم الأخير لكون أنَّ جيشه بات معباً على أحسن ما تكون التعبئة فتضاعف عدده بما انضمَّ إليه من الزنج الفَّارين من علي بن محمد؛ وبعدما تأكَّد من أنَّ المختارة صارت على أعتاب الانهيار بما تقاسيه من حصارٍ مميت، أعطى فرصةً لصاحب الزنج علي بن محمد، إذ أرسل إليه بكتابٍ يدعوه فيه إلى الاستسلام والتوبة والعودة إلى الله تعالى، وطلب المغفرة منه على ما اقترفه من ذنوبٍ وكبائرَ بسفك الدماء وانتهاك الحرمات، وفسادٍ في الأرض بهدم الدور وتخريب البلدان، ونشر الفساد باستحلال الفروج، ونهب الأموال، وإحراق الحجر والشجر، وانتحال ما لم يكن أهلاً له من ذلك ادعائه للنبوة والرسالة[2] .

فأعطاه الأمان في حال ما اقلع على ما هو عليه مما يُغضب الله تعالى، ودخل في جماعة المسلمين، ودعاه إلى الطريق السوي، ووعده بالتجاوز عنه والعفو عمَّا سلف له من عظيم جرائمه[1] .

إلاَّ أنَّ صاحب الزنج بغطرسته وطغيانه لم يرد على كتاب الموفق[2]، وأصرَّ على موقفه الذي يزداد سوءاً وتفاقماً مع مرِّ الأيام، الأمر الذي يدلُّ على تزمته وتعنته وعدم وعيه وإحساسه بصعوبة وضعه ووضع أتباعه وخطورته، ولعلَّه بهذا قد فوَّتَ فرصةً ثمينةً يستحيل حصوله عليها ثانيةً .

---

[1]- تاريخ الطبري ٥٨٤/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٤/٦ .

[2]- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٠/٦ .

[1]- تاريخ الطبري ٧٤/٨-٧٥ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٩/٧ .

[2]- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٠/٦ .

أمَّا الموفق فلم يجد بداً من اقتحام حصون المختارة ودكِّها، وقهر عدوه ذلك اللدود الذي لطالما اقضَّ عليه نومه وكاد يفسد أمر سلطان بني العباس وينتهب ملكهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً[٣] .

*****

سقوط المختارة (٢٧٠هـ/٨٨٣م):

طال حصار الموفق بقواته لمدينة المختارة عاصمة الزنج، وأخر معقلٍ لهم، وتعاظمت خطورته وأثاره على الزنج الذين باتوا بسببه جوعى بائسين، ومع ذلك ازداد عناد صاحبهم علي بن محمد الذي عرض عليه الموفق – على نحو ما مرَّ بنا آنفاً – الأمان والعفو مقابل توبته وتخليه عن ثورته هذه والكف عن قتال الدولة العباسية

[٣]– المصدر نفسه ٦/٣٠٠ .

والخروج عن سلطانها، فرفضه وأعرض عنه، الأمر الذي اضطرَّ الموفق ودفعه للإصرار على قتاله واقتحام المختارة[1] .

فلم يتردد الموفق في ذلك إذ شنَّ هجوماً في ذي القعدة سنة ٢٦٧هـ/٨٨١م استطاعت خلاله قواته التوغل إلى داخل المدينة، وأعملت فيها تخريباً وتحريقاً وتقتيلاً إلاَّ أنَّ هذا الهجوم كان خاطفاً إذ سرعان ما انسحب الموفق منها[2] ليعيد الكرَّة مرَّةً أخرى في ١٦ ربيع الأخر سنة ٢٦٨هـ/٨٨٢م بصحبة ابنه أبي العباس ونخبة من قواده إذ جلب معه عدداً من المهندسين والعمال الذين أمرهم بهدم سور مدينة المختارة وعدم دخولها[3] .

فكان لهم ذلك إذ كانت النتيجة هدم جانبٍ كبيرٍ منه، ولكنَّهم أخطأوا عندما لم يلتزموا بأوامر الموفق بعدم دخول المدينة، واستسلموا لنشوة الفرحة بتمكنهم من هدم أجزاء كبيرة من سور مدينة المختارة، الأمر الذي بثَّ فيهم الحماس فتابعوا مسيرهم ودخلوا المدينة مخالفين بذلك أمر الموفق[4] .

وهنا كان الخطأ المميت بحيث أوقعهم الزنج في مصائدهم والممرات والدهاليز التي كانوا يجهلونها، ومن ثَمَّ ارتبك الجميع، مِمَّا جعل الزنج يتمكنون منهم ويوجهون إليهم ضربةً موجعةً أُجبر بسببها جيش الخلافة على التراجع للاحتماء خلف النهر وجيش الزنج يلاحقهم وقد كبَّدهم خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد حتَّى أنَّ الموفق نفسه قد أُصيب إصابةً بالغةً في هذا الهجوم الذي شنه الزنج عليهم، وكلُّ هذا كان نتيجةً لمخالفة أوامر الموفق من قبل أولئك الذين كلِّفهم بمهمة هدم أسوار مدينة المختارة فحسب دونما التقدم إلى داخل المدينة والتوغل فيها[1] .

والواقع أنَّ الموفق قد أصابه شيءٌ من الذهول والاستغراب، عندما رأى ما رآه من بأس وشدَّة عند مواجهتهم له، إذ كيف تكون ردَّة فعل الزنج بهذه القوة وقد عانوا من الحصار ما عانوه إلى درجة أنَّ أجساد بعضهم لا تكاد تقوى على النهوض فأصابهم

---

[1]- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢١١/١٢، ٢١٢ .

[2]- تاريخ الطبري ٥٥٠/٩ .

[3]- تاريخ الطبري ٩٣/٨ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٩/٦ .

[4]- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٩/٦ .

[1]- تاريخ الطبري ٩٣/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٩/٦ .

ما أصابهم من المجاعة والفاقة، وقد خاض المؤرخون في أمر مجاعة الزنج هذه فذهبوا كلَّ مذهبٍ، ولم يتردَّدوا في المغالاة وتهويل الأمر إلى درجة أنَّهم قالوا بأنَّ الزنج من شدة مجاعتهم أكلوا لحوم البشر، بل لحوم الأموات، وأحسب هذا غلواً منهم، بل نسج خيالٍ ليشعر السامع بمدى فداحة مصير الزنج جراء هذا الحصار وما جرَّه عليهم من مصائب .

وما أمر ردة الفعل القوية الموجعة هذه بالنسبة للموفق إلاَّ دليلاً على شدَّة مراس هؤلاء القوم، وتفانيهم في الدفاع عن مدينتهم وبالتالي ثورتهم رغم ما هم فيه من معاناة، وأحسب أنَّ أمل الموفق في القدرة عليهم كان ليتلاشى لو لم يكن هذا الحصار الخانق مسلطاً عليهم .

وبعد فشل هذه المحاولة الذريع كان لزاماً على الموفق حزم أمره وإعادة التخطيط لشن هجوم آخر ضمن خطَّة لا تقبل التسفيه .

ولعلَّ الموفق قد أفاد من استراتيجية القرب من عدوه جغرافياً مع الإبقاء على التيقظ والانتباه بشكلٍ يمنع مباغتة الزنج ومفاجأتهم له وهو أمر راهن عليه صاحب الزنج وأصحابه كثيراً، ونجحوا فيه مراراً كثيرة في منازلاتهم مع جيش الخلافة، زد على ذلك أنَّ القرب من الزنج يفيد أحمد أبا الموفق في تضييق الخناق على العدو، ويمكنه من مراقبة أحواله وتحركاته بدقة، كما يساعد على انضمام مَنْ يريد مِن جيش الزنج إلى جيش الخلافة، إذ بقربه منهم يسهل عليهم الإفلات من صاحب الزنج والالتحاق بأبي أحمد الموفق الذي لا يتردد في استقبالهم وإكرامهم .

لذا اتخذ معسكراً جديداً على الجانب الغربي من النهر، وحاول تغيير معالم طبيعة المنطقة وإزالة العوائق؛ فأمر بقطع أشجار النخيل وتحصين الموقع بالخنادق والجسور والأسوار العالية ليتحصَّنَ من عدوه ويؤمِّن جيشه[1] .

ولكن، وكما يُقال: تَأْتِي الرِّيَاحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السَّفَنُ[2]؛ فإنَّ الرياح قد عصفت فأغتنم صاحب الزنج هذه الفرصة، فشنَّ هجوماً قوياً على جيش الموفق مندفعاً بكامل قوته

---

[1]– تاريخ الطبري ١٠٣/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٥/٦ .

[2]– سبق تخريج المثل ص ١٠٤ من هذا البحث .

مِمَّا أجبر الموفق على الانهزام والتراجع، فترك هذا المعسكر الذي بناه حديثاً قريباً من الزنج[٣] .

ودأب الموفق بعد ذلك على تكرار محاولات هدم أسوار المختارة[٤]؛ لأنَّه بات يدرك جيداً منعة هذه المدينة بأسوارها وحصونها، فرأى فيها العائق الكبير لزحفه عليها واحتلالها .

وبناءً على ما مضى رأى أبو أحمد الموفق أنَّ مهاجمة جيش الزنج مباشرةً في عقر دارهم أمرٌ لا يخلو من المجازفة، وهذا ما تأباه خبرةُ قائدٍ متمرسٍ مثل الموفق؛ لذا اكتفى بالاعتماد على الهجمات الخاطفة بشكلٍ مؤقت إلى حين أنْ يتأكد من إضعاف قوة الزنج وإنهاكهم، ومحاولة اختراق صفوفهم إلى أنْ يكون الأمر مواتياً له لشن هجومٍ شاملٍ مضمون النتائج لإدراكه لمدى خطورة الزنج وشراستهم خصوصاً عندما تتم مهاجمتهم .

فكان يحاول في كلِّ هذه الهجمات الخاطفة التي كان يستعمل فيها النار اليونانية والرصاص المذاب، كما كان يعمد إلى إحراق مرافق العدو ومنشأته وساعدته في ذلك السفن الحربية[٥] .

وكانت من نتائج هذه الحملات على أرض الميدان إحراق عدد من دور الزنج وبيوتهم، كما أحرقوا أسواق مدينة الميمونة التي تطل على نهر دجلة[٦] .

هذا على المدى المنظور الظاهر أمَّا على صعيد استراتيجية الحرب والمعارك، فإنَّ في هذا ما فيه من إضعافٍ للزنج وإحباط لهممهم وقذفٍ للرعب في قلوبهم،

مِمَّا يساعد على خوران عزائمهم وربَّما الاستسلام أو على الأقل ضعف أرائهم وقلَّة حيلتهم عند اللقاء والمنازلة وهو أمرٌ عمد إليه الموفق وهو يَعرفُ تماماً ما يعود عليه وعلى جيشه من نصر قريبٍ مؤزَّرٍ .

---

[٣]– تاريخ الطبري ٥٦١/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٥/٦، ٣١٦ .

[٤]– تاريخ الطبري ١٠٤/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٦/٦ .

[٥]– تاريخ الطبري ٤٩٢/٩ .

[٦]– تاريخ الطبري ١٠٦/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥٣/٧ .

وفيما يبدو أنَّ الموفق استعجل ثمرة هذه السياسة الحربية عندما وضع نصب عينيه هدم المسجد الجامع في مدينة المختارة، فأمر جيشه بتنفيذ هذه المهمة التي عانى منها جيشه كثيراً[١]؛ لذلك العنت والعناد اللذيْن وجدوهما لدى الزنج الذين استماتوا في الدفاع عن مسجدهم؛ لأمرٍ لا يخفى على أحدٍ من المسلمين، فوقفوا صفوفاً متراصَّة وقد عرَّضوا أجسادهم للطعن بالسيوف والرِّماح .

وقد خصَّص الموفق عدداً من جيشه المزودين بآلات الهدم ومعداته الذين ظلُّوا في عملٍ دؤوب حتَّى أنهار المسجد، وبعد ذلك حملوا منبره إلى مدينة الموفقية[٢] بالتهليل والتكبير وهم فرحين باقتراب النصر وثقتهم به، واعتبروا هذه الخطوة قفزة في بداية هزيمة الزنج واندثار ثورتهم، واندحارهم ومن ثَمَّ واصل الموفق مهاجمته لأسوار المدينة بقصد هدمها وإزالتها؛ ولأنَّه يدرك جيداً أنَّ الوقت قد حان للاستمرار [٣]، وأنَّ أيَّ تباطيء ليس في صالحه، وأنَّ عليه الضغط وقذف كلِّ ما يملك من قوى في وجه الزنج دونما هوادة.

وعلى إثر هذا الاستمرار والإصرار من طرف أبي أحمد الموفق انهارت دواوين الزنج، فاستُحِلَّ ملكهم وهُدمت خزائنهم ونُهبت؛ الأمر الذي ينبئ المتتبع لثورة الزنج ومراحلها بانهيار دولتهم التي لم تكد أنْ تقوم[٤] .

وبينما يتأهَّب العباسيون إلى قطاف نصرٍ مؤزَّرٍ يثمر بانهيار مدينة المختارة وسقوطها في أيديهم ورحيل الزنج عنها، وفي الوقت الذي تأكد العباسيون من نصرهم وأيقنوا من أنَّه على بعد مرمى حجر، أفصحت الأقدار عن رفضها لهذا الواقع إذ أصيب أحمد الموفق بسهمٍ طائشٍ في صدره قد رماه به عبد رومي يدعى (قرطاس) سقط الموفق على إثر هذه الإصابة عاجزاً عن إدارة دفة المعركة والقيادة، وكان هذا في يوم ٢٥ جمادى الأول سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م[١] .

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٦/٦ .

[٢]– المصدر نفسه ٣١٦/٦ .

[٣]– المصدر نفسه ٣١٦/٦ .

[٤]– المصدر نفسه ٣١٦/٦ .

[١]– تاريخ الطبري ٥٦١/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٦/٦، ٣١٧ .

وبهذا الحدث الكبير الجلل تأثر الجيش العباسي واعترته البلبلة والاضطراب، وقد أُوقف القتال بسببها، بل صار حتماً على الجيش العباسي إيقاف جميع العمليات الحربية، الأمر الذي أعطى فرصةً ذهبيةً للزنج لكي يعيدوا بناء صفوفهم التي تبعثرت وكادت تتفرَّق وتنحل لولا تدخل القدر بإصابة الموفق في وقت يناسب الزنج تماماً، ويعدُّ بمثابة راحة واستجمام بعدما دبَّ اليأس إلى قلوبهم وكان الموفق قد جرَّهم إلى شفير النهاية، ولكن يظلُّ هذا الوضع مرهوناً بتماثل الموفق للشفاء الذي ناله بمشيئة الله سبحانه وتعالى في شهر شعبان سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م[٢] .

وفيما كان الموفق بصدد التخطيط لإعادة الهجوم على المختارة في شهر شعبان من سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م ورده خبر هرب[٣] أخيه الخليفة المعتمد من سامراء، الذي لجأ إلى ابن طولون؛ فزاد هذا إبطاء موعد الهجوم على المختارة، وأعطى وقتاً ثميناً للزنج لإعادة التعبئة والاستعداد لما يأتي من مواجهات مع جيش الخلافة، بل إنَّ صاحب الزنج انتهز هذه الفرصة وعمد إلى إعادة ترميم وبناء ما تهدَّم من أسوار عاصمته المختارة[٤] .

وفي هذه الأثناء وجَّه الموفق جُلَّ اهتمامه لأمر أخيه الخليفة المعتمد الذي أزمع شدَّ الرِّحال إلى عدوِّه محتمياً به من أخيه الموفق، إلاَّ أنَّ هذه المحاولة قد أُحبطت على نحو ما مرَّ بنا آنفاً .

وفيما مضى من محاولة العباسيين احتلال مدينة المختارة عاصمة الزنج وأخر معقلٍ لهم، يلحظ المتتبع للأحداث أنَّ الظروف مراراً قد خدمت الزنج وعارضت جيش الخلافة بكثيرٍ من العقبات، فمن إصابة الموفق إلى محاولة فرار الخليفة المعتمد أخِ أبي أحمد الموفق إلى أخره .

الأمر الذي أبقى على مدينة المختارة سالمة صامدة في وجه زحف الجيش العباسي وتحت الحصار المحكم والضغط المستمر زهاء ثلاث سنوات .

---

[٢]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٥٠/١١ .

[٣]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٢٢/١٢، ٢٢٣ . والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٥١/١١ .

[٤]– تاريخ الطبري ١٠٩/٨ .

ولمَّا طاب للموفق زمانه، وشعر بأنَّه متفرغٌ من جديد للزنج وقتالهم، حرَّك جيشه في شهر شعبان سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م صوب المختارة في كرَّةٍ جديدةٍ، فاستطاع بهذه الوصول إلى قصر صاحب الزنج وإحراقه وتدميره، وفي الأثناء تمكَّن من تحرير عدد كبير من السبايا[١]، وبذا صارت المختارة ترزح تحت ضغط شديد جراء زحف بني العباس عليها كادوا به ينتزعونها من صاحب الزنج علي بن محمد وأتباعه، غير أنَّ الأخير كان كما عرفناه طيلة هذه الرحلة الطويلة معه ومع ثورته وثوَّاره عنيداً شديد المراس صعب الاستسلام طويل النفس بكثرة مناوراته وتجلده المصحوب بحنكةٍ حربيةٍ عاليةٍ لا يتخلَّى عنها حتَّى وهو في أصعب الظروف، من ذلك أنَّه قام بإغراق الأرض التي يسلكها الموفق بجيشه بالمياه، وهو يكاد يلفظ أنفاسه بإدراكه قرب نهايته، فعرقل حركة عدوه وأبطأها كسباً للوقت حتَّى يتمكَّنَ من حفر الخنادق وإنشاء الحواجز في وجه أعدائه، كما عمل على تحصين داره في هذه الأثناء[٢] .

وعندما حاول أبو أحمد طمَّ الخنادق واقتحامها واجهه صاحب الزنج بشراسة ودارت بين الفريقين معركةٌ طاحنةٌ، فاستمات الزنج في الدفاع عن مدينتهم ملتفين حول قائدهم علي بن محمد الذي أمر الرُّماة بأنْ يمطروا جيش بني العباس بالنشاب والمجانيق والعرادات والرصاص المذاب والمقاليع، وبكلِّ ما استطاعوا وبكلِّ ما يملكون من قوة[٣]؛ لأنَّه يدرك تماماً أنَّه لا خيار له ولا فرصة بعد هذه إنْ تفوَّق عليه الموفق .

ولمَّا استشعر الموفق استماتة الزنج في الدفاع عن مدينتهم وغلظتهم في القتال، لجأ إلى الحيلة التي توفِّر عليه جهداً وتضحية كبرين؛ لغرض إصابة الزنج بالإحباط، فحاول شن حربٍ نفسيةٍ عليهم وذلك بهدم دار قائدهم صاحب الزنج علي ابن محمد، فقام بإعداد نخبة من أصحابه للقيام بهذه المهمة الصعبة التي تكاد تكون مستحيلة، فأعدَّ عدداً من السفن؛ ولأنَّه كان موقناً من أنَّ الزنج سيواجهونها بإلقاء النيران عليها،

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥١/٧ .

[٢]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٧/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٢٤/١٢ .

[٣]– تاريخ الطبري ٥٦٥/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٧/٦، ٣١٨ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٦٧/٥ .

قام بتغطيتها بجلود الجواميس التي غُطِّيت هي الأخرى بالجبس المطلي بصنوف العقاقير والأدوية التي ليست قابلة للاشتعال، وصعد على ظهر هذه السفن نخبةٌ من الجنود من أمهر الرماة والقنَّاصين والنَّفَّاطين استعداداً للقيام بالمهمة الصعبة بحرق دار صاحب الزنج[١] .

وكان من نتائج هذه الخطة الدقيقة أنْ أُحرقت دار صاحب الزنج الذي فرَّ منها تاركاً كلَّ ما يملك من أموال وأمتعة تتلاعب بها ألسنة النيران التي أضرمها جنود الموفق الذين حرَّروا عدداً ليس بالقليل من النساء اللاتي كنَّ سبايا عند صاحب الزنج[٢] .

إلاَّ أنَّ الطالع الحسن نهض من جديد لصاحب الزنج وأتباعه إذ يُصاب الموفق بعد أنْ كانت كفَّته هي الرَّاجحة، حيث جُرح جرحاً خطيراً[٣]، وما كاد يتماثل للشفاء حتَّى أُصيب بداء النقرس الأمر الذي أطال المدة التي أرادها الزنج حيث توقفت الحرب مدة تربو على شهرين شملت شهري شعبان ورمضان وبعضاً من شوَّال لسنة ٢٦٩هـ٨٨٣م فتمكَّن صاحب الزنج خلالها من إعادة تنظيم صفوف جيشه وتحصين مواقعه[٤] .

وكما رأينا، فإنَّ الفترة التي أُوقف فيها القتال بالأسباب السابقة الذكر كانت ليست بالقصيرة نسبياً، بل كانت تكفي ليعدَّ فيها الزنج بناء قنطرة ضخمة محصنة بالحديد والحجارة على نهر الخصيب[٥] لغرض عرقلة سفن جيش الخلافة، ومنعها من المرور، زد على ذلك أنَّه بنى جسرين ضخمين على النهر ذاته؛ إلاَّ أنَّ هذا كلَّه لم يصمد في وجه الموفق وجيشه الزاحف بعد أنْ استعاد عافيته، بحيث عمد إلى استئناف زحفه، فتمكَّن من إزاحة القنطرة وإزالة كلِّ العوائق التي بناها الزنج على مدخل نهر أبي الخصيب[١] .

---

[١]– تاريخ الطبري ١١١/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٨/٦ .

[٢]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١٨/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٦٧/٥ .

[٣]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٤٩/٧ .

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٠/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٦٧/٥ .

[٥]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٠/٦ .

[١]– تاريخ الطبري ١١٦/٨ .

لقد حارب الموفق الزنج طيلة هذه الفترة ببسالة وتفانٍ، وقاتله الزنج باستماتة منقطعة النظير، إلاَّ أنَّه فتح باب الحرب معهم على كافة الصُعد – كما رأينا – فكان يصارعهم بجيشه وقواته في الميدان ويضغط عليهم ويحاصرهم، فيقطع عليهم المؤن، وكافة حاجياتهم التي تمدهم وتعبئهم على مواصلة القتال إلى غير ذلك، مِمَّا تتطلبه المعارك والحروب من القادة المحترفين أمثال أبي أحمد الموفق، فهو إذن محاربٌ ومقاتلٌ عنيد يحسن التضييق على عدوّه وخَنْقهِ، وبثِّ الرُّعب في أوصاله؛ لذا انهارت أمامه عزائم الزنج الحديدية وخرَّ الزنج أمامه يتهافتون ويتوافدون عليه للانضمام إلى جيشه، بل حتَّى قادتهم الذين لجأوا إليه تباعاً يطلبون منه الأمان فيستجيب لبعضٍ ويرفض الأخر، فهذا سليمان بن موسى الشعراني من أهم قادة الزنج يطلب الأمان فيرفضه الموفق بسبب ما اقترفه من فظاعات في حقِّ الأبرياء من رعية الدولة العباسية في تلك المناطق، فلم يقبل توبته إلاَّ بعد أنْ أوقفه على أعتابه كثيراً حتَّى أعياه مكوثاً عليها وهو يطلب الأمان، وعندما رضي عنه وأعطاه الأمان قدم عليه ومعه عدد كبير من الزنج[٢]، وكذلك فعل جعفر بن أحمد السجَّان[٣] الذي طلب الأمان وكان ذلك في سنة٢٦٨هـ/٨٨٢م وهو أحد القادة الموثوق فيهم لدى صاحب الزنج فتبعه خلق كثيرُ منهم[٤] .

ليس هذا أخر قائد زنجي ذي شأن عند صاحب الزنج وأتباعه يستسلم وينظمُّ إلى جيش الموفق، بل أنَّ أحد وزرائهم يدعى محمد بن سمعان وهو كاتب صاحب الزنج وأحد وزرائه الذي لم يتردَّد في طلب الأمان من الموفق[٥]، كما أنَّ ابن صاحب الزنج الذي يدعى (انكلاي) عمد إلى طلب الأمان من الموفق، وحاول اللجوء إليه، إلاَّ أنَّه عندما عرف أنَّ أباه سمع بنبأ خيانته عدل عن رأيه وتراجع خوفاً منه[١] .

---

[٢]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٥/٦ .

[٣]– ورد في الكامل في التاريخ لابن الأثير هكذا (السَّحَّان) بالحاء المهملة ينظر المصدر نفسه ٣٠٩/٦ .

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٩/٦ .

[٥]– المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ٦٧/٥ .

[١]– تاريخ الطبري ١٢٦/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٥/٦ .

وكذلك فعل شبل بن سالم القائد الزنجي، فاستقبلَ الموفق هؤلاء وغيرهم جميعاً استقبالاً لائقاً، وتعامل معهم بروح التسامح والسخاء، وكان هذا واضحاً ظاهراً في سلوكه تجاه كلِّ من أنضمَّ إليه من جند الزنج، بحيث ترك هذا فيهم أثراً طيِّباً طمأنهم وشجَّع زملاءهم مِمَّن هم لازالوا باقين مع صاحب الزنج على الإسراع في الانضمام إلى الجيش العباسي ، فبدأوا يتوافدون عليه أفراداً وجماعات[٢] .

ولقد بلغ من تقدير الموفق لهؤلاء القادة الزنج المنضمين إليه درجة الوثوق بهم وكلفهم بمهام كبيرة وحسَّاسة، فعلى سبيل المثال لا الحصر أنَّه قد كلَّف القائد الزنجي سابقاً شبل بن سالم بمهمة مهاجمة معسكر الزنج في فرقة من الزنج المستأمنين[٣] .

ولذا، وبناءً على ما سبق، فإنَّ كلَّ الدلائل وما يظهر من أمور تشير إلى تفوق الموفق على عدوه صاحب الزنج وأتباعه، وقربه من دحر عدوه والقضاء عليه وقد بدأ الموفق بالتمهيد للهجوم النهائي والمعركة الأخيرة مع صاحب الزنج، وذلك بالقيام بهجمات سريعة وضربات خاطفة يوجهها لعدوه بغرض الضغط النفسي على الزنج واللعب بأعصابهم دفعاً لهم إلى الإقدام على الخضوع والاستسلام اللذين باتا قريبين حقيقةً بسبب تدهور أحوال الزنج لتعرضهم للظروف القاسية التي طالت مقاساتهم لها، إذ يعانون نقصاً حاداً في المأكل والمشرب أضف إلى ذلك فقدانهم للاستقرار والأمن، وغيرها من مقومات الحياة جراء الحصار المضروب عليهم من قبل الموفق، أضف إلى ذلك تلك المعارك الطاحنة المتتالية التي أنهكت قواهم واستنزفت طاقاتهم، حتى بلغوا مبلغاً عرفناه فيما سبق عند الحديث عن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية تحت ضغط الحصار المفروض عليهم .

وكما عرفنا، فإنَّ ديار صاحب الزنج قد خُرِّبت وأُحرقت فتحوَّل من غرب نهر الخصيب إلى شرقيِّه، فتبعه الموفق وهاجمه في هذه أيضاً فأحرقها وأحرق سوقاً رئيساً، كما أحرق الجسرين اللذين أقامهما صاحب الزنج على نهر أبي الخصيب، ومن ثَمَّ وكالعادة حرَّرَ عدداً كثيراً من النساء والأطفال الذين كانوا أسرى عند صاحب

---

[٢]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٤٠/٧ .

[٣]– تاريخ الطبري ١٨٢/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٥/٩ .

الزنج[1]، وأخذ الموفق ينغِّص على عدوه، ويقطع راحته بشكلٍ يكاد يكون مستمراً، حتى أدرك بخبرته وحنكته أنَّه لم يعد للزنج طاقة على مواصلة المقاومة، وهنا بان وبات جلياً له أنَّ الهجوم النهائي أصبح وشيكاً والمعركة الحاسمة صارت قاب قوسين أو أدنى .

فأخذ في الاستعداد والإعداد لهذه النهاية التي لطالما ارتقبها ومعه بني العباس والناس أجمعين .

وبعد أنْ اطمأنَّ أبو العباس الموفق إلى أنَّ الزنج باتوا مجهدين ومنهكين وقد خارت عزائمهم بعد أنْ صارت مدينتهم المختارة أكواماً من الأنقاض والخراب جراء الحرائق التي أُضرمت فيها، وما تعرضت إليه من عمليات هدم وتخريب على أيدي جيش الخلافة؛ فبعد ذلك كلِّه بات على يقين من أنَّ الوقت قد حان لاقتحام المدينة واحتلالها نهائياً، فأصدر أوامره في ذي القعدة سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م بإعداد العدة وتعبئة الجيش ووضع خطَّةٍ دقيقةٍ يضمن بها احتلال هذه المدينة وتحقيق النصر المؤزَّر على أعدائه[2] .

وقد جاء في خطته هذه – فيما يبدو من دقتها وحبكه لها – ما ينذر بنهاية هذا الصمود المنقطع النظير لثورة هؤلاء الثوار الذين صاروا بها نموذجاً فريداً في الإصرار والتحدِّي، قد لا يتكرر ثانيةً في تاريخ تمرد العبيد على أسيادهم، والذي اختار له الزنج مدينتهم المختارة لتكون رمزاً يدخل التأريخ من أوسع أبوابه وإنْ قُدِّرَ لها ألاَّ تحقق شيئاً من أهدافها .

ولعلَّ من المهم أنْ أُشير هنا وفي هذه المرحلة بالذات إلى أنَّه في الوقت الذي يتأهَّب الموفق للانقضاض على أعدائه الزنج بقيادة صاحبهم علِي بن محمد علَى نحوٍ مختلفٍ هذه المرة عن كلِّ ما سلف من هجمات ومعارك ومواجهات، برز من جديد حدثٌ ليس بالعادي له أثره الفعَّال على الخلافة العباسية وفي مجرى الأحداث على ساحة القتال .

---

[1]– تاريخ الطبري ١٢٦/٨ .

[2]– تاريخ الطبري ٥٧٧/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٦/٦ .

في هذا الوقت بالذات انفصلت مصر عن الدولة العباسية فأعلنت استقلالها عن خلافة بني العباس في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م داخلةً تحت لواء الطولونيين وعلى رأسهم أحمد بن طولون الذي كانت له قوات رابضة في الشام تحت قيادة غلامه لؤلؤ الذي رفض أنْ يستقلَّ عن الدولة العباسية[١]، وبذلك عدُّه ابن طولون خائناً، ولم يكتفِ لؤلؤ بذلك، بل أنَّه تحرَّك بجيشه الذي كان عظيماً جرَّاراً بكثرة عدد جنوده الذين بلغوا حوالي العشرة ألاف جندياً، فكانوا من الفراغنة والأتراك والروم والبربر والسودان، وهم من نخبة الفرسان وأنجادهم، انضمُّوا إلى جيش الخلافة العباسية بقيادة أبي أحمد الموفق في الثالث من محرم سنة٢٧٠هـ الذي يحاصر الزنج في معقلهم الأخير مدينة المختارة[٢] .

وبهذا الدعم الذي تلقَّاه الموفق من انضمام لؤلؤ غلام ابن طولون إليه ازداد جيش العباسيين قوَّةً وتفوَّق على الزنج الذين امتلكهم الرعب بسبب هذا الحشد العظيم الذي اجتمع لدى الموفق على أعتاب مدينتهم المختارة .

أمَّا الموفق فقد أدرك موقناً من جهوزيته وقدرته على اقتحام مدينة الزنج ودكِّها واكتساحها، بعدما اجتمع إليه ما اجتمع من دعم وتأييد .

فبدأ على الفور في وضع خطة جريئة آخذاً في اعتباره دعم جيش لؤلؤ له فضلاً عن تلك الخطة التي كان قد أعدَّها قبل انضمام جيش لؤلؤ إليه في ثالث المحرم سنة٢٧٠هـ/٨٨٣م، فكان هو بنفسه على رأس خطته الجديدة التي بدأها بإعداد الأسطول الذي يُقدَّر عدد بحَّارته بحوالي عشرة ألاف بحَّار، فجعله عالي الجهوزية لينفذَ أمر الهجوم في أيِّ لحظة يطلب فيها منه ذلك[٣] .

كما قام بتقسيم الجنود المشاة إلى عدَّة فرق، وقد أوكل أمر كلِّ فرقة إلى واحدٍ من أكفأ القادة المتمرسين في ميادين الحرب والقتال[١] .

---

[١]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٢٧/٦ .

[٢]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠٧/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣١/٩ .

[٣]– البداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٥١/١١، ٥٢ .

[١]– تاريخ الطبري ٥٨٢/٩، ٥٨٣ .

فكان أبو العباس ابنه على رأس الفرقة التي ستهاجم الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب، ويُقدَّر عددُها بحوالي ثمانية ألاف جندياً، وأمَّا أحد قادته وهو الذي يُدعى (راشد)، فأُوكل له أمر فرقة مكوَّنة من حوالي عشرين ألفاً من المقاتلين لاكتساح الجانب الشرقي من ذات النهر[٢] .

وهكذا اتجهت فرقة أخرى إلى محاذاة نهر أبي شاكر وهو أسفل أبي الخصيب، بينما زحفت فرقة رابعة متَّجهة إلى الخروج على فوهة نهر جوى كور قرب نهر أبي الخصيب؛ وكلٌ هذه الفرق كانت من المشاة المترجلين، أمَّا الفرسان فقد جعلهم خلف هذه الفرق المترجلة يحمون ظهورهم، وتحرَّك الجميع زاحفين صوب قصر صاحب الزنج لتضييق الخناق عليه ومحاصرته لكونه الموقع الأكثر أهمية، الأمر الذي يجعل الزنج يركِّزون جلَّ مقاومتهم عليه إذ يكونون أكثر استماتة في قتالهم ذوداً عنه ونصرةً لزعيمهم؛ فهم يدركون جيداً أنَّ سقوطه يعني سقوطهم ونهاية ثورتهم وتفرُّق قوتهم[٣] .

وبدأ الرِّهان الحاسم يوم الاثنين السابع[٤] من ذي القعدة لسنة ٢٦٩هـ الموافق ١٨ مايو لسنة ٨٨٣م من جهة البرِّ كما النهر، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين اشتدت رحاها يوم الثلاثاء الذي فيه تأججت نار الحرب وألتحم الجانبان في معركة حامية الوطيس كان ميدانها المختارة عاصمة صاحب الزنج التي دار القتال فيها، وانتقل من شارع إلى أخر، ومن جسر إلى جسر ومن بستان إلى بستان من شوارعها وجسورها وبساتينها، حتَّى استطاع جيش العباسيين كسر شوكة المقاومة الزنجية وتليين صلابة ثوارها[٥] .

---

[٢]– المصدر نفسه ٥٨٣/٩ .

[٣]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٢٤/١٢ .

[٤] – يجدر بنا هنا أنَّ نشير إلى أنَّ هناك من المصادر ما تجعل السابع من ذي القعدة يوافق يوم السبت لا يوم الاثنين كما هو عند الطبري، ينظر التوفيقات الإلهامية للواء محمد مختار باشا دراسة وتحقيق للدكتور محمد عمارة (ط/١) (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) سنة١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ٣٠١/١ .

[٥]– تاريخ الطبري ٥٨٢/٩ .

وبذا تمكَّنَ الموفق بجيشه من دخول دار صاحب الزنج واحتلالها وتحرير كلِّ مَنْ كُنَّ بها من سبايا وأولادهنَّ، ثُمَّ حرقها ونقل جميع مَنْ حُرِّروا إلى الموفقية[١] .

وبهذا شعر الزنج بأنَّ قوتهم أوشكت على الانهيار خصوصاً بعد ما تناهى إلى أسماعهم نبأ فرار صاحبهم على بن محمد في جماعة من قادته وحرَّاسه حيث لجأوا إلى دار المهلبي وهو أحد قوَّاده كما هو معروف يحتمون بها من خطر الموفق وجيشه[٢] .

فلاحقه العباسيون، حيث تجدَّدَ القتال، فدارت بينهم وبينه معركة أخرى التحموا فيها معه مرَّةً أُخرى استغرقت نهاراً كاملاً أسفرت عن انتصار جيش الخلافة، ووُفِّقَ فيها الموفق، واندحر صاحب الزنج وأصحابه، وفي هذه الأثناء عمد جيش الخلافة إلى إحراق بيادر الزنج وحقولهم، ثُمَّ رجع العباسيون محمَّلون بغنائم كثيرة وأموال طائلة، وحرَّروا عدداً ليس بالقليل من الأسرى والسبايا، وأهتزَّ موقف صاحب الزنج، وبذلك " ضعُفَ أمره وداخله الضعف "[٣]، وأخذت جموع الزنج في التفرَّقِ، بل أنَّ عدداً كبيراً منهم قد استسلم لجيش الدولة العباسية وطلب الأمان[٤] .

تتابعت الأحداث والمواقف على الموفق في موفقيته التي بناها، فتدفَّقت عليه الأموال والمير من البلدان والأمصار التي تقع تحت سيطرة الدولة العباسية آنذاك، الأمر الذي ساعد على نمو اقتصاد هذه المدينة وازدهارها، فعاش أهلُها حالةً من السخاء والرخاء كانت بدورها سبباً في تأجيج نار الغضب في قلوب أهاليها، ووقوفهم ضد الزنج، وازدياد رغبتهم في زوال الزنج والقضاء عليهم؛ لأنَّهم يؤمنون بأنَّ ثورتهم هذه فتنةٌ وخطرٌ عليهم وعلى مقدَّرات مدينتهم وتهديدٌ لمعيشتهم الرغدة الهنيئة، فلا بدَّ من القضاء عليهم وسحقهم لخروجهم على الدين والدولة؛ وهذا الأمر هو الذي يفسر ظهور العديد من المتطوعين من أهل مدينة الموفقية
لقتال الزنج والقيام بالمهمة الخلاَّقة حسب اعتقادهم .

---

[١]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٦٧/٥ .

[٢]– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٥٨/٢ .

[٣]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥٧/٧ .

[٤]– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٢٤/١٢ .

فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أنَّ عدداً من الفرسان يُقدَّر بحوالي ألف رجلٍ جاءوا من البحرين يقودهم رجلٌ من عبد قيس وهو من القبيلة التي ينتمي إليها صاحب الزنج علي بن محمد .

ولعلَّ في هذا ما فيه من الإنباء بتلك الحالة السيئة المتردية التي وصلت إليها سمعة ثُوَّار ثورة الزنج وصاحبهم حتى يتصدَّى له أقرب الناس إليه .

أضف إلى ذلك تلك المفارقة العجيبة في هذا عندما نذكر أنَّ البحرين كانت أوَّل موطنٍ لدعوة صاحب الزنج وحركته، بحيث عاضده فيها أوَّل مَنْ ناصروه.

وعودٌ على بدء فقد توافدت على الموفقية قوات أخرى، حيث تطوع أحمد بن دينار عامل آيدج ونواحيها من كور الأهواز، فقدم في عددٍ من فرسانه، كما توافد على الموفق الدعم من بلاد فارس وغيرها[1] .

لقد أرجأ الموفق القتال – كما رأينا – طيلة توافد القوات والمقاتلين عليه لنصرته، حيث تفرَّغ لاستقبالهم والترحيب بهم على نحو منقطع النظير، حيث أحسن معاملة القُوَّاد وأغدقهم بالهدايا "[2]، ولعلَّ هذا هو ديدن الموفق في معاملته مع قواده وأفراد جيشه، حيث كان يغمرهم بكرمه وسخائه، فكان يجود عليهم بكلِّ غالٍ ونفيس .

وبعد أنْ أتمَّ الموفق استقبال الدعم القادم إليه، أخذ ينظِّم صفوفه ويوزِّع جنوده وجحافل جيشه الجرار وفق خطةٍ دقيقةٍ محكمةٍ أعدَّها بدهاء، وحكمة بالغة تستوعب كلَّ ما استجدَّ عليه من قوات جراء الدعم الذي يلقاه من النواحي والأمصار.

فأخذ بعين الاعتبار كثرة عدد جيش خصمه العنيد، وكذلك طبيعة ميدان القتال ذي الأرض الصعبة والمسالك الوعرة التي تحدُّ من حركة المقاتلين خصوصاً مِمَّنْ لا يملكون الخبرة في القتال عليها[3] .

ومن البدهي أنْ يكون صاحب الزنج وجيشه ذا خبرةٍ عاليةٍ في القتال بهذه المناطق، ولِمَ لا ؟! وقد عاشوا فيها واعتادوا عليها، فقاتلوا في أنحائها بمهارة ودهاء، ولطالما دحروا عدوهم عليها . وأمَّا الجيش العباسي فقد كان بخلاف ذلك وعلى عكسه، إذ

---

[1]– تاريخ الطبري ١٣٨/٨ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٥٩/٢ .

[2]– تاريخ الطبري ١٣٣/٨ .

[3]– المصدر نفسه ٥٨٢/٩ .

يجهلها تماماً الأمر الذي يجعل قتاله فيها محفوفاً بالمخاطر بالنسبة إليه في معظم الأحايين .

لذا كانت مهمة واضع الخطة ومعه المقاتلين صعبة للغاية فكان لها قائدهم الموفق الذي صار ذا خبرةٍ عالية وقد عركته الأحداث وكثرة المنازلة، فأصبح متمرساً في قتال الزنج وعلى هذه الأرض بالذات .

فقد قام بنشر جيشه على جبهة طويلة قبالة عدوِّه حسبما أملت عليه خطته التي رسمها لقتال الزنج، وأمره بالتحرك والزحف في آنٍ واحدٍ تجاه قصر صاحب الزنج حال ظهور إشارة بتحريك علمٍ أسود، وسماع صوت بوق ضخم[١] .

أمَّا في الجانب المقابل فقد احتشد جيش صاحب الزنج لمقاومة جيش العباسيين الزاحف والتقى الجمعان في يوم الاثنين٢٧من محرم سنة٢٧٠هـ/٨٨٣م في موقعة لا شكَّ أنَّها طاحنةٌ، فكانت المختارة أكبر من دفع ثمن شدَّتها، بحيث تعرَّضت مرافقها ودورها وشوارعها للهدم والخراب والحرق وجميع أنواع التدمير .

واحتدم القتال وغمر الغبار كلَّ المعالم، وسرعان ما تراجع جيش الزنج، بل أنَّ منه مَنْ فرَّ هارباً من هول ما لاقوه من شدَّة سطوة وصلابة خصمهم العنيد جيش الدولة العباسية بقائده أبي أحمد الموفق، إلاَّ أنَّ الموفق تابعهم بجنوده الذين أخذوا يقتلون منهم ويأسرون أعداداً ضخمة[٢] .

وبهذا سيطر جيش الموفق واستحوذ على كامل مدينة الزنج وعاصمتهم ومعقلهم الأخير (المختارة)، وتمَّ تحرير جميع مَنْ كانوا فيها من أسرى وسبايا من الرجال والنساء والأطفال .

ولاذ القائد صاحب الزنج بالفرار مرَّةً أخرى، فهرب ومعه مَنْ بقي من قواده متَّجهين إلى موضعٍ يطل على نهر السفياني وهو من أنهار أبي الخصيب، لعلَّه أعدَّه لكي يلجأ إليه في مثل هذه الظروف[١] .

---

[١]– تاريخ الطبري ٥٨٣/٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٢/٦ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٧٠/٥ .

[٢]– تاريخ الطبري ١٣٨/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٢/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٧٠/٥ .

[١]– تاريخ الطبري ١٤١/٨ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٢/٦ .

إلاَّ أنَّ لؤلؤاً أخذ يطارده في جماعة من جنده حيث اقتحم النهر بفرسه وما فتيء يطارد علي بن محمد صاحب الزنج مصمِّماً على الإمساك به والقبض عليه، فأفلت منهم وهرب صاحب الزنج لاجئاً إلى نهر يدعى نهر (القريري)[٢] فتبعه وظلَّ وراءه إلاَّ أنَّه استطاع الإفلات منه ليصل إلى نهر المساون فعبره واعتصم بجبلٍ هناك جعله وراءه[٣] .

وفي هذه الأثناء وصل إلى لؤلؤ أمرٌ من أبي أحمد الموفق يحتِّم عليه الرجوع إلى المعسكر وترك صاحب الزنج وشأنه مؤقتاً لأمرٍ قدَّره أبو أحمد الموفق القائد الأعلى للجيش الذي انسحب بجيشه إلى الموفقية للإناخة والراحة بعد طول عناء، وجهد مضنٍ بذله الجند جراء المعارك، وملاحقة فلول الزنج الفارِّين[٤] .

وما أنْ لبث الموفق أنْ ينسحب من المختارة حتَّى اغتنم صاحب الزنج هذه الفرصة ليعود إليها على وجه السرعة وأقام فيها مع مَنْ بقي من أتباعه معه[٥] .

وهكذا، فإنَّ الحرب سيجال الأمر الذي دفع الموفق ليعيد الكرَّةَ على أعدائه راجعاً إلى مدينة المختارة في يوم السبت الثاني من شهر صفر سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م[٦]، وبذا يكون زحفه على المختارة قد بدأ من جديد، فكانت الضربة الموجعة للزنج وصاحبهم خصوصاً عندما فقد محمد بن علي صفوةً من أبرز قواده من بينهم سليمان بن جامع الذي أُسِرَ في هذا الهجوم وكذلك إبراهيم بن جعفر الهمداني، وغيره من قادة الزنج الذين وقعوا أسرى في أيدي الموفق[٧] .

وعندما أيقن صاحب الزنج من انهيار جيشه وبالتالي فشل ثورته وذهاب المباديء التي نادت بها والأهداف التي جاءت من أجلها أدراج الرياح، وتأكَّد من تبدد بقايا جيشه، فضاق به الحصار، وصار على يقين من أنَّه مُدركٌ، حينها قذف بنفسه في نهر الأمير قَصْدَ الإفلات من أيدي أعدائه وعدم تمكينهم من نفسه؛ إلاَّ أنَّهم لحقوا

---

[٢]– يروى: (الفريري) بالفاء، ينظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٣/٦ .

[٣]– تاريخ الطبري ٥٨٣/٩ .

[٤]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٣/٦ .

[٥]– تاريخ الطبري ٥٨٤/٩ .

[٦]– المصدر نفسه ٥٨٤/٩ .

[٧]– الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٣/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٧٠/٥ .

بـه، وقتلـوه واحتـزُّوا رأسـه الـذي حملـه إلـى المعسكر أحـد أصـحاب لؤلـؤ، ومـن ثَـمَّ أرسلوها إلى بغداد حيث وصلت إليها في يوم السبت ١٨ جمادى الأول سنة ٢٧٠هـ الموافق ٢٣ نوفمبر سنة ٨٨٣م[١] .

وهكذا طُويت صفحةٌ كالحة السواد من تاريخ دولة بني العباس بعد صراع مرير كاد أن يؤدي بالخلافة العباسية التي لم ترَ مثيلاً له على كثرة الحركات والثورات التي هدَّدت أمنها وسلامتها في الصميم، بسبب أنَّها أي ثورة الزنج كانت تهدف إلى تقويض سلطان بني العباس وخلافتهم من أصولها.

فبذا وبتلك النهاية الرهيبة المؤلمة انتهت أطول ثورات التاريخ الإسلامي عمراً حيث كان ظهوره في يوم الأربعاء لأربعٍ بقين من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين وكان هلاكه يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين، وكان عمر دولته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام[٢]؛ ولطول عمرها نسبياً كانت أكثر هذه الثورات أحداثاً وصراعاً في العصر العباسي، وأشدَّها قسوة وعنفاً، وأكثرها همجيةً وإراقةً للدماء الأمر الذي زاد من عدد ضحاياها المأهول والتي فاقت الحصر والإحصاء واستعصى تقديرها على المؤرخين، حتى فاقت عند المقلين منهم نصف المليون .

ولعلَّ المسعودي قد عبَّر عن هول الموقف عندما قال:- " فلقد تكلم الناس في عدد مَنْ قُتل، فالمكثرون يقولون: أفنى من الناس ما لا يدركه العدد! والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف نفر! وكِلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحدساً، إذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط "[١]

---

[١]- تاريخ الطبري ٥٨٥/٩ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٣٤/٦ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٢٨/١٢، ٢٢٩ ودائرة المعارف للبستاني ٢٦٣،٢٦٤/٩ ودولة الإسلام للحافظ شمس الدين أبي عبد الله الذهبي ت(٧٤٦هـ) (د/ط) (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت/لبنان) سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥، ص١٤٩ .

[٢]- تاريخ الطبري ٥٨٧/٩ والبداية والنهاية في التاريخ لأبي الفداء ٥٢/١١ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ٢٣٥/١٢ .

[١]- مروج الذهب للمسعودي ٤٧٩/٤

*****

الفصل الرابع
(الإخفاق والآثار)

المبحث الأول/ عوامل إخفاق ثورة الزنج
المبحث الثاني/ آثار ثورة الزنج على الدولة العباسية

المبحث الأول/ عوامل إخفاق ثورة الزنج وأسباب فشلها

لقد رأينا كيف أنَّ زعيم هذه الثورة علي بن محمد صاحب الزنج كان نهّازاً للفرص حيث كشَّر على أنيابه وألَّبَ أصحابه من العبيد الزنج على الدولة العباسية أثناء كونها تعاني ما تعانيه وتقاسي ما تقاسيه من الضُعف والهوان والفساد .

لقد كان تردِّي الحال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة العباسية آنَ ذاك بالنسبة للناس بصفة عامة وبالنسبة للعبيد والزنوج بصفة خاصة أرضاً خصبةً لأولئك المغامرين أمثال علي بن محمد الذي لم يتردَّد في إشعال فتيل الثورة، فكانت تلك الثورة التي استمرت زُهاء أربع عشرة سنة كابدت فيها الخلافة العباسية الويلات وزادت فوق تردِّي الأوضاع التي تخيِّم عليها وعلى الناس أجمعين في ظلِّها كلَّ تردٍ وسوء، فاكتوى بلهيبها الناس والرعية على نحو لم يُرَ مثيلٌ له في كلِ الحقبة التي سادت فيها الخلافة العباسية بعصريها الأول والثاني!

وقد حاولت هذه الدراسة جاهدةً في الكشف عن خفايا ما جرى خلال أحداث هذه الثورة العارمة التي أقلّ ما توصف به أنَّها شرسةٌ عنيفة بحيث لم يخفَ عنَّا منها شيءٌ ذو بالٍ – تقريباً – فيما مضى من هذه الدراسة .

والواقع أن علياً بن محمد هذا عرف – كما يقولون – من أين تؤكل الكتف بحيث اختار وقتاً مناسباً وظروفاً ملائمةً تماماً لثورته هذه؛ فكما عرفنا من أنَّ الفساد والضُعف كانا يسيطران على الخلافة العباسية بشكلٍ خاص وعلى الدولة العباسية على وجه العموم في تلك الحقبة من الزمن المليئة بأولئك الذين آلوا على أنفسهم استغلال الدين في الدعاية إلى تحقيق مآربهم وأطماعهم السياسية، وكان من بينهم، بل كان على رأسهم صاحبنا هذا الذي وضع في حساباته تردِّي حال الدولة العباسية مضيفاً إليه سذاجة أولئك العبيد الزنج الذين يسهل استغلالهم واللعب على عقولهم ببعض الوعود والأماني في السيادة والعلو، وفي الحياة الحرة الكريمة، ولعلَّ هذا راجعٌ – في تقديري – لأمرين اثنين أولهما طبيعة هؤلاء الزنوج الساذجة بحيث ينساقون وراء كلِ مَنْ يمنيهم بمجرد الوعود والعهود!

أمَّا الأمر الثاني يتمثَّل فيما كانوا يقاسونه من تردِّي أحوالهم البائسة حيث كان من الفظاعة بحالٍ يصعب حتَّى على عالي الذكاء أنْ يقاومَ فكرةً تمنِّيه بالخروج مِمَّا هو فيه .

فكان له ذلك – كما رأينا – بأنْ انساق وراءه الزنج واندفعوا معه غير آبهين بما قد يؤول إليه مصيرهم جراء الجرأة على شرف الخلافة وسيادة الدولة .

وعلى الرغم من أنَّ هذه الثورة قد أشتدَّ أوارُها، واستعرت نارها، وصلُب مِراس ثوَّارها؛ فأشتدَّ بأسها، وطالت رحاها خلقاً كثيراً، وامتدت رحلتها عبر الزمن حقبةً ليست بالقصيرة. إلاَّ أنَّ ذلك لم يشفعْ لها أمام صلابة بني العباس وتمسكهم بخلافتهم وسلطانهم؛ لذا لم تتمكَّن من الصمود أكثر مِمَّا صمدت، بل لم يكتب لها مع ذلك كلِّه النجاح، فكان الفشل والاضمحلال نصيبها!

ولعلنا في هذه الحويصلة المتواضعة نستطيع حصر بعضٍ من الأسباب والعوامل التي ساعدت على التطويح بهذه الثورة بسبب ما تحمله – في تقديري – من نقاط ضُعف توزعت بدورها بين مبادئ هذه الثورة نفسها، وكذلك في فلسفتها وفي الأتباع وتوجهاتهم العقائدية ومذاهبهم، وغير ذلك .

فمن خلال دراستنا لهذه الثورة والمراحل التي عبرتها يمكن لنا استخلاص بعضٍ من هذه الأسباب والدواعي، وهي على النحو الأتي:

المذهب العقائدي الذي يبدو لنا أنَّ صاحب الزنج قد أعتنقه – رغم اللغط الذي يدور حول المذهب الذي ينتمي إليه – كان سبباً في جلب المتاعب والعراقيل في طريق هذه الثورة بحيث حدَّ من مسيرتها وليس هذا فحسب، بل وضع لها حدّاً .

فصاحب الزنج علي بن محمد كان الواضح فيه اعتناقه لمذهب الخوارج الأزارقة منهم بالذات – على الأقلِّ في نظر مَنْ استخلصوا ذلك من سيرته وسلوكه أثناء المعارك والقتال – ولعلَّ هذا لم يرُقْ لكثيرين، ويمكن لنا أنْ نقدِّرَ ما في هذا من المردود السلبي البالغ على ثورة الزنج بحيث لم يرضَ عنهم العلويون، بل ثارت نقمتهم وصبُّوا جام غضبهم على صاحب الزنج وأتباعه فأحجموا – على الأقل – عن مناصرتهم وشدِّ أزرهم، وذلك للعداء الشديد الذي يكنُّه الشيعة للخوارج!

لعلَّ لتبدُّل الظروف والأحوال كذلك الأثر السيئ على هذه الثورة، فكما أسلفنا وهو أمرٌ معروفٌ، فإنَّ هذه الثورة قامت جراء ضُعف الخلافة وتردِّي الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في دولة بني العباس. الأمر الذي مكَّن لصاحب الزنج أنْ يشعلَ فتيل ثورته هذه في المناطق الحيوية بعيداً عن عاصمة الخلافة والدولة ردحاً من الزمن دون أنْ تقوى الدولة العباسية على ملاحقته لعدم وجود قوات ثابتة مستقرة في المناطق التي اختارها موطناً لدعوته ثُمَّ ثورته .

وهذا الوضع لم يدُمْ طويلاً لكونه كان مرهوناً بظروفٍ وأحوالٍ دارت الدوائر على صاحب الزنج بمجرد تبدُّلِها .

فالدولة أخذت أحوالها تتحسن وبدأت تنهض من سُباتها العميق الذي كانت تغطُّ فيه، خصوصاً عندما تولَّى الموفق أمر الجيش، لِمَا يتمتَّع به من شخصيةٍ قوية رهيبة واستطاع بهذه الصفات الشخصية، ومواصفاته القيادية والعسكرية قلب الأمور رأساً على عقب، وكان الخاسر فيها بطبيعة الحال الزنج وصاحبهم محمد بن علي، فسيَّرَ إليهم الموفق الجيوش الجرَّارة الضخمة، كما حشد قواته، ورصد أموالاً طائلةً، وإمكانيات رهيبة للقضاء على الزنج، بل أسس مدينةً عسكريةً بإزائهم .

وقد رأينا كيف ساءت الأحوال بالنسبة للزنج، وقد حُدَّت حرِّياتهم، وقُيِّدت حركتهم بمجرد أنْ دبَّت الحياة في الدولة العباسية بتولِّي الموفق مقاليد الأمور في قيادة الجيش وحرب الزنج، ففرغت إذن الخلافة لقتال الزنج وملاحقتهم خصوصاً بعدما جمَّدت حركات جميع أولئك المغامرين الذين لا يتردَّدُون في انتهاز الفرص والظروف السانحة كلما وجدوا لذلك سبيلا .

لعلَّ الحصار الشامل المحكم الذي ضربه الموفق على قوات الزنج كان له الدور الجوهري الكبير والأكيد في التطويح بهذه الثورة، فلم يستطعْ الزنج وصاحبهم اختراقه والخروج منه، بل لم يستطيعوا تنفُّس الصعداء من يوم أنْ ضُرب عليهم هذا الحصار الذي أوقعهم في مأزق لم يكتب لهم الخروج منه أبداً حتَّى سقطوا وسقطت ثورتهم، وتلاشت أحلامهم في السيادة والسلطان، وقُتِل صاحبهم .

وقد رأينا بدقة وعن قرب كيف أثَّر هذا الحصار سلباً في الزنج بحيث ضعُف منهم منْ ضعُفَ، وفرَّ بعضهم الأخر فافترقوا بين أسيرٍ بيد الموفق وبين مستسلمٍ طائعٍ له ومنضمٍّ لجيشه، فهجرَ صاحبَ الزنج أصحابُه حتَّى أنَّه غدا في قليلٍ منهم بعدما كانوا كُثَّراً، فتردت بذا معنوياته وانهار قبيل مقتله .

إنَّ المعاناة التي كابدها الزنج، وتلك المتاعب التي تلقوها جراء ثورتهم السوداء هذه جعلتهم يعيدون حساباتهم في أمرها وأمر زعيمها صاحبهم، إذ أنَّهم انخرطوا فيها قصد تحسين وضعهم السيئ والخروج من فقرهم وفاقتهم وهوان أمرهم وعبوديتهم وذلهم .

إلاَّ أنَّ شيئاً من ذلك لم يتحقَّق، بل بالعكس، فإنَّ بؤسهم آخذٌ في الازدياد وشقاوتهم تتجه نحو التصاعد، وزادت مشاقهم، وكثرت محنهم ومتاعبهم، بل صاروا أكثر عرضةً للمخاطر، فأصبحوا لا يأمنون على أنفسهم وأرواحهم لكونهم صاروا مطلوبين للدولة، بل مطاردين من قبل الدولة والخلافة لخروجهم عنهما، بل وحتَّى عن الدين الأمر الذي لا يذهب عنهم راحتهم فحسب، بل صاروا لا يستطيعون النوم ملء جفونهم ولا يهدئون أبدا، فكيف يطيب لهم النوم والهجود وهم مجرمون في نظر الدولة، ومطاردين، ودمهم مهدور!

إتّباع الموفق سياسة منح الأمان لأصحاب صاحب الزنج وأتباعه، بل وحتَّى قُوَّاده الذين ارتكبوا من الجرائم العِظام ما لم يعُدْ خفياً عنَّا بعدما عرفنا عن ذلك ما قيل .

فهو بدلاً من أنْ ينتقم منهم ويعاقبهم على ما اقترفوه في حقِّ البلاد والعباد، كان على العكس من ذلك تماماً بحيث أكرمهم وأغدق عليهم المنح والعطايا، وأظهرهم في مظهرٍ حسنٍ أمام أصحابهم مِمَّنْ لم ينضمُّوا إليه، بل حتَّى أنَّه سلَّمَ بعضهم مهاماً حسَّاسةً، وكلَّفهم بأعمالٍ وواجباتٍ أكسبتهم ثقته واحترامه .

كان جلُّ أتباع هذه الثورة عبيداً من السود إنْ لم نقُلْ كلُّهم، وهذا أمرٌ يجعلها تتقوقع في إطار ضيّقٍ محدود، فلا يُكفل لها الاتساع ولا التطور والانتشار، بل بالعكس يجعلها لا تحمل فكراً يمكن أنْ يعتنقه أحدٌ أو ينتبه إليه الناس أساساً فضلاً عن أنْ يعتنقوه، وفوق كلِّ هذا، فإنَّ اصطباغها بهذا اللون أوقعها في أمر أشدُّ خطورة عليها وشكَّل تهديداً حقيقياً لها حيث اتهمت جرّائه بالعنصرية ومن هنا كانت الكارثة التي لا مناص لهم منها .

فكما نعرف أنَّ دعوتها لم ترُجْ، ولم تجد إقبالاً ولا حظوةً لدى المتطلعين لتغيير أوضاعهم من أهل المناطق الجنوبية من العراق التي كانت موطناً لهذه الثورة من مثل البصرة وغيرها، كما لم يتعاون معها أحدٌ من زعماء الحركات الثورية من مثل الصفَّارين والطولونيين والقرامطة وغيرهم على نحو ما رأينا آنفاً رغم سعي زعيمِها الحثيث إلى ذلك .

كما يجعلها هذا لا تستند إلى أساسٍ متينٍ يمكن الركون إليه والاعتماد عليه، بل تبقى هي والمؤمنون بها في مهبِ الريح إذْ لم تعُدْ إلاَّ رهن اندفاع زعيمها وأصحابه وبعض قادته من جهة وضعف الدولة العباسية وتردي أحوالها وانشغالها عنها من جهة أخرى .

لقد اعتبر الناس في ذلك الوقت أنَّ ثورة الزنج خروجٌ عن الدين والدولة، وصار هذا أمراً معروفاً عنها في كلِّ الأمصار وهي كذلك.

وهذا – ولا شك – من الخطورة بمكان بحيث يسهم وبشكلٍ فعَّالٍ وأكيد في التطويح بها، وسدِّ كلِّ الطرق والسبل أمامها والقضاء عليها بتأليب جميع الناس ضدها؛ لذا قد وصفوها بالزندقة والزيغ عن الدين والحياد عن النهج القويم .

وهذا ما يفسِّر ما رأيناه من تطوَّع آلاف الناس لحرب الزنج وقادتهم والقضاء على ثورتهم، ليس داخل العراق فحسب، بل ومن خارجها من مثل بلاد فارس والبحرين وغيرها .

وبسبب أنَّ الجيشَ التابع للعباسيين كان جيشاً للدولة، فلا شكَّ أنَّه يلاقي أحسن الظروف، فتتاح له أرقى التدريبات والتعبئة والتموين وامتلاك السلاح المتنوع والعتاد والعدَّة، كما أنَّه كان يسير وفق خطط مدروسة وخطى محسوبة بموجب نظام عسكري دقيق .

وهذا بخلاف الجيش الزنجي الذي كان بطبيعة الحال متردِّيَ الأحوال محروماً من كلِّ مقومات الجيوش النظامية، فكان ناقصاً في العتاد والعدَّة والتعبئة والتموين، بل لا يعدُّ أصلاً جيشاً نظامياً، بل هو أشبه بالعصابات والمرتزقة الذين يفتقرون إلى أمورٍ كثيرة مهمة مقارنةً بجيش الدولة العباسية، وحتَّى أسلوبه في القتال كان مهلهلاً بحيث يعتمد كثيراً على مباغتة العدو والاعتماد على الهجوم الخاطف ووضع الكمائن .

فقليلٌ ما كان الجند الزنج يواجهون جيش الدولة العباسية وجهاً لوجه، وعندما يلاقونه ففي الغالب لا تكون الأمور في صالحهم بسبب عدم طاقتهم بهذا الجيش النظامي المعدّ إعداداً جيداً .

أضف إلى ذلك ذلك الشعور الذي يسيطر عليهم، إذْ هم مخالفون للنظام والدولة مطاردون من قبلها، بينما يشعر الجندي في الجيش العباسي بأنَّه مقيمٌ للنظام ومرسٍ لدعائم القانون والأمان، وشتَّان بين الاثنين .

لم تكن هناك أيةُ نسبة أو تناسب بين قِوى الزنج ورقعة الأرض التي احتلوها وسيطروا عليها بحيث كانت شاسعة جدّاً بالنسبة إلى ما يمتلكون من قوة مِمَّا أدى ذلك إلى ضياع قوتهم وبعثرتها في حاميات قليلة العدد مِمَّا أفقد قائدهم عنصراً مهماً لتكتيك المعركة ألا وهو تركيز القوات والحفاظ عليها متماسكة مترابطة .

لم يكن طول الزمن الذي استغرقه الزنج في عملياتهم العسكرية واحتلالهم لبعض أمصار الدولة في صالحهم إذْ يستوجب عليهم عسكرياً بأنْ يقصِّروا المدة ويركِّزوا عملياتهم العسكرية بالشكل والمضمون اللذين يمكنانهم من الإطباق علي عاصمة الخلافة العباسية بغداد والسيطرة عليها بعدم إعطاء فرصة سانحة للدفاع عنها بأسرع وقت وبشكل خاطف، وهذا – لسوء طالعهم – ما لم يحصل منه شيءٌ!! فتباطأوا، ولم يحسبوا لعامل الوقت في صراعهم هذا حساباً، فكانت كلفة التباطؤ باهظة إذ كلَّفهم حياة ثورتهم هذه العارمة التي قدَّموا لها الأرواح والمهج، وجادوا بكلِّ غالٍ ونفيس، وجلبوا على أنفسهم بسببها الويلات والدمار، فحيَّرتْ بني العباس وكافة الناس آنذاك ردحاً من الزمن .

معاملة الزنج لم تكن في مستوى الوعي بالمسؤولية التي يحملونها على عاتقهم، وهذا ربَّما يعود إلى قلة خبرتهم وثقافتهم التي تكاد تكون معدومة هذا إنْ كان لديهم ثقافة من الأصل!

فهم عبيدٌ وتعاملوا مع أهل الأمصار التي احتلوها بكامل القسوة والهمجية بسبب تلك التراكمات النفسية التي يكنونها لأسيادهم باعتبارهم كانوا عبيداً لهم، الأمر الذي يدفعهم إلى تصفية حساباتهم معهم، وينمي فيهم روح الانتقام .

وهذا ما حدث بالضبط مِمَّا ألَّبَ قلوب الناس وملأها حقداً وغلاًّ عليهم؛ وبذا جلبوا على أنفسهم المتاعب الجمَّة والكراهية، ففتحوا بذلك على أنفسهم أبواب جهنَّم!

لقد كانت ثورة الزنج في أول عهدها لا تعدو أنْ تكونَ تعبيراً عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية المتردية وعن سوء ما تعانيه طبقة العبيد جراء اضطهاد أسيادهم وظلمهم لهم .

الأمر الذي أودى بجوهرها وفحواها، فجعلها غفلاً من أنْ تعتنق برنامجاً منظمّاً وتحمل في طياتها أهدافاً ومبادئ رصينة واضحة .

لذا اتخذت من العنف أداةً لها بحيث صار الانتقام هدفاً رئيساً لها؛ وبذا لم تحظَ برضا الناس عنها، بل نالت سخطهم وصبُّوا جام غضبهم عليها وعلى القائمين بها فوقفوا في وجهها وقاوموها بما يملكون وطاردوا صاحب الزنج وأتباعه واعتبروه خائناً متمرداً خارجاً عن الدين والقانون على نحو ما رأينا آنفاً .

ومن هنا يمكن لنا القول ونحن مطمئنون بأنَّ هذه الثورة رغم أنَّها كبُرت وعظُم أمرها وأمر الزنج القائمين بها وعلا شأن زعيمهم وصار خطراً على الخلافة العباسية لا يُبارى! مع ذلك يمكن لنا القول بأنَّ هذه الثورة كانت تحمل أسباب فنائها بين طيَّاتها منذ البداية .

كما لا ننسى هنا عدم اهتمام الصفار بالتنسيق مع صاحب الزنج الذي وصلت جيوشه مشارف بغداد بعد أن دخلت أجزاء كثيرة في العراق ولعلَّ السبب في ذلك غروره وترفعه عن الزنج وصاحبهم إذ أنَّه لم يعيرهم – فيما يبدو – أيَّ اهتمام ولو فعل لكان الوضع مختلفاً ولربما سقطت بغداد في أيدي هؤلاء الثوار .

كما أنَّ دعم الدولة السامانية تلك القوية الغنية للخلافة العباسية كان دعماً مهماً ومشرفاً ساعد كثيراً في فشل الزنج وصاحبهم في الوصول إلى مآربهم؛ وتمكين بني العباس منهم .

المبحث الثاني/ آثار ثورة الزنج
على الدولة العباسية .

لقد كان لثورة الزنج أثرٌ فعَّالٌ ووقعٌ قويٌّ على الخلافة والدولة العباسيتين، حتَّى أنَّهما كانتا ترزحان تحت وطأة ضغوطٍ قويَّة شديدة جراء هذه الثورة القوية العنيفة،

ولقد أثَّرت فيها أشد الأثر وعميقه، فتأثَّرت الدولة العباسية بما لاقته من هول هؤلاء الثوَّار المندفعين بلا تردُّد ولا هوادة أشدّ ما يكون التأثُّر في شتَّى المناحي ومجالات الحياة باجتماعها واقتصادها وقبل ذلك كلِّه بسياستها، وشمل هذا التأثر جميع أمصار الدولة في العراق وخارجها؛ وحتى لا أُطيل يمكن لنا عرض أهم تلك الآثار الناجمة عن هذه الثورة ومحاولة تلمسها واستخلاصها من بين ركام الأحداث وبعثرة الوقائع فيما يأتي:

١) **انطوت** ثورة الزنج على خسارة كبيرة لملاَّك الأراضي وأصحاب العبيد؛ لأنَّ قوام ربحهم وكيانهم المادي إنَّما كان يقوم على تسخير أعداد العبيد الهائلة، ولأنَّ ثورة الزنج ألَّبت العبيد الزنج، وقلبتهم علي أسيادهم أصحاب رؤوس الأموال والأملاك، فلم يعودوا يشتغلون في الأرض ويعمِّروها مِمَّا أصاب البلاد بركود حاد في الحياة الاقتصادية للدولة، الأمر الذي شكَّل عليها خطراً كبيراً وأضرَّ بها ضرراً شديداً .

٢) **أثَّرت** هذه الثورة تأثيراً سيّئاً على الحالة الاقتصادية في المناطق الجنوبية من العراق، إذْ أدَّت إلى شللٍ تامٍ في الزراعة والتجارة أفضى إلى قلَّة الإنتاج، وتوقف تداول البضائع بين الناس .

٣) **اختلال** نظام المواصلات، بل قطعها الذي أدَّى إلى تفاقم مشاكل كثيرة عديدة، منها توقُّف مزاولة التجارة وكلِّ الأعمال التي يعتمدون فيها أساساً على وسائل المواصلات وطرقها وممراتهما .

٤) **ألحق** الزنج خسارة فادحة بالدولة العباسية من خلال أسلوب قتالهم الذي يعتمد أساساً على التخريب والحرق بإشعال النيران في كلِّ مدينة يهاجمونها، فيهدِّمون بيوتها ويخرِّبون مرافقها العامة وينتهبون ما فيها من أموال وأشياء ثمينة، ويسلبونها كلَّ ما فيها من شيءٍ ذي قيمة وبال .

٥) **تضررت** الدولة العباسية مِمَّا يقوم به الزنج من استنزاف للقوى البشرية من خلال إغراءاتهم للعبيد الزنوج والتغرير بهم بمجرد وعودٍ معسولة أستطاع صاحب الزنج وقادته من خلالها ضمَّ عددٍ رهيبٍ من العبيد السذَّج إلى جيشهم، بدلاً من أن كانوا يشكلون مورداً بشرياً مهماً يعمل لصالح الدولة، أضف إلى ذلك قيامهم بقتل عدد كبير من الأبرياء من أهل المدن التي يجتاحونها، الأمر الذي يُشكِّل إهداراً لهذه

العناصر البشرية التي كانت تؤدِّي مهمتها الإنسانية في المجتمع العباسي وفي هذه مجتمعاً ما فيه من خسارة مزدوجة بالنسبة للدولة العباسية .

٦) **خسرت** الدولة العباسية العديد من موانيها على أيدي الزنج منها الأبلة الميناء الذي يقع في زاوية الخليج الفارسي، وكذلك البصرة وهي الميناء الرئيس الحيوي في العراق والذي تعتمد عليه الخلافة العباسية كلَّ الاعتماد، فبسقوط البصرة في أيدي الزنج وبالتالي هذا الميناء المهم الحسَّاس لاقت الدولة العباسية أكبر خسارة وأبهظها .

٧) **لقد** أحدثت ثورة الزنج أثاراً اجتماعيةً سلبيةً على الدولة العباسية والمجتمع آنذاك، ومن هذه الآثار السلبية ما لها أبعادٌ إنسانية رهيبة لفظاعتها جعلت السامعين لا يصدِّقونها ويعزونها للخرافات، فمنها ما ينبي عن المستوى الاقتصادي والمادي والمعيشي المتردِّي الذي وصل إليه الناس آنذاك جراء هذه الثورة السوداء العنيفة الرهيبة، فهذا الوضع الذي يقاسيه الناس آنذاك قادهم بدوره إلى أنْ تسقط أخلاقهم وتنحطَّ حتَّى تخلُّوا عن إنسانيتهم وتنكروا لآدميتهم؛ وفي هذا ما فيه من خطرٍ كبيرٍ على البلاد والعباد!!

وقد كثر الكلام آنذاك عن تلك الآثار السيئة التي أفضت بها هذه الثورة على الناس، وظهرت قصص غريبة لا يكاد يصدقها العقل، مرَّ بنا بعضها آنفاً، منها أنهم يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، ولم يتركوا حتَّى الفئران والسنانير وغيرها مِمَّا حُرِّم أكله ولا تقبله النفس البشرية، وليس هذا فحسب، بل أنَّهم كانوا إذا مات أحدهم أكلوه، ولعلَّ تلك القصة المريعة التي وردت آنفاً وهي إلى الخرافة أقرب من الحقيقة والتي تمثَّلت في أنَّ أختاً كانت قد ماتت أختها فأخذت تبكي وعندما نظروا في أمرها أدركوا أنَّها كانت تبكي لا بسبب موت أختها وإنَّما تبكي بسبب أنَّ القوم التهموا جسد أختها ولم تحصل على شيء منه لتأكله سوى رأسها!!

وإليك أنْ تتخيّل – في حال صدق مثل هذه القصص – مدى الفظاعة وعِظَم المأساة جراء ذلك الانحدار، بل السقوط الإنساني الذي وصل إليه المجتمع آنذاك وبسبب تلك الظروف؛ بل يمكن لنا أيضا من خلال هذا تلمس حقيقة تلك المعاناة التي

يعانيها الناس في جميع المجالات والتي أوصلت المجتمع إلى ارتكاب مثل هذه الفظائع ودفعته ليعيش هذه الحال الذي يعجز الكلام عن وصفه!! وكلٌ هذا كان بسبب من الثورة العنيفة السوداء .

٨) أحدثت ثورة الزنج زعزعةً وبلبلةً في أوساط الدولة العباسية وأمصارها من حيث تعدُّد الاتجاهات الفكرية والدينية والمذهبية وكثرتها، فامتلأت الأجواء آنذاك بفعل ثورة الزنج بدعايات اجتماعية مخلوطة بأخرى دينية ظاهرية، وفي هذا ما فيه مِمَّا ليس يخفى على أحدٍ من الأثر الفعَّال السيء على الدولة العباسية واستقرارها .

٩) **من الأثار** الواضحة المهمَّة لحركة الزنج على الدولة العباسية وعلى مسرح الأحداث بصورة عامة ظهور شخصيات مرموقة فذَّة، واختفاء أخرى في الوقت ذاته بفعل ثورة الزنج التي لا تميِّز أثناء قتالها وحروبها بين هذا وذاك، بل يقدم جيشها على ذبح أهل المدن التي يجتاحها دون النظر في أحوالهم .

فأمَّا ظهور شخصيات مهمَّة كان أبرز مثالٍ لها الشخصيتان اللتان دارت أحداث ثورة الزنج وتركَّزت عليهما ألا وهما علي بن محمد صاحب الزنج وهو زعيم ثورة الزنج وصاحبهم الذي قام بهذا الثورة وملأت أخباره آنذاك الأمصار في الدولة العباسية وخارجها .

فالرجل كان مغموراً غير ظاهر على ساحة الأحداث، بل أنَّه لا حسب ولا نسب لديه، ولا مال ولا جاه غير أنَّه كان ذا إرادة صلدة قوية وصاحب نظرٍ بعيد ثاقب ،وفراسة بها أدرك ما يكمن في العبيد من طاقات هائلة يمكن له تطويعها واغتنامها والاستفادة منها لتحقيق أهدافه .

كما أنَّه يتمتَّع بعقلٍ راجحٍ استطاع به تحريك تلك القوى الرهيبة الكامنة في العبيد إلى حيث يشاء .

أمَّا الشخصية الأخرى فهو أبو أحمد الموفق قائد الجيوش العباسية الذي على يده اندحر الزنج وخمدت ثورتهم، فابن أحمد الموفق طلحة هذا ظهر من بيت الخلافة متميِّزاً عن جميع الأمراء العباسيين في ذلك الوقت، فكان رجلاً فذّاً نادراً في قوَّة الإرادة والشجاعة ورباطة الجأش، وقد ساعده هذا في اغتنام تلك الأحوال التي تعانيها الدولة العباسية من الضعف والتردِّي ليأخذ بيدها وينتشلها من براثن المتربصين بها،

فكان بذا أعظم شخصية في الدولة العباسية آنذاك حتَّى أنَّ قوة شخصيته هذه جعلته يطغى على شخصية أخيه الخليفة، فصار هو صاحب الأمر والنَّهي على نحو ما رأينا آنفاً .

ولعلَّه لاح في أفق الدولة العباسية آنذاك غيرهما كثيرٌ من الشخصيات قد أسهمت بشكلٍ أو أخر في إعادة تشكيل الخارطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك الجغرافية؛ والتي ربَّما لم يكتب لها الظهور وألاَّ تعرفها الناس فلم يسطِّر التاريخ أسماءهم في صفحاته اللامعة .

أمَّا فيما يخصُّ اختفاء كثيرٌ من الشخصيات المهمَّة أيضا فهو أمر واقع فرضته ثورة الزنج على مسرح الأحداث أضرَّ في الحقيقة كثيراً بالدولة العباسية، وعند تتبع هذا نجد الأمثلة عليه أكثر من أنْ تُحصى نعرِّج ونقتصر على بعضٍ من قيادات الدولة العباسية وقيادات جيش الزنج، كما ذهب ضحية هذه الثورة العنيفة جُلَّة من الأعيان والوجاهات والأدباء والمحدِّثين، وشخصيات أخرى من أهل العلم من مثل أبي الفضل الرياشي النحوي اللغوي الذي يعدُّ قتله وقتل أمثاله من العلماء وغيرهم أكبر خسارة للعلم وطالبيه ربَّما تتعدَّى حدود الدولة العباسية الجغرافية والتاريخية معاً؛ لأنَّ مثل هذه الخسارة تتكبدها وتدفع ثمنها غالياً الحضارة العربية الإسلامية بأسرها إلى يومنا هذا وربَّما أبعد من ذلك .

١٠) أعاقت ثورة الزنج مسيرة الدولة العباسية ووقفت حائلاً دون رقي المجتمع الإسلامي آنذاك وذلك عندما شغلت الدولة بالحروب وضيَّعت وقتها الثمين وأخرتها عن اللحاق بركب الأمم المجاورة الأخرى لِما في هذا من استنزاف للقدرات ومضيعة للإمكانيات، مِمَّا أفقد الدولة العباسية جلَّ مقدراتها الاقتصادية والمالية وحتَّى البشرية، حيث أودت هذه الثورة بعنفها وبطشها بأرواح كثيرةٍ من العلماء والشخصيات الفاعلة التي كانت لتسهم في تقدُّم الأمة ورقيِّ الحضارة الإسلامية، غير أنَّ هؤلاء ذُبحوا جراء حرب الزنج فيمن ذُبحوا من أهل الأمصار التي أحتلها الزنج .

١١) فقدت الدولة العباسية بعضاً من أملاكها بحيث انفصلت جراء ثورة الزنج بعض الولايات عن حكم الدولة العباسية منها مصر التي أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية تحت حكم أحمد بن طولون .

١٢) **اندلاع** ثورة الزنج خلق ظروفاً ملائمةً وجوّاً مشجعاً للمتحفزين والمتحينين للفرص على الثورة والتمرد على الدولة العباسية، لأمور أهمها أمران، الأول منهما: استعداد هؤلاء الثوَّار للثورة على الدولة وحقدهم عليها وعدم رضاهم عن الخلافة العباسية، فبدأت هذه الثورة وكأنَّها الشرارة التي أشعلت نار الكوامن من الأفكار والتوجهات .

والثاني: انشغال الجيش والدولة بأمر ثورة الزنج، الأمر الذي سهَّل أمر التمرد وساعد كثيرين على الثورة والعصيان، منهم الصَّفَّارون والطولونيون وغيرهم .

وفي هذا ما فيه من الأثر السيء البالغ على الدولة العباسية منه الاستهانة بها وبأمر الخلافة العباسية وانتهاك حرمتها وانهاك قوتها .

لم يتورع القائمون بثورة الزنج من وضع أيديهم على الخارطة الجغرافية وحتَّى العمرانية للدولة العباسية إلى درجة أنها طمست هوية مدن قائمة وبالمقابل ساعدت على ظهور مدن لم يكن لها وجود من ذي قبل .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ظهرت للوجود مدينتان عامرتان ومكتظتان بالحياة تنعمان بالازدهار وبكلِّ مظاهر العمران المتاحة في ذلك العصر، وهاتان المدينتان هما: مدينة المختارة وهي عاصمة زعيم الزنج علي بن محمد، وقد أسسها على ضفَّة نهر أبي الخصيب الغربية، وقد كانت حصينة بأسوارها وخنادقها، وشيَّد فيها البيوت والدور والقصور، وكلَّ مرافقها العامة من قلاع وحصون وسجون وغيرها، فاحتلت مساحات شاسعة حتَّى زحفت على ضفة نهر أبي الخصيب الشرقية إضافةً إلى الغربية منه، فصارت – وبحق – أحسن مورد لتموين الجيش ومركزاً لتبادل البضائع والأمتعة .

أمَّا المدينة الأخرى، فهي مدينة الموفقية وهي التي بنَاها الموفق بمحاذاة مدينة المختارة والتي جعلها – فيما بعد – مركزاً لقوات الدولة العباسية .

بناها على جانب دجلة متاخمة لمدينة المختارة مركز الزنج وعاصمتهم، محاولةً منه لخنقهم وقطع الإمدادات عليهم وبالفعل كان له ذلك .

فازدهرت المدينة أيُّما ازدهار حتَّى توافدت عليها القوافل المحمَّلة بالبضائع والإمدادات، وصارت تعجُّ بالتجَّار ومليئة بالحياة، وأخذت تكبر شيئاً فشيئاً حتَّى

طغت على مدينة المختارة عاصمة الزنج، وهو الأمر الذي خطط له ابن أحمد الموفق ونجح فيه نجاحاً باهراً .

١٣) **من الآثار** التي خلَّفتها ثورة الزنج وهي إيجابية ومهمَّة جدّاً أنَّها ساعدت الخلافة العباسية – من حيث لا يقصد الزنج ولا يدرون – على القضاء على سلطان الأتراك بعدما كانوا يلعبون بمصير الدولة العباسية وخلافتها كما يشاءون على نحو ما مرَّ بنا آنفاً، فإنْ صحَّ التعبير يمكن لنا القول بأنَّ هذه الثورة كانت سبباً في صحوة أصحاب الخلافة واستماتتهم في الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، ونجح القادة العباسيون حينها حيث أخفق القادة الأتراك، وتأكَّد جلياً بأنَّ العباسيين هم أهل الدولة وسادتها دون غيرهم من الأتراك؛ وبذا خضع القادة الأتراك تحت إمرة العباسيين، فاقتصر دور القادة الأتراك على تنفيذ أوامر القادة العباسيين والقيام فقط بما يكلَّفون به من مهام من طرف الخلافة العباسية .

وبذا رجع العباسيون إلى سابق عهدهم بالقوة والصرامة، الأمر الذي أضعف الأتراك وذهب بنفوذهم، فلم يقووا على الصمود ومواجهة أهل الحكم والسلطان من العباسيين في الدولة خصوصاً بعدما اتخذوا من الحروب والقتال ديدناً لهم، فلم يعودوا يخشون أحداً بما في ذلك القادة الأتراك الذين لم يعد لديهم مركزٌ يذكر بين الخلفاء وصانعي القرار في الدولة العباسية، وهذه تعدُّ مزية كانت من ورائها ثورة الزنج؛ على مبدأ رُبَّ ضارةٍ نافعة .

١٤) من خلال القتال المرير وحرص كلِّ طرفٍ على دحر عدوِّه لجأ كلٌّ منهما إلى التخطيط قبل كلِّ خطوة والتحيُّل واستعمال الخديعة والمكر وكلِّ الأساليب لانتزاع النصر عن الخصم فنتج عن ذلك ابتكار أساليب جديدة وطرق حربية مبتكرة ربما لم يكن للعرب سابق عهد بها، ومن بين هذه الأساليب على سبيل المثال لا الحصر اعتمادهم على التمويه وقطع الطرقات وإقامة الكمائن واستعمال بعض آلات الحرب من تلك التي لم يستعملها العرب، الأمر الذي من خلاله نستطيع القول بأنَّ هذه الحرب لم تكن تقليدية بالنسبة لذلك العصر الذي ظهرت فيه ثورة الزنج .

*****

الخاتمة

لابدَّ لكلِّ عملٍ مثمرٍ طموحٍ من نتائجَ أكيدةً تضفي عليه لوناً وشكلاً من أشكال الفائدة يجعله عملاً، أو بحثاً مفعماً بالعطاء، ولكي نعتمدَ على هذه النتائج ونركن إليها، يجبُ أنْ تكونَ عُصارةً خالصةً لهذا العمل، فبدونها لا قيمة لهذا العمل أو البحث مهما كانت ضخامته؛ ولهذا جاءت في نهاية هذه الرسالة المتواضعة خاتمةٌ تُعدُّ عُصارة هذا البحث، وروحه بحيث حوت على أهمِّ النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة، التي أتمنَّى من الله العلي القدير أنْ يجعلها ذات قيمة للمطلعين عليها، وينفع بها مَنْ أراد الخير، والمنفعة؛ وإليك أهم تلك **النتائج:**

١- إنَّ حركة الزنج قامت وانتهت دون أنْ تتْرك وراءها إرثاً فكريّاً، أو أدبيّاً خلافاً لباقي الحركات الثورية التي سبق ذكرها من مثل حركة القرامطة، وثورات الخوارج، وحركة الإسماعيلية التي بقي بعضٌ من أثارها الفكرية،وغيرها .

٢- إنَّ ثورة الزنج كانت ثورة سلبية تخريبية، بحيث خرَّب الزنج معظم الأماكن والمناطق التي أحتلُّوها، وقتَّلوا عدداً كبيراً من أهلها وعاثوا فيها فساداً، وبلغ بهم الفساد مداه حتَّى أنَّهم لم يتورَّعوا عن هدم بعض المساجد وحرقها، ومنها المسجد الجامع بالبصرة على نحو ما مرَّ بنا آنفاً؛ ولذا، فإنَّ هذه الثورة خلَّفت وراءها آثاراً سيئةً، ودماراً هائلاً، وذهب ضحيتها خلق كثير منهم شخصيات مهمة وعلماء أفذاذ؛ الأمر الذي أودى بتقدُّم البلاد، وبسط الرخاء فيها، وحطَّ من اقتصادها، وعرقل مسيرة الحياة فيها ردحاً من الزمن .

٣- إنَّ حركة الزنج كانت هجيناً اجتماعياً وسياسياً لا تعرف برنامجاً سياسياً، ولا اقتصادياً، ولا اجتماعياً محدَّداً؛ كما أنَّ التاريخ لم يعرف مثيلاً لها في هذا قط!!

٤- إنَّ ثورة الزنج قد خرجت عمَّا أدَّعى أصحابها أنَّه كان سبباً في اندلاعها بحيث وعدوا بالحرية والعدل والمساواة وبسط الرخاء بين الناس؛ لذا حاول بعضٌ من المؤرخين – متأثراً بشعاراتها – جاهداً إضفاء صبغةٍ اشتراكيةٍ عليها، وإعطائها برنامجا ثورياً منظماً إلاَّ أنَّ التناقض كان واضحاً في برنامج الحركة وفي الشعارات التي رفعها قائدها، أضف إلى ذلك ذلك المسلك السيئ الرهيب الذي سلكه أصحابها وثوَّارها الذين عاثوا في الأرض فساداً، وأهلكوا النسل والزرع؛ وبذا تبدلت لتصير شيئاً رهيباً تقشعرٌ لذكره الأبدان!!

٥- إنَّ خبرة الزنج بمناطق القتال التي جرت فيها وقائع أحداث ثورتهم السوداء هذه، وهي المناطق المحصورة بين مصب دجلة العوراء وواسط – كما عرفنا آنفاً – ذات الأراضي المنبسطة المستوية، والتي تغمرها المستنقعات وأشجار البردي والأدغال والقصب، وتخترقها القنوات وتنتشر فيها القرى والمدن؛ يقابل هذه الخبرات المتراكمة التي يتمتَّع بها الزنج جهلُ جنود الجيش

العباسي بمداخلها ومخارجها وخفاياها، ذلك ما يفسر تلك الانتصارات التي أحرزها الزنج من جانب وإخفاق الجيش العباسي وتعرضه لعقبات وصعوبات جمَّة من جانب أخر؛ كما يفسِّر طول الأمد الذي مكثته الحرب؛ حتَّى أمتدَّ عمر هذه الثورة إلى ما يربو على أربعة عشر عاماً، كما عرفنا آنفاً!!

٦- إنَّ ثورة الزنج انحرفت عن المبادئ التي انطلقت من أجلها لتصبح بهذا ثورةً يقوم بها السود على أساس عنصري أشعلها الزنج ضد أسيادهم من العرب الأثرياء ملاَّك الرقيق ، الأمر الذي وضعها أمام رفض الرافضين وحطَّ من قدرها الذي كادت تبلغه لولا هذا الانحراف الذي كان علاوةً على كونه حطَّاً من قدرها وتقليلاً من شأنها عاملاً مهماً في التطويح بهذه الثورة ووضع حدٍّ حاسمٍ لها .

٧- إنَّ ثورة الزنج حرَّرت العبيد نسبيّاً وموقَّتاً من الرِّقِ والعبودية مقابل استعباد الأسياد وإذلال الحرائر، بمعنى أنَّه جراء هذه الثورة العنيفة صار العبيد أسياداً وصار الأسياد عبيداً! مِمَّا يؤكِّد عنصريتها، فلا يجد مناصرها ما يدفع به قول القائلين بعنصريتها .

٨- لم يثبت أنَّ هذه الحركة قد اقتصرت على الزنج فقط ، بل اشترك العرب فيها في المرحلة الأولى منها على الأقل عندما ذهب زعيمها علي بن محمد إلى البحرين حال ما ضاقت به الأحوال بالعراق، تلك المرحلة الإبتدائية الأولى وهي تعدُّ مرحلة الدعوة، وقد تربصت الدولة العباسية بزعيم ثورة الزنج وأنصاره أولئك وأكثرهم من العرب، فقضت عليهم، وبهذا أُجهضت هذه المرحلة من الثورة، وعلى إثر هذه الهزيمة نفرت العربُ من زعيم هذه الثورة بعدما أدركت أنَّها لن تلاقي غير الأخطار والمتاعب جراء هذه الثورة؛ اللَّهمَّ تلك المساعدات التي قدَّمها بعض العرب للزنج أثناء قتالهم ضد الخلافة العباسية لتحقيق أغراض لأنفسهم، بما لا يعَدُّ انخراطاً في هذه الثورة .

أمَّا في المراحل التالية من هذه الثورة بعدما قصد علي بن محمد البصرة، وتطوَّر أمر هذه الثورة وصارت تنظيماً عسكرياً ودخلت مراحل القتال،

وأخذت تخوض الحروب ضد الدولة، فلم يجد المتتبع في هذه المرحلة ذكراً لأحدٍ غير الزنج سواء من العرب أو غيرهم .

وعليه، فلعلَّه يصحُّ لنا أنْ ننفي عن هذه الثورة صفة كونها حركة تحرير عامة، خصوصاً عندما نعرف ما وقع على سبيل المثال لا الحصر في البصرة من قلب الأمور بفعل الزنج وثورتهم هذه ليصبح العبيد أسياداً والأسياد عبيداً .

٩- كان صاحب الزنج محمد بن علي مخلصاً لدعوته وأميناً لأتباعه صادق الوعد، فلم يقبل بجميع العروض والإغراءات التي قدمت له والتي لو قُدِّر له القبول بها لأصبح أثرى أثرياء ذلك الزمان، بل رفضها بشدَّة وإباء .

بغضِّ النظر عن نية الرجل وما يدور في خلده من أنَّه خرج على الدولة العباسية لا لأجل غرضٍ من أغراض الدنيا، وأنَّه خرج عليها غضباً لله ولإصلاح ذلك الفساد المستشري بين الناس آنذاك؛ أو أنَّه كان نهَّازاً للفرص طمَّاعاً في نيل السلطة والسلطان والحصول على المال والجاه .

فالثابت بغضِّ النظر عن كلِّ الأحوال هو وفاؤه وتفانيه من أجل المبادئ التي خرج من أجلها ولم يخنْ أتباعه يوماً ما .

١٠- إنَّ ثورة الزنج بدأت وكأنَّها مهداً لكلِّ الخارجين عن القانون والنواميس في المجتمع، بل لكلِّ الساخطين على الخلافة، وذلك واضحٌ من خلال بعض الأساليب التي سلكتها، والتي منها على سبيل المثال لا الحصر قبولها بالتحاق بعض المارقين بصفوفها من مثل أولئك الأعراب الذين انتهبوا كسوة الكعبة لطمع هؤلاء الأعراب في نهب مدينة البصرة عند اجتياحها المزمع لدى الزنج، وذلك لكون البصرة مغرية للبدو .

١١- إنَّ الموفق كان ذا نظرٍ ثاقبٍ وفراسة منقطعة النظير حتَّى أنَّه أدرك حقيقة الدوافع التي تكمن في ثوار الزنج التي دفعتهم للقيام بالثورة والخروج عن الدولة العباسية، فانحصرت عنده هذه الدوافع في كونهم ثاروا طمعاً في تحسين أوضاعهم المعيشية الاقتصادية منها والاجتماعية وحتَّى السياسية، وأملاً في الوصول إلى تحقيق حياة حرَّة كريمة .

بدليل أنَّـه قدَّم الوعود لكلِّ المستأمنين لـه من الزنج وأوفـى بها، وكـان سخياً معهم؛ فما كـان منـهم إلاَّ أنْ تدافعوا نـحوه دون تـردُّد جنـوداً وقـادةً، ولعلَّ من صواب القول أنْ نقول بأنَّ هذا الإدراك من الموفق كان موفقاً بحيث شكَّل أهم العوامل التي ساعدت على انهيار ثورة الزنج وإخفاقها .

١٢- إنَّ ثـورة الـزنج كانـت حركـة عبَّـر بهـا أصـحابها عـن الحقـد والـبغض اللذين يضمرهما الزنـوج لأسيادهم الذين ظلموهم واضطهدوهم، واتَّخذوا منـهم عبيداً، مِمَّا حدى بالزنـج إلـى الانتقام ودفعهم لتصفية حساباتهم مع أسيادهم، فكـانوا –كمـا رأينـا آنفـاً – علـى درجـة كبيرة من العنف والقسوة فـارتكبوا فـي حقِّ أهل البلاد وعلـى رأسـهم هؤلاء الأسياد أفظـع الجرائم، فبثُّـوا الرعـب فـي قلوب العباد، ولعلَّ غلاظة أكباد الزنج هذه كانت علاوةً عمَّا قلنا قبل قليل، فهي كذلك تعبِّر عن النزعة العنيفة الشديدة التي ينزع إليها أهل ذلك العصر سواء كانوا زنوجاً أو غيرهم .

١٣- كان صاحب الزنج يُظهر للعموم ما لا يظهره لأصحابه وأتباعه، فهو يُظهر في العموم أنَّه جاء ثائراً ضدَّ الأوضاع المتردِّية، وضد تخاذل القائمين علـى الخلافـة العباسية أمـام قـادة الجند الأتراك الأغراب عن البلاد والعباد، وفوق ذلك كلُّـه أنَّـه أشعل فتيل الثورة غضباً لله، ولِما رأى عليـه النـاس من فسادٍ في الدين .

بينمـا كـان يظهـر لأصـحابه خـلاف ذلـك مُمَنِّياً لـهم بمعسول الوعود، ولعلَّ أكبر دليلٍ على ذلك خطبته فيهم يومَ عيد الفطر، عندما أبلغهم فيها أنَّـه يريد أنْ يرفع أقدارهم ويملِّكهم العبيد والأموال والمنازل وغيرها مِمَّا يتمنُّون .

والسؤال هنا يا ترى أيُّ عبيدٍ يملِّكهم غير أولئك الذين كانوا أسياداً؟!

١٤- إنَّ ثورة الزنج قامت بتحرير العبيد سوداً وغير سودٍ من العبودية والرِّقِّ كما فعلت الشيء نفسه مع كلِّ الفقراء وغيرهم من المعوزين الذين انخرطوا فـي صـفوفها وانتشـلتهم مـن الظلـم والعسـف، ولكنَّـهـا فـي الوقـت ذاتـه قلبـت الصورة إذ كانت هذه المكاسب التي حققتها ثورة الزنج وتحصَّل عليها هؤلاء

علـى حساب الأحـرار الأسـياد بحيث صـاروا عبيداً وصـار الزنـوج أسـياداً يمتلكون الحرائر .

مِمَّا يؤكّدِ أنَّ هذه الثورة كانت محدودة لا تملك برنامجاً عاماً، فهي تستهدف طبقةً معينة لا تتعدَّى العبيد لتحسين أوضاعها وعلى حساب باقي الطبقات؛ فكان هذا عاملاً قوياً لفشل هذه الثورة وعجزها على تحقيق أيٍّ من أهدافها .

١٥- إنَّ علياً بن محمد صاحب الزنج كان يتمتَّع بمزايا شخصية ومميزات خاصَّة ميَّزته عن غيره، فهذه الثورة العنيفة العارمة التي بالفعل حيَّرت الخلافة العباسية والدولة بكاملها ردحاً من الزمن لا يكون زعيمها إلاَّ شخصيةً فذَّةً هامَّةً ذات قيمة عسكرية وسياسية رفيعة عالية .

١٦- ظهور دولة قوية ذات نظام إداري ارتجالي أسس له صاحب الزنج لإقامة دولته الجديدة على رقعة الأرض التي استقرَّ له الأمر عليها، وذلك عندما أنشأ ديواناً لتسيير شؤون الدولة العامة .

كما أسس خزائن تشبه بيت المال تحوي أمواله الكثيرة الطائلة، ومهَّد لقيام نظام ضريبي جديد فرض بموجبه الضرائب على الأهالي الذين يسكنون في الأمصار التي تخضع تحت سيطرته وقد اقتطعها بطبيعة الحال من أملاك الدولة العباسية .

١٧- إنَّ حقيقة الدولة العباسية آنذاك لا تعدو أنْ تكون دولة الأتراك الأعاجم المماليك تستَّر فيها القادة العسكريون من هؤلاء تحت عباءة الخلافة العباسية .

فقد كانوا هم أصحاب الطول وبأيديهم استقرَّ الأمر والنهي ولِما لا وقد باتوا ينصِّبون الخلفاء ويعزلونهم وحتَّى يسجنون من خالفهم منهم، لا بل يعذِّبون الخلفاء في السجون ويقتلونهم على نحو ما رأينا آنفاً .

١٨- لم تتوقف الحروب ولا القتال طيلة فترة استمرار هذه الثورة تقريباً بحيث لم تهدأ الأمور إطلاقاً منذ اندلاع الثورة وحتَّى إخمادها على مدى يزيد عن أربع عشرة سنةً، مِمَّا يضفي وبقوة صفة العنف على هذه الثورة ويصبغها بالشدَّة والشراسة .

١٩- إنَّ المؤرِّخين الذين كتبوا عن هذه الثورة مِمَّن عاصروها، ومَنْ بعدهم بقليل قد غفلوا عن الحديث باستفاضة عن الدولة التي أنشأها صاحب الزنج ، بل كادوا يغفلون عليها مطلقاً، فغاب عن توثيقهم أثناء ذكر أحداث هذه الثورة الكلام عن تفاصيل ذلك النظام الخاص الجديد الذي استخدمه صاحب الزنج وسار عليه مساعدوه وأصحابه وقادته في تطبيقه والالتزام به في تسيير أمور دولتهم التي أسسوا لها على أنقاض جزءٍ من الدولة العباسية إذا صحَّ التعبير .

٢٠- إنَّ الدولة العباسية استطاعت القضاء على ثورة الزنج العارمة العنيفة – ولو بعد حين – وهي تمرُّ بأضعف مراحلها، مِمَّا يدلُّ على تلك الإمكانيات الكبيرة الهائلة التي لازالت تكمن في مؤسسة الخلافة العباسية آنذاك والتي كان من الممكن اغتنامها وتطويعها في أمورٍ أكبر من ذلك بكثير متى ما وُجد الخليفة الكفء القدير!!

وخلاصة الأمر، فإنَّ ثورة الزنج خلَّفت – بهذا الدور الذي لعبته – وضعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً جديداً سيطر على الخلافة العباسية والدولة بكامل أركانها .

وهي بذلك تُعدُّ قد انفردت بهذا، إذْ لم يسبق وأنْ أحدثت أيٌّ من الحركات الثورية هذا الأثر العميق، وأنْ تقوى أيٍّ منها على أنْ تفرض وضعاً كهذا أو تملي معالمه على الدولة العباسية على هذا النحو الغريب العجيب الذي أغرقها في بحرٍ عميقٍ كادت ألاَّ تخرج منه!!

وبين هذا وذاك، فإنَّ هذه الثورة تُعدُّ عقاباً جماعياً للجميع الذي خرج معظم أفراده عن جادة الطريق وسواء السبيل في ذلك العصر، فانصرفوا إلى الملذات وسفاسف الأمور، وتركوا دينهم الذي هو عصمة أمرهم!!!

*****

قائمة ثبت المصادر والمراجع

أولاً: كتاب الله العزيز " القرآن الكريم " .

ثانياً: المصادر والمراجع .

١ . ابن أحمد القاضي العلامة عبد الجبار.

فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة (د/ط) (د/ن) (تونس/تونس) سنة ١٩٧٢م .

٢ . ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد.

العبر (طبعة بولاق) (مطبعة بولاق/القاهرة – مصر) سنة ١٢٤٨هـ .

٣ . ابن الداية ت(٣٣٠هـ/٩٤٩م) أبي جعفر أحمد.

سيرة أحمد بن طولون بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم (د/ط) (بدلين) سنة ١٨٩٤م .

٤ . ابن راجح أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ت (٢٨٢هـ/٨٩٥م).

تاريخ اليعقوبي (د/ط) (مطبعة العربي/النجف – العراق) سنة ١٣٥١هـ .

٥ . ابن الطقطقي محمد بن علي بن طباطيا ت(٧٠٩هـ).
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (د/ط) (د/ن)(القاهرة/مصر) سنة ١٩٢٣م .
٦ . ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا الرَّازي ت(٣٩٥هـ).
مقاييس اللغة وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين (ط/١) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .
٧ . ابن الفقيه الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبي الحسن علي (٥٦٧ – ٦١٣هـ/١١٧١ – ١٢١٦م).
أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية) تحقيق ودراسة الدكتور محمد بن سفر حسين الزهراني (د/ط) (مكتبة الدار/المدينة المنورة) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
٨ . ابن مسكويه أبو علي أحمد محمد بن يعقوب ت(٤٢١هـ).
تجارب الأمم وعاقب الهمم (د/ط) (ليدن) سنة ١٩٠٩ – ١٩١٧م .
٩ ـ ابن منظور الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ت(٧١١هـ).
لسان العرب (ط/٣) (دار صادر/بيروت – لبنان) سنة ٢٠٠٤م .
١٠ . الاصطخري أبو القاسم إبراهيم (القرن الرابع الهجري).
مسالك الممالك (د/ط) (ليدن) سنة ١٨٧٠ – ١٨٩٣م .
١١ . ابن ظافر الأزدي ت(٦١٣هـ).
أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية) تحقيق الدكتور علي عمر (ط/١) (مكتبة الثقافة الدينية/القاهرة – مصر) سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .
١٢ . الأعظمي علي ظريف.
مختصر تاريخ البصرة تقديم وتحقيق عزة رفعت (د/ط) (مكتبة الثقافة الدينية) (د/ت) .
١٣ . أمين أحمد.

ضحى الإسلام (ط/١٠)(دار الكتاب العربي/بيروت – لبنان) (د/ت) .
فجر الإسلام (ط/١١) (دار الكتاب العربي/بيروت _ لبنان) سنة ١٩٧٥م .
١٤ ـ الأنطاكي أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي ت(٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (د/ط) (د/ن) (القاهرة – مصر) سنة ١٩٤٠م .
١٥ . باشا اللواء محمد مختار.
التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية (طبعة بولاق/مصر) سنة ١٣١٠هـ .
– دراسة وتحقيق وتكملة الدكتور محمد عمارة (ط/١) (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
١٦ . البرمكي شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي ت (٦٨١هـ/١٢٨١م).
وفيات الأعيان (بولاق/مصر) سنة ١٢٨٣هـ .
١٧ . برنارد لوس.
أصول الإسماعيلية ترجمة خليل جلو وجاسم الدوري (د/ط) (بغداد/العراق) سنة ١٩٤٦م .
١٨ . بروكلمان.
تاريخ الشعوب الإسلامية (د/ط) (بيروت/لبنان) (د/ن) سنة ١٩٦٨م .
١٩ . البستاني بطرس (١٨١٩ _ ١٨٨٣م).
دائرة المعارف للمعلم (د/ط) (مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان/تهران، ناصر خسرو/باسار مجيدي) يطلب من دار المعرفة/بيروت – لبنان .
٢٠ . البغدادي صفي الدين عبد المؤمن.
مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٥٤م .
٢١ . بندلي جوزي.

من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (د/ط) (مطبعة بيت المقدس) سنة ١٢٢٨هـ .
٢٢ . التبريزي الخطيب يحي بن علي ت(٥٠٢هـ).
مشكاة المصابيح (د/ط) (دار الكتاب العربي/بيروت – لبنان) (د/ت).
٢٣ . الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر ت(٢٥٥هـ/٨٦٩م).
رسائل الجاحظ (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٦٤م .
٢٤ . الجزري الإمام العلامة عمدة المؤرخين أبو الحسن علي أبي الكرم محمد ابن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الملقب بعز الدين ت(٦٣٠هـ/١٢٢٨م).
الكامل في التاريخ (د/ط) (بولاق/مصر) سنة١٢٧٤هـ .
– راجعه وصحَّحه الدكتور محمد يوسف القاق (ط/٣) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .
٢٥ . الجنابي خالد جاسم.
تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني (٢١٨ – ٣٣٤هـ/٨٣٣ – ٩٤٥م) (ط/١) (دار الشؤون الثقافية العامة " آفاق عربية " الأعظمية – بغداد/العراق) سنة ١٩٨٩م .
٢٦ . الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي البكري ت(٥٩٧هـ).
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (د/ط) (د/ن) (د/ت) .
– دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا وراجعه وصححه نعيم زرزور (د/ط) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) (د/ت) .
٢٧ . حسن حسن إبراهيم.
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي (١٩٣٥ – ١٩٤٩م) (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) (د/ت) .
٢٨ . الحلبي بن الوردي أبي جعفر زين الدين عمر بن يظفر بن عمر بن أبي الفوارس بن علي المصري ت(٧٤٩هـ).

تتمة المختصر في أخبار البشر (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٢٨٥هـ .
٢٩ . حمادة محمد ماهر .
دراسة وثيقية للتاريخ الإسلامي ومصادره (من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر) (٤٠-٩٢٠هـ/٦٦١-١٠١٦م) (ط/١) (مؤسسة الرسالة/ بيروت – لبنان) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
٣٠ . الحموي شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م).
معجم البلدان (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر)سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م .
٣١ . الحميلان إكرام محمد إبراهيم.
الدعوة العباسية ودور العرب فيها (ط/١) (مكتبة العبيكان/الرياض – المملكة العربية السعودية) سنة ١٤٢٠هـ .
٣٢ . الخازن وليم.
الحضارة العباسية (ط/٢) (دار المشرق/بيروت – لبنان) سنة ١٩٩٢م .
٣٣ . الخضري الشيخ محمد.
. تاريخ الدولة العباسية (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩١٦م .
. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) اعتنى به الدكتور درويش جويدي (ط/١) (المكتبة العصرية/صيدا – لبنان) سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .
ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) تحقيق وتعليق إبراهيم أمين محمد (د/ط) (المكتبة التوفيقية) .
٣٤ . الخوارزمي جمال الدين أبي بكر.
مفاتيح العلوم (د/ط) (بغداد/العراق) (د/ت) .
٣٥ . الخياط.
الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٢٥م .
٣٦ . الدروبي محمد محمود.

الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (ط/١) (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع/عمان الأردن) سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .
(د/ت) .
٣٧ . الدوري عبد العزيز.
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (د/ط) (د/ن) (بغداد/العراق) سنة ١٩٨٤م .
ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة (د/ط) (بغداد/العراق) سنة ١٩٤٦م .
٣٨ . الذهبي محمد بن أحمد عثمان ت(٧٤٨هـ).
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام تحق الدكتور عمر عبد السلام ندندي (ط/١) (دار الكتاب العربي/بيروت – لبنان) سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
. دولة الإسلام (د/ط) (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات(بيروت – لبنان) سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
٣٩ . الزمخشري ت(٥٣٨هـ/١١٤٤م) للعلامة الأديب أبي القاسم جار الله محمود بن عمر.
المستقصي في أمثال العرب (ط/٣) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .
٤٠ . زيدان جرجي.
تاريخ التمدن الإسلامي (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٠٢م .
٤١ . سليم محمد شريف.
ملخص تاريخ الخوارج (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م .
٤٢ . السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين ت(٩١١هـ/١٦٠٥م).
تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين بأمر الأمة (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٢٩هـ.
٤٣ . الشافعي أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت(٧٧٤هـ) البداية والنهاية في التاريخ (د/ط) (مطبعة السعادة/القاهرة – مصر) سنة١٣٥١هـ/١٩٣٢م .

_ تحق علـي شيري (ط/١) (دار إحياء التراث العربي/بيروت – لبنـان) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
٤٤ . الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت(٥٤٨هـ/١١٥٣م).
الملل والنحل (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٣١٧هـ .
٤٥ . شهلة إيلي منيف.
الأيام الأخيرة في حياة الخلفاء راجعه وقدَّم له محمد عبد الرحيم (ط/١) (دار الكتاب العربي/دمشق، القاهرة) سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .
٤٦ . الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤ – ٣١٠هـ).
تاريخ الأمم والملوك (د/ط) (مطبعة الاستقامة/مصر) (د/ت) .
_ (ط/٢) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٤٧ . العبادي أحمد مختار.
في التاريخ العباسي والفاطمي (د/ط) (مؤسسة شباب الجامعة/الإسكندرية – مصر) (د/ت) .
٤٨ . العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ت(بعد ٤٠٠هـ).
جمهرة الأمثال ضبطه ونسقه ووضع هوامشه الدكتور أحمد عبد السلام وخرَّج أحاديثه أبو هاجر محمد سعيد (ط/١) (دار الكتب العلمية/بيروت – لبنان) سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
٤٩ . العش يوسف.
تاريخ عصر الخلافة العباسية ، راجعه ونقحه الدكتور محمد أبو الفرج العش (ط/٧) (دار الفكر المعاصر/بيروت – لبنان) (دار الفكر/دمشق سورية) سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
٥٠ . العفيفي عبد الحكيم.
موسوعة (ألف حدث إسلامي) (ط/٢) (أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع/بيروت – لبنان) سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
٥١ . العلوي ناصر خسرو.

سفر نامة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) ترجمة الدكتور يحي الخشاب (د/ط) (د/ن) (القاهرة/ مصر) (د/ت) .
٥٢ . عمارة محمد.
. المعتزلة في أصول الحكم (د/ط) (د/ن) (بيروت/لبنان) سنة ١٩٧٧م .
. المعتزلة والثورة للمفكر العربي للدكتور محمد عمارة (د/ط) (د/ن) (بيروت/لبنان) سنة ١٩٧٧م .
٥٣ . لفان فولتن.
السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية ترجمة وتعليق الدكتور حسن إبراهيم حسن بالاشتراك مع الشيخ محمد زكي إبراهيم (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٩٣٣م .
٥٤ . فوزي فاروق عمر.
الخلافة العباسية السقوط والانهيار (ط/١) (دار الشروق للنشر والتوزيع/عمان – الأردن) سنة ١٩٩٨م .
٥٣ . القيرواني أبو إسحاق إبراهيم علي الحصري ت(٤٥٤هـ).
ذيل زهر الآداب أو جمع الجواهر في الملح والنوادر(د/ط) (القاهرة – مصر) (د/ت) .
٥٥ . الكعبي ابن وادران.
تاريخ العباسيين تقديم وتحقيق الدكتور المنجي (ط/١) (دار الغرب الإسلامي/بيروت – لبنان) سنة ١٩٩٣م .
٥٦ ـ الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت(٤٥٠هـ/١٠٥٧م).
الأحكام السلطانية والولايات الدينية (د/ط) (القاهرة/مصر) سنة ١٢٩٨هـ .
٥٧ . متز آدم.

تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو زيد (د/ط) (بيروت/لبنان) سنة ١٩٦٧م .
٥٨ . المدائني ابن أبي الحديد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد عز الدين ت(٦٥٥هـ).
شرح نهج البلاغة (د/ط) (دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع/بيروت – لبنان) (د/ت) .
– (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة١٢٨١هـ .
٥٩ . المسعودي أبو المحاسن علي بن الحسين بن علي ت(٣٤٦هـ/٩٥٦م).
مروج الذهب ومعادن الجوهر (د/ط) (د/ن) (القاهرة/مصر) سنة ١٣٤٦هـ.
٦٠ . المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد ت(٣٤٦هـ/٩٥٦م).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (د/ن) (ليدن) سنة ١٩٠٦م .
٦١ . المقريزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ت(٨٤٥هـ/١٤٤١م).
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (د/ط) (دار التحرير/القاهرة مصر) (د/ت) .
٦٢ . الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد النيسبوري ت(٥١٨هـ).
مجمع الأمثال (طبعة جديدة منقَّحة) (دار مكتبة الحياة/بيروت – لبنان) سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

*****